

رَفَع

عبد الرحمن العبيدي  
أسكنه الفردوس  
www.moswarat.com

# قِصَّةُ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ

سيرة ودعوة (العهد الملكي)

تأليف

عبد الرحمن دلاور العبيدي

طبعة جديدة مصححة ومنقحة

تقديم

د. عبد الكريم زيدان د. منير حميد البياتي



دار الألوكة للنشر والتوزيع

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن البخاري  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com

قصة السيرة النبوية  
سيرة ودعوة (العهد المكي)

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى لدار الألوكة

١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م



دار الألوكة للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض

هاتف: ٢٠٥٢٨٨٥ ناسوخ: ٤٥٥٠٦٦٦ ص. ب. ٣٠٥٦٦٠ الرياض ١١٣٦١

[alukah@alukah.net](mailto:alukah@alukah.net)

# قصة السيرة النبوية

سيرة ودعوة (العهد الملكي)

تأليف

عبد الرحمن ولاوة العيسري

تقديم

الأستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان والأستاذ الدكتور منير حميد البياتي

دار الألوكة للنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه  
أجمعين، وبعد:

فإن من أعظم ما ينفع المسلمين اليوم الفهم الواعي لسيرة النبي  
الكريم ﷺ فهما تفصيلياً يبعث المسلمين أفراداً وجماعات على  
الاقتراء به عليه الصلاة والسلام، والتأسي بسيرته العطرة.

قال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا  
اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وبخاصة والسيرة  
النّبويّة تجسيد لمعاني القرآن العظيم.

ومن أجل فهم السيرة النبويّة لا بُدّ من الإقبال عليها بهمة ورغبة  
واشتياق، ومما يُعين في ذلك عرضها عرضاً ممتعاً مشوّقاً يجعل  
القارئ يعود إليها مرة بعد مرة، فترسخ أحداثها ووقائعها في فكره،  
وتتفاعل معانيها في قلبه؛ وهو مطلب عظيم الفائدة، كثير النّفع.

والكتاب الذي بين أيدينا موفّق كلّ التوفيق في خدمة هذا المنهج  
المثمر؛ فقد وُفّق المؤلف إلى عرض السيرة النبويّة عرضاً قصصياً  
مشوّقاً يمكن جميع طوائف المثقّفين من فهم السيرة فهماً واعياً بسهولة  
ويُسْر؛ ذلك أنّ كتب السيرة تعرض عادة المعلومات والحوادث عرضاً

علمياً خالصاً قد يكون مملاً للمثقف الاعتيادي، وإن كان غير مملٍ للمتخصّصين .

فأراد المؤلف بهذا الكتاب - ولأوّل مرة على ما نعلم - أن يعرض السيرة النبوية عرضاً قصصياً بأن حوّل السيرة النبوية من مولد المصطفى ﷺ إلى نهاية هجرته - وهي: العهد المكيّ - إلى قصة رائعة جدّاً تجعل القارئ يعيش أحداثها يوماً فيوماً، وساعةً فساعةً، بل وأحياناً: لحظةً فلحظةً، وينقل القارئ إلى أجواء ذلك العهد المكيّ بشكل فريد؛ فيعيش الأحداث وكأنّه في داخلها، فيرى دعوة الرسول ﷺ، وصراع الإيمان مع الكفر، ونزول آيات القرآن حسب حوادث السيرة ووقائعها... مع وضع نهايات مشوّقة موفّقة تجعل القارئ ينتظر ما بعدها بلهفة واشتياق؛ مما يمكن القارئ من إنهاؤها بسهولة ويسر، ومعرفة العهد المكيّ بأجمعه .

وقد اعتمد المؤلف المصادر الأصيلّة في السيرة أثناء الاقتباس منها، وبطريقة علمية سليمة يرضى عنها المتخصّصون، وتنفع المثقّفين .

والكتاب يتميّز بعرض قصصي شيق جدّاً بأسلوب سهل ممتع؛ فيعرض المعاني العالية العظيمة بأسلوب سهل جميل، وعبارات سهلة، من غير تعقيد؛ وهو أسلوب تميّز به الكاتب، وبرع فيه بفضل الله تعالى، لم نر له مثيلاً عند كتّاب السيرة النبوية الشريفة .

وقد تحرّى الكاتب إثبات الروايات الصّحيحة والحسنة بشأن الحوادث والوقائع المثبتة في كتب السيرة النبوية، مع حسن الانتقاء منها، وحسن الترجيح في الروايات المتعارضة حسب التّوجيه لها،



وقد كانت للمؤلف التفاتات واستنباطات رائعة من أحداث السيرة النبوية؛ وفق إليها لعيشه في أحداث السيرة، مع صفاء نفسه وروحه، وما عهدناه فيه من تقوى وإيمان.

كما حرص المؤلف حرصاً شديداً على مراعاة تنزل الآيات أثناء حياة النبي الكريم ﷺ في مكة؛ فجمع بين الأحداث والآيات النازلة بشأنها جمعاً بديعاً جداً معتمداً في ذلك على المصادر الأصيلة في التفسير.

فجزى الله أخانا الكاتب أحسن الجزاء على ما قدمه من تيسير لفهم السيرة النبوية في العهد المكي بأسلوب فذ، وعرض ممتع، في صورة قصة متماسكة مترابطة، فيها كل عناصر القصة الرائعة من جهة، والبحث العلمي الرصين من جهة أخرى، قضى فيها ست سنوات من عمره جمعاً وتنظيماً، وتحقيقاً وصياغة؛ خدمة لسيرة الحبيب المصطفى ﷺ.

ودُعَاؤنا له أن يجد ثواب ذلك عند الله أضعافاً مضاعفة؛

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والأستاذ الدكتور منير حميد البياتي

الأستاذ الدكتور عبد الكريم زيدان



رَفْعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

نَسَبُهُ  
وَصَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ

مَحَمَّدٌ

ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ

ابْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ

ابْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ

ابْنِ خُزَيْمَةَ

ابْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسَ بْنِ مُضَرَ

ابْنِ نِزَارِ بْنِ مَعَدِّ بْنِ عَدْنَانَ (١).

رَفَعُ  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

(١)

حَدَّثَ فِي الْمَرَعَى

عن أنس بن مالك: « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جَبْرِيلُ  
وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه  
فاستخرج منه عَاقَةً، فقال: هذا حظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ،  
ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءٍ زَمْزَمٍ، ثُمَّ لِأُمَّهُ،  
ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ...».

"صحيح مسلم" (١٦٢) (٢٦١)

١- ماذا حدث؟!

اندفع الطُّفْلُ يَرْكُضُ ..  
 يركُضُ بكلِّ ما أُوتِيَ من قُدرةِ عَلى الرَّكُضِ ..  
 كانَ قد مَلأه رُعبٌ هائلٌ ..  
 رُعبٌ من نَوعِ رَهِيبٍ ..  
 كانَ حاسِرَ الرَّأسِ، حافِيَ القَدَمينِ، مُهملَ الشَّعْرِ ..  
 كانَ يتعثَّرُ، يسقطُ، ينهضُ ..  
 إنَّه لا يريدُ أن يقفَ ..  
 لا يريدُ أن يتأخَّرَ لحظةً ..  
 إنَّه يُريدُ أن يصلَ إلى أبيه، إلى أمِّه ..  
 لا تُهَمُّه الخُدوشُ التي أصابت رُكبتَيه من أثرِ السُّقوطِ ..  
 منزله ليس بعيداً ..  
 لكنَّه صارَ بعيداً ..  
 تركَ الشِّياهِ وحدها ..  
 إنَّها لا تُهَمُّه!  
 لا يُهَمُّه أيُّ شيءٍ ..  
 إلا الشَّيءَ الذي رآه ..  
 أين منازلنا؟!

متى أصل إليها؟! أين أبي؟!  
 هل أجده في البيت؟!  
 اندفع الراعي الصغير يركض..  
 كان نحيفاً، أسمر..  
 شدَّ ثوبه على وسطه..  
 حمل عصاه بيده..  
 كان الحصى يتطاير بتأثير قدميه..  
 لم ينتبه إلى شيء مما حوله..  
 التلال، والأشواك، والأحجار التي قرّحت قدميه!  
 متى يصل؟!  
 أين البيوت؟!  
 سقط على وجهه، تلقى الأرض براحتيه!  
 طارت العصا من يده..  
 تقرّحت ركبته!  
 ظلَّ يركض..  
 شعر بحلقومه يجفُّ..  
 وبصدره يلتهب..  
 إنَّه يريد أن يقف ليتنفس..



لكنَّه لا يريد..  
 إنَّه يريد أن يزيد من سرعته..  
 لكنَّه لا يستطيع..  
 شعر كأنَّه يرْكُض بلا ساقين..  
 أو يساقين لا تستطيعان حملَه..  
 قد عَجَزتا عن الحركة..  
 لا بدَّ أن يصل..  
 ليخبر أمَّه، ليخبر أباه بما حدث..  
 ها هي ذي منازلُه..  
 أين أبوه الحارث؟! أين أمُّه حلِمة؟!  
 برز أبواه على عَجَل..  
 هالهُما منظرُه؟!  
 ماذا حدث؟!  
 «فصاح بأمِّه:  
 - أدركي أخي القُرشيَّ»<sup>(١)</sup>.

## ٢- رَكِبَ الْمَرْضِعَات:

كان ذلك في الثلث الأخير من ربيع الأول، بعد شهرين من حادثة

(١) "الطبقات الكبرى" (١/٩٣)، وابن هشام (١/١٧٣، ١٧٤).

الفيل، وقد أصاب القوم سنةً شهباء لم ينزل فيها المطر، ومضى الربيع بلا ربيع؛ فتحرك ركب المرضعات السعديات نحو مكة<sup>(١)</sup> يبغين الرضعاء، ويطمعن بالكثير أو القليل من أهلهم!

في نهاية الركب، وعلى مسافة ليست قصيرة، كانت حليلة على دابة قمراء<sup>(٢)</sup> هزيلة، عنيدة كأنها لا تريد أن تبتعد عن الحي، كانت حليلة تحتضن بيدها اليمنى ولدها عبد الله الذي لا يكاد يكف عن البكاء من الجوع! يتقدمها زوجها الحارث على ناقته المسنة.

كان الرجال يريدون الطواف بالبيت الذي دافع الله عنه بجنود لم يعرف لها مثل في قديم الزمان ولا حديثه، إنها الطير الأبايل، رمّت العدو بحجارة من سجيل، فجعلته كعصف مأكول!!

لم تستطع أية قبيلة عربية أن تقف في وجه الجيش الأسود الحاقد القادم من اليمن بقيادة أبرهة الحبشي لهدم الكعبة! لهدم البيت الذي بناه إبراهيم! ثم صرف العرب عنه إلى كنيسة بناها أبرهة في اليمن! وعجزت سواعد العرب، وعجزت سيوفهم، ووقف عبد المطلب وقد أمسك بحلقة باب الكعبة، وهو يبكي وقد تساقطت الدموع من عينيه، وراح يردد بصوت تخنقه العبرات:

لَاهُمْ إِنْ الْمَرْءَ يَمْنَعُ رَحْلَهُ؛ فَاْمْنَعُ رِحَالِكَ

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ أَبَدًا مِحَالِكَ

وكانت الغلبة على الجيش الباغي لله وحده، لا لأحد من الناس!

(١) تبعد ديار بني سعد حوالي ٢٠٠ كيلومتر عن مكة إلى الشرق منها.

(٢) قمراء: بيضاء.

واشْرَأَبَّتْ الْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ بَمَنْ فِيهَا إِلَى مَكَّةَ الَّتِي دَافَعَ اللَّهُ عَنْهَا بِجَيْشٍ مِنْ عِنْدِهِ، وَنَظَرَتْ إِلَى أَهْلِهَا نَظْرَةً إِكْبَارٍ وَإِجْلَالٍ!

الرَّكْبُ يُرِيدُ أَنْ يُسْرِعَ لِيَصِلَ إِلَى مَكَّةَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتْرَكَ حَلِيمَةَ وَرَاءَهُ! وَالْأَتَانُ<sup>(١)</sup> الْعَنِيدَةُ الْهَزِيلَةُ لَا تَلْتَفَتُ إِلَى تَوْسَلَاتِ حَلِيمَةَ، وَفِي أَيَّامِ السَّفَرِ قَاسَتِ حَلِيمَةَ مِنْ أَتَانِهَا الْأَمْرَيْنِ! وَعِنْدَمَا بَلَغَتْ مَكَّةَ تَنَفَّسَتْ حَلِيمَةَ الصُّعْدَاءَ، وَأَلْقَتْ نَفْسَهَا وَقَدْ نَالَ مِنْهَا الْهَمُّ وَالتَّعَبُ كُلُّ مَنَالٍ، فَنَامَتْ نَوْمَةً، ثُمَّ اسْتَيْقَظَتْ عَلَى صَوْتِ طِفْلِهَا يَبْكِي مِنَ الْجُوعِ، وَمَا فِي ثَدْيِهَا مَا يُغْنِيهِ، وَمَا فِي شَارِفِهِمْ<sup>(٢)</sup> مَا يُغْذِيهِ!

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ انْطَلَقَتْ الْمُرْضِعَاتُ مُسْرِعَاتٍ إِلَى مَكَّةَ، وَانْتَشَرْنَ فِي أَزْقَتِهَا، وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَاتٌ حَتَّى عُدْنَ إِلَى رِحَالِهِنَّ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ تَحْمِلُ طِفْلاً إِلَّا حَلِيمَةَ؛ فَإِنَّهَا عَادَتْ بِحِضْنِ فَارِغٍ!

عَادَتْ حَلِيمَةَ آخَرَ النَّهَارِ كَسَيْفَةً أَسَيْفَةً، حَزِينَةً خَائِرَةَ الْقُوَى، وَأَلْقَتْ نَفْسَهَا دُونَ أَنْ تُكَلِّمَ زَوْجَهَا، وَدُونَ أَنْ تَنْتَبِهَ إِلَى صُرَاخِ طِفْلِهَا الَّذِي مَا زَالَ يَصْرُخُ مِنْذُ الصَّبَاحِ!!

أَخَذَتْ طِفْلَهَا، وَأَعْطَتْهُ ثَدْيَهَا.

إِنَّهَا لَا تَرِيدُ أَنْ تَتَكَلَّمَ..

إِنَّهَا تَخْشَى أَنْ تَنْفَجِرَ بِالْبُكَاءِ..

سَيُغَادِرُ الرَّكْبُ غَدًا أَوْ بَعْدَ غَدٍ، فَهَلْ تَعُودُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ بِحِضْنِ

مَلِيٍّ، وَتَعُودُ حَلِيمَةُ بِحِضْنِ فَارِغٍ؟ هَلْ خَلَّتْ مَكَّةَ مِنْ طِفْلِ لَهَا؟

(١) الْأَتَانُ: أُنْثَى الْحِمَارِ.

(٢) الشَّارِفُ: الثَّقَافَةُ الْمُسَيَّبَةُ.

لا .

بل هناك طفل جميل ، وضيء كالقمر ..  
كان قد احتلَّ مكاناً من قلبها ، بل سيطر على قلبها ، وملاً ..  
جميع المرضعات رفضنه ..

من يدري؟

لعلَّ الله تعالى قد صرفهنَّ عنه لحكمة يُريدها!!  
إنَّه يتيم.

تُوَفِّي أبوه وهو حَمْلٌ في بطن أمه :

«يتيمٌ، لا مالَ له، وما عست أمُّه أن تفعل»؟! (١)

وحاولت أن تصرف ذهنها عنه وهي تُرضع طفلها، ولكنها لم  
تستطع ..

وعادت تحدِّث نفسها: «وما عسى أن تصنع أمُّه وجَدُّه»؟! (٢)

مضت مدةً ليست قصيرة، شعرت حليمة بالراحة بعدها، فمالت  
على زوجها تحدِّثه، وأخبرته بما حدث لها، ثم قالت:

- والله إنِّي لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً.

وسكتت قليلاً، ثم قالت، وقد عزمَت على شيء:

- والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلاأخذنه.

(١) "الطبقات الكبرى" (٩٢/١).

(٢) "ابن هشام" (١٧٢/١).

قال زوجها:

- لا عليك أن تفعلني؛ عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة<sup>(١)</sup>.

فانطلقت حَلِيمَة تَرْكُضُ، والدُّنْيَا لا تَسْعُهَا، وقلبها ومشاعرها  
وأحلامها تَسْبِقُهَا! إِنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَصِلَ إِلَى بَيْتِ الطِّفْلِ الْعَزِيزِ الَّذِي تَعَلَّقَ  
قَلْبُهَا بِهِ، تُرِيدُ أَنْ تَأْخُذَهُ وَتَعُودَ قَبْلَ أَنْ يُغَادِرَ الرَّكْبَ.

كَانَ الطِّفْلُ فِي قِمَاطِهِ النِّظِيفِ الْأَبْيَضِ يُضِيءُ كَالْبَدْرِ، كَانَتْ  
رَائِحَتُهُ الزَّكِيَّةَ تَمَلَأُ الْبَيْتَ<sup>(٢)</sup> ..

- ما اسمه؟

- مُحَمَّدٌ.

شَعَرَتْ كَأَنَّ رِعْشَةَ قَوِيَّةً هَزَّتْ جَسَدَهَا كُلَّهُ:

- مُحَمَّدٌ؟!!

- نَعَمْ، سَمَّاهُ جَدُّهُ عَبْدِ الْمَطَّلَبِ، وَقَالَ:

- أَرَدْتُ أَنْ يَحْمَدَهُ اللَّهُ فِي السَّمَاءِ، وَخَلَقَهُ فِي الْأَرْضِ<sup>(٣)</sup>.

وَعَادَتْ حَلِيمَة إِلَى رَحْلِهَا وَالدُّنْيَا لَا تَسْعُهَا مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ،

(١) "ابن هشام" (١/١٧٢)، وفي "الطبقات" (١/٩٢): «فقال لها زوجها: خذيه عسى الله أن يجعل لنا فيه خيراً».

(٢) «كان الصبيان يصبحون رُمُضًا شُعْنًا عُمُضًا، ويصبح رسول الله ﷺ دهينًا صقيلاً كحيلًا» "الطبقات" (١/١٠١)، و"إمتاع الأسماع" (ص٧)، و"السيرة النبوية" لابن كثير (١/٢٤٢)، دهينًا: عَطْرًا.

(٣) "السيرة النبوية" لابن كثير (١/٢١).

فتلقاها زوجها، ونظر إلى الطفل، ثم رفع رأسه تبرق أساريره فرحاً؛  
وقال:

- تعلمي والله يا حليلة؛ لقد أخذت نَسَمَةً مُباركة! (١) ..

فأجابت وقلبها يكاد يطير فرحاً:

- والله إنني لأرجو ذلك.

ثم جلست حليلة، ووضعت الطفل في حجرها، وراحت ترضعه،  
وشعرت بشيء يدب في صدرها، امتلاً ثديها باللبن! فشرب الطفل  
حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثم ناما، وما كان عبد الله  
ينام قبل ذلك من الجوع، وما كنا ننام معه.

ثم قام الحارث إلى الشارف فإذا بها حافل، فحلب حتى ملأ  
الإناء وشرب، وشربت حليلة معه، وباتا بخير ليلة مرت عليهما.

### ٣- الشارف والأتان:

في صباح اليوم التالي تحرك ركب المُرَضعات عائداً إلى منازلهم  
في بني سعد، وتخلفت حليلة ريثما تُرضع طفلها، واقترب الحارث  
وقال بصوت خفيض وكأنه يخشى أن يسمعه أحد:

- تعلمي والله يا حليلة: لقد أخذت نَسَمَةً مُباركة!

فأجابت وابتسامةً رضيّة تملأ مِحْيَاها:

- والله إنني لأرجو ذلك.

(١) "ابن هشام" (١/١٧٣)، وتعلمي: اعلمي؛ "لسان العرب" (١٥/٣١٢).

وقبل أن يغادرا أخذ الإناء فحلب النَّاقَةَ حتى مَلَأَهُ، فشربت حَلِيمَةً، ثم شرب الحارث حتى رَوِيَ.

ونَهَضَتْ إِلَى الْأَتَانِ فَإِذَا قَدْ دَبَّتْ فِيهَا الْحَيَاةُ، فَصَارَتْ فِي غَايَةِ الْقُوَّةِ وَالنَّشَاطِ، فَرَكِبَتْهَا حَلِيمَةً وَحَمَلَتْ مُحَمَّدًا بَيْنَ يَدَيْهَا<sup>(١)</sup> وانطلقت، وانطلق الحارث على شارفه، فلحِقُوا بِالرَّكْبِ؛ بَلْ تَقَدَّمَتِ الْأَتَانُ تُرِيدُ أَنْ تَسْبِقَ الرَّكْبَ!

فصاحت إحدى المُرْضِعَاتِ:

- ويحك يا ابنة أبي ذؤيب؛ أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟!

فأجابت: بلى والله؛ إنها لهي هي!<sup>(٢)</sup>

وجرى للنَّاقَةِ العَجُوزُ مَا جَرَى لِلْأَتَانِ الضَّعِيفَةِ، فَتَقَدَّمَتِ الرَّكْبَ غَيْرَ مُبَالِيَةٍ بِصِيَّاحِ الرُّجَالِ، وَلَا بِاسْتِغَاثَةِ الْمُرْضِعَاتِ:

- يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! اربعي<sup>(٣)</sup> علينا!

وَقَطَعَ رَكْبُ الْمُرْضِعَاتِ طَرِيقَ الْإِيَابِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى مَنَازِلِ بَنِي سَعْدِ فِي نِصْفِ الْمَدَّةِ الَّتِي قَطَعَهَا فِي ذَهَابِهِ إِلَى مَكَّةَ تَقْرِيبًا!! وَكَانَتْ بِلَادُ بَنِي سَعْدِ أَرْضًا جَدْبَاءَ، لَيْسَتْ أَرْضٌ مِنْ أَرْضِ اللَّهِ أَجْدَبَ مِنْهَا، فَلَمَّا قَدِمَتِ حَلِيمَةُ بِالطِّفْلِ صَارَتْ غَنْمُهَا تَرُوحُ خِمَاصًا، وَتَعُودُ بَطَانًا شِبَاعًا لُبْنًا!!

(١) "الطبقات" (١/٩٢).

(٢) "ابن هشام" (١/١٧٣).

(٣) اربعي: تمهلي.

- فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان غيرنا قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع!! حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم:  
- ويلكم؛ اسرحوا حيث يسرح راعي ابنة أبي ذؤيب!  
فلم نزل نتعرّف من الله الزيادة والخير!!<sup>(١)</sup> وكان محمّد يشبُّ شبابًا لا يشبُّه الغلمان، حتى مضت سنتاه وفصلته.

كانت ثويبة - مولاة عمّه أبي لهب؛ عبد العزّي بن عبد المطلب - قد أرضعت محمّدًا في الأيام الأولى لولادته قبل قدوم حليمة، أرضعته بلبن ابنها مسروح، وكانت قد أرضعت قبله عمّه حمزة بن عبد المطلب الذي استرضع في بني سعد قبله بعامين، وأرضعت بعده ابن عمّته عبد الله بن عبد الأسد المخزومي<sup>(٢)</sup>؛ أمّه برة بنت عبد المطلب.

#### ٤- هموم المرضعة:

استعدت المرضعات السعديات للعودة بالأطفال إلى أهلهم في مكة، وكانت كلُّ مرضعة تُمني النفس بالكثير الذي ستحصل عليه من والدَي الطّفل، وكنّ ينتظرن ذلك اليوم بفارغ الصّبر، إلا حليمة؛ فإنها شعرت كأنّ العامين قد ذهباً بأسرع مما ينبغي، كأنّ مُدّة الرّضاعة قد انقضت في طرفة عين!! إنّها تُريد أن تطول المُدّة وتطول لأنّ أبواب السّعادة قد تفتّحت عليها من كلّ جانب، منذ أخذت محمّدًا والخيرُ

(١) "ابن هشام" (١/١٧٣).

(٢) هو أبو سلمة، وفي هذه السنة، أو بعدها بقليل، ولد عبد الله بن أبي قحافة.



كُلُّ الْخَيْرِ قَدْ غَمَرَهَا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَتَعَلَّقَهَا بِمُحَمَّدٍ قَدْ أَزْدَادَ حَتَّى تَمَكَّنَ مِنْ قَلْبِهَا، بَلْ احْتَلَّ مَكَانًا مَكِينًا مِنْهُ!

وَمَضَتْ حَلِيمَةَ مَعَ الرَّكْبِ وَهِيَ لَا تُرِيدُ، وَتَمَنَّتْ لَوْ تَأَخَّرَتْ الْأَتَانُ - كَمَا فَعَلَتْ فِي الْمَرَّةِ السَّابِقَةِ - وَلَكِنْ لَمْ تَفْعَلْ، وَغَالَبَتِ الدُّمُوعَ الَّتِي كَادَتْ تَطْفِرُ مِنْ عَيْنَيْهَا وَهِيَ تُعِيدُ الطِّفْلَ إِلَى أُمِّهِ أَمْنَةً!

وَكَانَتْ تُقِيمُ مَعَهَا مَوْلَاةً لَهَا اسْمُهَا: بَرَكَةٌ؛ وَهِيَ فَتَاةٌ حَبَشِيَّةٌ سَوْدَاءٌ حُلُوةُ التَّقَاطِيْعِ، وَقَفَتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ تَسْتَمِعُ مَعَ مَوْلَاتِهَا إِلَى حَلِيمَةَ وَهِيَ تَتَحَدَّثُ إِلَى أُمِّهِ عَنْ مُحَمَّدٍ مِنْ يَوْمٍ أَخَذَتْهُ مِنْ سِنْتَيْنِ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ! (١)

كَانَتْ حَلِيمَةَ مَسْرُورَةً بِإِقْبَالِ أَهْلِ الطِّفْلِ عَلَيْهَا، وَتَرْحِيْبِهِمْ بِهَا، وَإِكْرَامِهِمْ لَهَا، مَهْمُومَةٌ بِإِعَادَتِهِ إِلَيْهِمْ وَحِرْمَانِهَا مِنْهُ!!

حَدَّثَتْهَا بِقِصَّةٍ مَجِيئِهَا قَبْلَ سِنْتَيْنِ، وَكَيْفَ عَانَتْ الْكَثِيرَ مِنْ مَشَقَّةِ الطَّرِيقِ، وَعِنَادِ الْأَتَانِ، وَقِلَّةِ الزَّادِ، فَلَمَّا أَخَذَتِ الطِّفْلَ وَعَادَتْ تَبَدَّلَ كُلُّ شَيْءٍ، وَانْهَالَ عَلَيْهَا الْخَيْرَ بِفَضْلِ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَأَسْرَعَتْ الدَّابَّةُ، وَحَفَلَ ضَرْعُ الشَّارِفِ، وَشَبِعَتِ الْغَنَمُ، وَأَصْبَحُوا بِفَضْلِ اللَّهِ فِي أَحْسَنِ حَالٍ!

لَعَلَّ حَلِيمَةَ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَبُوحَ بِمَا فِي نَفْسِهَا مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، لَعَلَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَفَاجِئَ أُمَّهُ بِرَغْبَتِهَا فِي بَقَاءِ الطِّفْلِ مَعَهَا فِي بَنِي سَعْدِ مَدَّةً أَطْوَلَ، لَعَلَّهَا انْتظرت مَدَّةً مُكَوِّثَ رُكْبِ الْمَرْضِعَاتِ فِي مَكَّةَ، ثُمَّ جَاءَتْ إِلَى أَمْنَةَ تَعْرِضُ عَلَيْهَا أَنْ تَأْخُذَ مُحَمَّدًا مَعَهَا مَرَّةً أُخْرَى:

(١) "الطبقات" (١/٩٣): «وأخبرتها حليلة خبره وما رأوا من برسته».

- لو تركت بُنَيَّ عِنْدِي حَتَّى يَغْلُظَ؛ فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ وَبَاءَ مَكَّةَ<sup>(١)</sup>.  
 وراحت حَلِيمَةَ تَتَوَسَّلُ، وَتَحَاوِلُ بِكُلِّ مَا لَدَيْهَا مِنْ حِيلَةٍ أَنْ تُقْنَعَ  
 أُمَّهُ؛ لَقَدْ تَرَكْتَ حَادِثَةَ الْفِيلِ آفَ الْجِثْثِ مَلْقَاءَ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ،  
 آفَاً مِنَ الْجِثْثِ السُّودَاءِ النَّبْتَةِ الَّتِي تَحْمِلُ الْمَوْتَ بَعْدَ الْمَوْتِ!  
 وَفَكَّرَتْ أَمْنَةً كَثِيرًا، وَأَدَارَتْ الْحَدِيثَ مَعَ نَفْسِهَا، فَاقْتَنَعَتْ - وَهِيَ  
 الْحَرِيصَةُ عَلَى طِفْلِهَا - وَرَضِيَتْ أَنْ يَعُودَ مُحَمَّدٌ مَعَ الطُّرِّ إِلَى بَادِيَةِ بَنِي  
 سَعْدِ.

### ٥- قُتِلَ مُحَمَّدٌ:

عَادَتْ حَلِيمَةُ بِمُحَمَّدٍ إِلَى بَادِيَةِ بَنِي سَعْدِ وَقَدْ غَمَرَتْهَا فَرَحٌ عَظِيمَةٌ،  
 إِنَّهَا الْمَرَّةَ الْأُولَى<sup>(٢)</sup> الَّتِي تَعُودُ بِهَا مَرَضِعَةٌ بِطِفْلِ بَعْدَ أَنْ أَتَمَّ الرِّضَاعَةَ!!  
 إِنَّهَا لَا تَكَادُ تَصَدِّقُ، وَبَقِيَ مُحَمَّدٌ مَعَهَا مَدَّةَ سَنَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ، كَانَ يَخْرُجُ  
 فِيهِمَا مَعَ إِخْوَتِهِ يَرْعَى الْغَنَمَ، وَنَشَأَ عَلَى حَيَاةِ الْبَادِيَةِ الْهَادِثَةِ الْوَادِعَةِ،  
 وَتَعَلَّمَ اللُّغَةَ الْفَصِيحَةَ الَّتِي اشْتَهَرَ بِهَا بَنُو سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ.

كَانَتْ حَلِيمَةُ حَرِيصَةً كُلَّ الْحَرَصِ عَلَى بَقَاءِ مُحَمَّدٍ مَعَهَا أَطْوَلَ مَدَّةٍ  
 مُمْكِنَةً؛ لِمَا رَأَتْ مِنَ الْخَيْرِ وَالْبَرَكَةِ وَالسَّعَادَةِ بِوَجُودِهِ، وَلَكِنَّهَا اضْطُرَّتْ  
 مَرَّةً أُخْرَى إِلَى أَخْذِهِ إِلَى أُمَّهُ؛ فَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُقْنَعَ أَمْنَةً بِبِقَائِهِ مَعَهَا

(١) "ابن هشام" (١/١٧٣)، قالت: «فلم نزل بها حتى رده معناه، والعبارة تدل  
 على أنها اشتركت مع زوجها في إقناع أمه». وفي "الطبقات الكبرى":  
 «فقالت أمية: ارجعي بابني؛ فإنني أخاف عليه وباء مكة؛ فوالله ليكون له  
 شأن». (١/٩٣)، ولعلها قالت ذلك بعد أن اقتنعت بضرورة عودته مع حَلِيمَةَ.  
 (٢) لم يصل إلى علمنا أن أحداً غيره ﷺ لبث في بني سعد مع مرضعة أكثر من سنتين!

سنتين أخريين؟!

استجابت آمنه إلى توشلات حليلة وحرصها على بقاء محمد معها، لعلها أرادت أن يتمتع ابنها بقدر أكبر من الصحة، ويستزيد من فصاحة الكلام، وهكذا عادت حليلة بحبيبها مرة ثانية<sup>(١)</sup> والدنيا لا تسعها من شدة الفرح، ولعل حياة البادية قد راقت له؛ ولكن حدث هذه المرة ما جعل حليلة تعود به سريعة إلى أمه، فماذا حدث؟

قالت حليلة:

- فرجعنا به؛ فوالله إنه بعد مَقْدَمنا به بأشهر مع أخيه<sup>(٢)</sup> لفي بهم لنا خلف بيوتنا؛ إذ أتانا أخوه يشتد<sup>(٣)</sup>، فقال لي ولأبيه:

- ذاك أخي القُرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعا، فشققا بطنه، فهما يسوطانه<sup>(٤)</sup>!!

قالت:

- فخرجت أنا وأبوه نحوّه، فوجدناه قائمًا مُنتقعًا<sup>(٥)</sup> وجهه، فالتزمته، والتزمه أبوه..

قلنا له:

(١) استفدنا هذا من قول حليلة الذي سيأتي، ولعلها المرة الثالثة التي تعود به ﷺ إلى قومها؛ أما الثانية فتكون بعد أن بلغ الثالثة من العمر.

(٢) من حديثها هذا نفهم أنها المرة الثانية أو الثالثة التي عادت به حليلة إلى منازلهم، وقد بلغ ﷺ أكثر من أربع سنوات.

(٣) يشتد: يركض سريعًا.

(٤) يسوطانه: كما يعمل الطبيب الجراح.

(٥) منتقعًا: متغيرًا.

- ما لك يا بُني؟

قال:

- جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقًا بطني،  
فالتمسا فيه شيئًا لا أدري ما هو.

قالت:

- فرجعنا به إلى خبائنا<sup>(١)</sup>.

ورواية مسلم عن أنس بن مالك فيها زيادةٌ إيضاحٍ وتفصيلٍ.

قال أنس بن مالك:

- إنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان،  
فأخذه، فصرعه، فشقَّ عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه  
عَلَقَةً، فقال: هذا حظُّ الشيطان منك.

ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمَّهُ، ثم أعاده في  
مكانه.

وجاء الغلمان يسعون إلى أمِّه - يعني: طِئْرُهُ - فقالوا:

- إنَّ محمَّدًا قد قُتِل!

فاستقبلوه وهو مُتَّعِج اللون.

(١) "السيرة النبوية" لابن هشام (١/١٧٤)، وفي "الطبقات الكبرى" (ج١):  
«فشقًا بطنه، واستخرج علقة سوداء، فطرحها، وغسلا بطنه بماء الثلج، في  
طست من ذهب».

قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المِخِيطِ في صدره<sup>(١)</sup>.

## ٦- عودَةٌ إِلَى مَكَّةَ:

استبدَّ القلق بحَلِيمَةَ، ومضت ليالٍ لم يغمض لها جَفَن، وأبو كبشة قد لاذ بالصَّمْت ولم يسعِفها برأى، فماذا تفعل؟

هل تعود بمحمَّد إلى أمِّه؟

هل تُبقِيه معها وليُكن ما يكون؟

هل تذهب إلى أمِّه فتخبرها بما حدث؟

ولم تكن حَيْرَةً زوجها أبي كبشة بأقلِّ من حَيْرَتِها؛ فأهل محمَّد سادات مَكَّة - بل أقمارها - آل عبد المطلب؛ اشتهروا بالجمال والذكاء، وبكثرة الأولاد، وكان عبد المطلب قد نذر لله: لئن وُلِدَ له عشرة نفر لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة.

فلَمَّا بلغوا عشرة أقرع بينهم، فوَقعت القُرعة على عبد الله؛ أصغر أولاده وأحبَّهم إلى قلبه، وهاله ذلك، وأراد أن يفِي بنذره، ولكنَّهم أشاروا عليه بأن يُقرع بينه وبين عشر من الإبل؛ فإن وقعت عليه زادها عشرًا حتى تقع على الإبل، ففعل حتى بلغت الإبل مئة، فوَقعت عليها<sup>(٢)</sup>.

(١) "صحيح مسلم" (١٠١/١، ١٠٢) كتاب التحرير، و"صحيح مسلم" بشرح النووي (٢١٦/٢، ٢١٧).

وأنس بن مالك خدَم النبي ﷺ عشر سنين، منذ هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكان عمر أنس يوم لازم النبي ﷺ عشر سنين. والاقتصار على ذكر جبريل هنا لا يمنع أن يكون معه ملك آخر.

والحديث سمعه أنس من النبي ﷺ أو من بعض المهاجرين.

(٢) "ابن هشام" (١/١٦٠ - ١٦٤)، و"الطبقات الكبرى" (١/٦٩).

ثم وُلد لعبد المطلب حمزة<sup>(١)</sup>، وبعده بعام وُلد له العباس<sup>(٢)</sup>، وقد تُوفِّي عبد الله ومحمد حملٌ في بطن أمّه، وعبد المطلب سيّد قريش بلا منازع؛ فماذا سيقول أبو كبشة لو حدث لحفيده شيء؟!

قال الحارث هامسًا وهو ينظر إلى حلّيمة:

- يا حلّيمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب؛ فألحقه بأهله قبل أن يظهر ذلك به<sup>(٣)</sup>.

جاءت إشارة زوجها الحارث موافقةً لما تشعر به في قرارة نفسها، فعادت به إلى أمّه وهي لا تريد، لكن ما حدث في المرعى اضطرّها إلى ذلك! ماذا ستقول لأمّه؟!

قالت آمنة وهي تستقبل حلّيمة، وتأخذ طفلها بين أحضانها:

- ما أقدمك يا ظئر وقد كنت حريصةً عليه، وعلى مكثه عندك؟!

أجابت حلّيمة وهي تجمع ذيل ثوبها، وتجلس:

- قد بلغ الله بابني، وقضيتُ الذي عليّ، و...

وخفضت طرفها وصوتها، وأضافت:

- وتخوّفتُ الأحداث عليه، فأدّيته لك كما تحبّين<sup>(٤)</sup>.

شعرت آمنة بأنّ حلّيمة تخفي شيئًا، ولا تريد أن تبوح به، فقالت

(١) أمّه: هالة بنت وهيب بن عبد مناف.

(٢) أمّه: نائلة بنت جناب.

(٣) "ابن هشام" (١/١٧٤).

(٤) "ابن هشام" (١/١٧٤).

تَسْتَحِثُّهَا :

- ما هذا شأنك؛ فاصدقيني خبرك؟<sup>(١)</sup>

أرادت حليمة أن تتخلص من الجواب بأية طريقة، ولكنها لم تستطع أمام نظرات آمنة المُلححة، فأخبرتها خبره، وقالت:

- إنا لا نردُّه إلا على جَدْعِ أَنْفِنَا!<sup>(٢)</sup>

تنهدت آمنة وهي تنظر إلى حليمة، وقالت وهي تبتسم:

- أفتخوّفتِ عليه الشَّيْطَانُ يا حَلِيمَةَ؟

- نعم.

هزّت آمنة رأسها وقالت بثقة مُتناهية:

- كلا؛ والله ما للشَّيْطَانِ عليه من سبيل<sup>(٣)</sup>.

أفلا أخبرك خبره؟

قالت حليمة وقد اطمأنت كثيراً، وذهب ما كان تشعر به من خوف:

- بلى.

وأخبرتها آمنة بما رأت وسمعت من يوم حملت به إلى أن

وضعتَه، وقالت وهي تُنهي حديثها:

- دعيه عنك، وانطلي راشدة<sup>(٤)</sup>.

(١) "ابن هشام" (١/١٧٤).

(٢) "الطبقات الكبرى" (١/٩٤).

(٣) "ابن هشام" (١/١٧٤).

(٤) نفس المرجع (ص ١٧٥).

لم تُعد حليمة إلى رَحْلِها بِحِضْنِ فارغ؛ فقد أخذت أبا سُفيان<sup>(١)</sup> ابن الحارث بن عبد المطلب؛ ابن عمِّ محمّد - وكان يشبهه - والحارث أكبر أولاد عبد المطلب، وأمُّه: سمراء بنت جُنْدَب، وأبو سُفيان أصغرُ أولاد الحارث بن عبد المطلب، أكبرهم: عُبيدة بن الحارث، وهو أكبر من محمّد بعشر سنين، ثم ربيعة، ثم نوفل، فالظفيل، فالحُصَيْن، وآخرهم أبو سُفيان.

وقد تُوفِّي الحارث بعد ذلك بقليل، وحزن عليه عبد المطلب حزناً عظيماً.

فإخوة محمّد من الرضاعة خمسة:

عمُّه: حمزة بن عبد المطلب، وابن عمِّه: أبو سُفيان بن الحارث، وابن عمِّته: عبدُ الله بنُ عبد الأسد، ومسروحُ ابنُ ثُوَيْبَةَ؛ مولاة عمِّه أبي لهب، وعبدُ الله بنُ الحارث؛ ابنُ حليمة السعدية.



(١) هذه كنيته، قيل: اسمه المغيرة، ولكن غلبت الكنية على الاسم.



(٢)

مَنْ يُعِيدُ الْحَجَرَ إِلَى مَكَانِهِ؟!!

«دعوا ابني هذا؛ فوالله إنَّ له لشأناً»

عبد المطلب بن هاشم

### ١- إلى يثرب:

مكث محمد مع أمه حتى بلغ السادسة من العمر، وكانت آمنة تغمره بحبها وحنانها، وكان عبد المطلب يرى فيه صورة ولده عبد الله الذي تُوفِّي في يثرب ودُفن فيها، وقد شعرت آمنة برغبة قوية في زيارة قبر زوجها الحبيب<sup>(١)</sup>، ولا بُدَّ أن تكون قد استأذنت الجدَّ الوقور عبد المطلب، فأشار عليها بالنزول على بني النجَّار، أهل أمه سلمى بنت عمرو بن لبيد الخزرجي، ولا بُدَّ أن تذهب مع إحدى القوافل الصَّاعدة إلى الشَّام والمارة بيثرب..

أخذت آمنة معها ولدها الحبيب، وجاريتها الصَّغيرة الحبشيَّة بركة، ركبوا على بَعِيرَيْن، وتوجَّهوا إلى يثرب<sup>(٢)</sup>، ونزلت آمنة في دار النَّابغة، وبقيت في يثرب مدَّة شهر واحد، تعلَّم محمد خلالها السَّباحة في بئر بني عديِّ بن النجَّار، وزار قبر أبيه عبد الله، ولعب هناك مع غلمانٍ من بني النجَّار<sup>(٣)</sup>.

وفي طريق العودة إلى مكَّة شعرت الأمُّ الصَّغيرة بالمرض يدبُّ في أوصالها، وفي الأبواء أسلمت الرُّوح إلى بارئها، وتركت ولدها الصغير الحبيب مع جاريتها الحبشيَّة بركة!!

(١) "فقه السيرة" لمحمد الغزالي (ص ٦٦).

(٢) تقع على بعد خمسمئة كيلو متر تقريباً شمال مكَّة.

(٣) "الطبقات" (١/٩٨)، وفي هذه السنة ولد عثمان بن عفان؛ فهو أصغر من النبي ﷺ بست سنوات، أمه أروى بنت أم حكيم البيضاء؛ عمَّة النبي ﷺ.

## ٢- مع أبي طالب:

عاد محمد إلى مكة بصحبة الجارية الحبشية بركة بعد أن ودّع أمّه في الأبواء، واستقبله جدّه عبد المطلب، وقد رُقّ له رقّة عظيمة لم يرقّها على ولده، وراح يُقرّبُه منه ويُدنيه، وكان محمد يجلس على فراش جدّه الذي يوضع له في ظلّ الكعبة، فإذا أراد بنو عبد المطلب أن يؤخّروه عنه قال لهم:

- دعوا ابني هذا؛ إنه ليؤنس مُلْكًا<sup>(١)</sup>..

ثم يُجلسه معه على الفراش، ويسرّه ما يصنع.

ولما بلغ محمد الثامنة من العمر دقّت ساعة عبد المطلب بالرحيل، وكان قد أوصى به إلى عمّه عبد مناف (أبي طالب)، وأمره بحفظه وحياطته، فكان محمد بعد ذلك مع أبي طالب لأنه شقيق أبيه عبد الله، وأمهما: فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن لأبي طالب في ذلك الحين من الأولاد إلا طالبًا؛ وقد بلغ الثامنة من العمر، وإلا هندًا؛ وعمرها ثلاث سنوات.

شبّ محمد مع أبي طالب، يحفظه الله بعنايته التامة، ويكلؤه ويحوطه من أمور الجاهلية ومعائبها؛ لما يريد سبحانه من كرامته! وقد تعلق أبو طالب بابن أخيه أكثر من تعلقه بابنه، فلمّا أراد الخروج في

(١) "الطبقات" (٩٩/١)، و"ابن هشام" (١٧٨/١) وفيه: «فوالله إنّ له لشأنًا».

(٢) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢٤١/١)، وأبو طالب، والزبير، وعبد الله، وأم حكيم البيضاء، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرّة إخوة أشقاء، أبوهم عبد المطلب، وأمهم فاطمة بنت عمرو بن عائذ. "ابن هشام" (١١٤/١).

تجارة إلى الشام لم يأخذ معه طالبًا الذي بلغ الرابعة عشرة من العمر؛ بل أخذ معه محمَّدًا؛ لشدة حبه له وعطفه عليه، حتى ما كان يقول إذا سُئِلَ عنه إلا:

- إنه ابني! (١)

كانت الرحلة من مكة إلى الشام بعيدة جدًا (٢)، ولكن محمَّدًا تعود على السفر؛ فقد سافرت به حليمة أكثر من مرة من مكة إلى ديارها في بني سعد، وسافرت به أمه إلى يثرب، وهو الآن - وقد بلغ الثانية عشرة من العمر - أقدر على تحمُّل مشاق السفر الطويل!! لا سيَّما وأنَّ الرحلة كانت في الصيف..

هكذا تعودت قريش؛ رحلة الصيف إلى الشام، ورحلة الشتاء إلى اليمن (٣).

وهكذا مضت القافلة، ثقيل عند اشتداد الحرِّ وتستريح، وتسير عندما تنكسر حدته ويرد الجو!! حتى وصل الركب إلى بصرى.

وفي بصرى رأى محمَّدًا راهبًا يُقال له: بحيرى؛ فجعل يتأمَّله

(١) قبل هذه السنة بعامين وُلد عقيل بن أبي طالب، ومن المعلوم أنَّ طالبًا أكبر من عقيل بعشر سنوات، وعقيل أكبر من جعفر بعشر سنوات، وجعفر أكبر من علي بعشر سنوات، وقد ذكر كُتَّاب السير الرجال ولم يذكروا النساء، وهن ثلاث: هند، وجُمَّانة ورَيْطَة، فلعلَّ هذا وُلِدت بعد طالب، وجُمَّانة بعد عقيل، ورَيْطَة وُلِدت بعد جعفر.

في هذه السنة وُلد عمر بن الخطاب، وقبل هذه بعامين وُلد عبد الرحمن بن عوف، وكان اسمه عبد عمرو.

(٢) أكثر من ألف كيلو متر.

(٣) "تفسير ابن كثير" (٤/٥٥٣).

ويكلمه، ثم التفت إلى أبي طالب، فقال له:

- ما هذا الغلام منك؟

فقال:

- ابني.

فهزَّ بِحَيْرَى رأسه؛ وقال:

- ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكونَ أبو هذا الغلام حيًّا.

فقال:

- هو ابن أخي.

قال الرَّاهِب:

- فما فعل أبوه؟

قال:

- مات وأمه حُبلى به.

قال الرَّاهِب:

- صدقتَ؛ فارجع به إلى بلده، واحذر عليه يهودَ؛ فوالله لئن

رأوه هنا ليلبغنه شرًّا؛ فإنه كائنٌ لابن أخيك هذا شأنٌ عظيمٌ.

فأسرع به أبو طالب عائداً إلى مكَّة<sup>(١)</sup>.

(١) "فقه السيرة؛ من الميلاد إلى الهجرة، القسم الأول" للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص ٣٥) بتصرف قليل، وفي "السيرة" لابن هشام (١/ ١٩٤): «فأسرع به إلى بلاده»، وفي "الطبقات" (١/ ١٠٢): «فردّه أبو طالب معه إلى مكَّة»، وفي رواية البرّار: «وأرسل معه عمه رجلاً».

### ٣- هذه القصة:

قِصَّةُ بَحِيرَى الرَّاهِبِ هَذِهِ أَثْبَتَهَا كُتَّابُ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ، وَقَدْ أَشْرْنَا إِلَى مَصَادِرِهَا سَابِقًا، وَأَخْرَجَهَا التِّرْمِذِيُّ فِي "سِنِّهِ" عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَقَالَ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ»، وَفِي بَعْضِ نصوصِ هَذِهِ الْقِصَّةِ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا سَجَدَ لَهُ ﷺ، وَأَنَّ الْغِمَامَةَ أَظْلَمَتْهُ مِنْ وَهَجِ الشَّمْسِ، وَالشَّجَرَةَ تَهَضَّرَتْ عَلَيْهِ<sup>(١)</sup>.

وَلَيْسَ فِي الْقِصَّةِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ شَيْءٌ يَدْعُو إِلَى التَّشَكُّكِ فِيهَا وَرَدِّهَا<sup>(٢)</sup>؛ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَجِدُونَ النَّبِيَّ ﷺ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ!

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وَقَالَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٠].

(١) لَعَلَّهَا مَالَتْ عَلَيْهِ احْتِفَالًا بِهِ وَحِفَاوَةً وَتَكْرِيمًا، وَإِلَّا فَإِنَّ ظِلَّ الْغِمَامَةِ قَدْ عَدِمَ ظِلَّ الشَّجَرَةِ.

وَتَهَضَّرَتْ أَغْصَانُ الشَّجَرَةِ: تَدَلَّتْ وَتَهَدَّلَتْ.

(٢) مِمَّنْ تَشَكَّكَ فِيهَا وَعَدَّهَا مَوْضُوعَةَ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ الْغَزَالِيِّ الْمِصْرِيِّ فِي كِتَابِهِ "فَقْهُ السِّيَرَةِ" الطَّبْعَةُ السَّابِعَةُ، مِنْ غَيْرِ مُسْتَدَدٍ صَحِيحٍ أَوْ حُجَّةٍ مَقْبُولَةٍ، بَيْنَمَا وَثَّقَهَا ابْنُ الْقَيْمِ فِي "زَادَ الْمَعَادَ" (١/٧٦) الطَّبْعَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ) بَعْدَ أَنْ صَحَّحَ كَلِمَةً وَاحِدَةً فِيهَا؛ مُسْتَدَدًا إِلَى مَا رَوَاهُ الْبَزَّازُ فِي "مُسْنَدِهِ"، وَوَثَّقَهَا الشَّيْخُ نَاصِرُ الدِّينِ الْأَلْبَانِيُّ، وَرَدَّ بِرَدُودٍ شَرْعِيَّةٍ، وَحُجَّجَ قَوِيَّةً عَلَى مَنْ تَشَكَّكَ فِيهَا، أَوْ عَدَّهَا مَوْضُوعَةً.

وفي «سورة الأعراف»: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ومعلوم أن الذي يعرف ابنه يعرفه في كل أحواله؛ طفلاً، وشاباً، وكهلاً، وشيخاً؛ فليس من الغريب أن يعرف بحيرى الراهب محمداً؛ بل الغريب ألا يعرفه.

أمّا سجود الشجر والحجر له ﷺ فهو سجود تحية وترحيب، وقد كان مشروعاً لمن قبلنا - كما قال شيخنا حفظه الله - وقد ورد في القرآن الكريم في «سورة يوسف» قوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠].

فهذا سجود تحية لا سجود عبادة!

وأمّا تهضر الشجرة وميلها بأغصانها عليه؛ فكان من باب الاحتفال والحفاوة والترحيب به ﷺ.

والأشياخ الذين كانوا مع عمه في تلك الرحلة ربّما لم يبق منهم أحدٌ إلى زمن النبوة؛ أي: بعد ثمانية وعشرين عاماً من هذه الرحلة، وقريش لم تكن تعلم شيئاً عن النبوة والأنبياء والوحي والرسالات؛ فهي أمة بعيدة عن أسباب الحضارة والعلم والفلسفة، جاهلة بعقائد الملل، وتواريخ الأمم، وعلوم التشريع<sup>(١)</sup>.

والذي رآه بحيرى الراهب وأخبر عنه لا يُعتبر شيئاً بالنسبة للبشارات الكثيرة المدهشة التي تضمّنتها كُتب الأنبياء السابقين، والتي

(١) "الوحي المحمدي" للسيد رشيد رضا (ص ٥٧).



يَعْلَمُهَا عُلَمَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا يَشْكُونَ فِي صِحَّتِهَا!! وَنَظْرَةٌ سَرِيعَةٌ فِي كِتَابِ "نُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ مِنَ الشَّكِّ إِلَى الْيَقِينِ"<sup>(١)</sup> تُرِيكَ الْعَجَبَ كُلَّ الْعَجَبِ، وَتَجْعَلُكَ تَتَسَاءَلُ بَدَهْشَةً:

- لِمَاذَا لَا يُؤْمِنُ أَهْلُ الْكِتَابِ بِنُبُوءَةِ مُحَمَّدٍ وَعِنْدَهُمْ كُلُّ هَذِهِ النَّصُوصِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى الْإِيمَانِ بِمُحَمَّدٍ وَرِسَالَتِهِ؟!

أَمَّا مُحَمَّدٌ نَفْسَهُ فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يُعِدُّهُ لِلْأَمْرِ الْعَظِيمِ، أَمْرِ الرِّسَالَةِ الْعَظِيمَةِ لِإِنْقَاذِ الْبَشَرِيَّةِ الضَّالَّةِ، وَأَمَّا عَمَّهُ أَبُو طَالِبٍ فَلَمْ يَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَى دَلِيلٍ أَوْ وَصِيَّةٍ مِنْ رَاهِبٍ عِنْدَمَا بُعِثَ مُحَمَّدٌ بِالرِّسَالَةِ؛ فَقَدْ مَضَى عَلَى لِقَائِهِ بِهِ ثَلَاثُونَ عَامًا تَقْرِيبًا، وَهُوَ لَمْ يَشْكُ أَبَدًا بِصَدَقِ ابْنِ أَخِيهِ، وَهُوَ الَّذِي صَاحَبَهُ وَرَبَّاهُ وَعَلِمَ صِدْقَهُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، وَلَكِنَّهُ آثَرَ إِرْضَاءَ الْمَلَأِ مِنْ كَفَّارِ قُرَيْشٍ، فَمَاتَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ!!

بَعْدَ ثَلَاثِ سِنِينَ مِنْ هَذِهِ الرَّحْلَةِ وَوَلَدَتْ جُمَانَةَ بِنْتُ أَبِي طَالِبٍ، فَصَارَ لِأَبِي طَالِبٍ وَلَدَانِ وَبَتْنَانِ.

لَعَلَّ بَعْدَ هَذِهِ الْمُدَّةِ أَيْضًا بَدَأَ مُحَمَّدٌ يَرْعَى الْغَنَمَ لِأَهْلِ مَكَّةَ عَلَى قَرَارِيضٍ، وَقَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ؛ قَالُوا:

- أَكُنْتَ تَرْعَى الْغَنَمَ؟

قَالَ:

- وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَاهَا؟<sup>(٢)</sup>

(١) لِلدُّكْتُورِ فَاضِلِّ صَالِحِ السَّامِرَائِيِّ؛ وَهُوَ كِتَابٌ عَظِيمٌ نَفَعٌ لَا يَسْتَعْنِي عَنْهُ مُسْلِمٌ، وَيُفِيدُ غَيْرَ الْمُسْلِمِ فَائِدَةً عَظِيمَةً.

(٢) الْبُخَارِيُّ (٤/١٩١) عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ؛ وَهُوَ جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ.

## ٤- التذير:

انطلق بشر بن أبي خازم الأسدي الشاعر على ناقته قاصداً عُكاظ؛ إنه يُريد أن يصل بأسرع وقت، بأقصر مدّة مُستطاعة، فإذا تأخّر لأيّ سبب فقد تحدّث في عُكاظ معركة لا يعلم بها إلا الله!

كان ذلك في الأشهر الحُرْم، بعد عشرين عامًا من حادثة الفيل، لم يكن بشر في حاجة لأن يحثّ ناقته على السّير أسرع، فلعلّها أدركت ما كان يدور في خاطره، أو لعلّها سمعت البرّاض وهو يُدلي له بالسرّ الخطير، ويطلب إليه أن يدرأ قريشًا وحلفاءها قبل أن تقع الكارثة!! وكان كلّما مرّ على ماء وقف، فشرب منه وسقى النّاقة، ثم بلّل خرقة فمسح بها وجه النّاقة، ورأسها وسائر جسدها، يبلّلها مرّتين أو ثلاث، ثم يمطي النّاقة وينطلق، حتى وصل إلى عُكاظ.

كانت عُكاظ قد اكتظت بالوافدين من أنحاء الجزيرة العربية، فازدادت الحركة وارتفعت الأصوات، وانقسم النَّاس إلى مجموعات كبيرة وصغيرة، قد التفت حول شاعرٍ أو ناثِرٍ، أو بائعٍ، أو تاجرٍ رقيقٍ، أو مُغنٍّ راح يُطرب الحاضرين بصوته، أو قَيْنَة تضرب الدفّ وتتمايل على صوت المغنيّ..

مضى بشر بن أبي خازم دون أن يلتفت إلى شيء من ذلك حتى وصل إلى خيمة عبد الله بن جدعان، فأشار إليه من طرف خفيّ، وكان جالسًا مع عدد من رجال قريش، وقد أمر بإقامة وليمة لأهل الموسم، شعر عبد الله بأهميّة الأمر عندما رأى بشر بن أبي خازم يُشير إليه، ثم يتّحي جانبًا بعيدًا عن الأعين؛ فنهض وتبعه، فأسرّ بشر في أذنه شيئًا،

فَتَغَيَّرَ وَجْهَ ابْنِ جُدَعَانَ، وَتَمَهَّلَ قَلِيلًا ثُمَّ سَأَلَهُ:

- مَاذَا أَخْبِرُكَ أَيْضًا؟

- أَمْرِنِي أَنْ أَخْبِرُكَ، وَأُخْبِرَ هِشَامَ بْنَ الْمُغِيرَةَ، وَحَرَبَ بْنَ أُمَيَّةَ، وَنَوْفَلَ بْنَ مَعَاوِيَةَ الدَّيْلِيَّ، وَبَلْعَاءَ بْنَ قَيْسٍ.

هَزَّ عَبْدُ اللَّهِ رَأْسَهُ، وَقَالَ:

- افْعَلْ.

وَمَا هِيَ إِلَّا سَاعَةٌ حَتَّى كَانَتْ قَرِيشٌ وَحُلَفَاؤُهَا قَدْ انْسَلُّوا مِنْ عُكَاظٍ<sup>(١)</sup> وَتَوَجَّهُوا نَحْوَ مَكَّةَ، وَلَمْ تَنْتَبِهْ هَوَازِنُ إِلَى انْسِحَابِ قَرِيشٍ وَحُلَفَائِهَا مِنْ عُكَاظٍ إِلَّا بَعْدَ مَدَّةٍ، وَأَرَادَ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ أَنْ يَسْأَلَ عَنْ سَبَبِ انْسِحَابِهِمْ، فَجَاءَهُ الْجَوَابُ مِنْ كِلَابِ بْنِ جَابِرٍ، وَقَدْ شَقَّ ثَوْبَهُ، وَحَوَّلَ رَحْلَهُ، وَوَقَفَ صَارِخًا:

- يَا مَعْشَرَ هَوَازِنَ، هَذَا الْبِرَّاضُ بْنُ قَيْسٍ قَدْ قَتَلَ الرَّحَالَ عَرُوةَ بِنِ عْتَبَةَ الَّذِي أَجَارَ لَطِيمَةَ لِلتُّعْمَانِ بْنِ الْمَنْدَرِ!

فَوَثَبَ أَبُو بَرَاءٍ عَامِرُ بْنُ مَالِكٍ، وَقَدْ شَهَرَ سِلَاحَهُ وَقَالَ:

- مَا كُنَّا مِنْ قَرِيشٍ إِلَّا فِي خَدْعَةٍ<sup>(٢)</sup>!

وَانْطَلَقَتْ هَوَازِنُ وَمَنْ وَالَاهَا سَرِيعَةً فِي آثَارِهِمْ!!

(١) تقع شرق مكة، وتبعد عنها بحوالي مئة كيلو متر أو أكثر.

(٢) "الطبقات الكبرى" (١/١٠٩).

## ٥- حرب البعثة:

كان من عادة النعمان بن المنذر ملك الحيرة أن يبعث كل سنة إلى عكاظ بقافلة تحمل المسك، فيباع هناك، ويشتري بئمنه جلوداً، وكان يبعث القافلة بجوار رجل شريف من أشرف العرب، وحمائته، وقد بعث اللطيمة (القافلة) تلك السنة مع الرحّال عروة بن عتبة الهوازني، فعرض له البرّاض بن قيس الكِناني ببعض الطريق؛ وقال له:

- أتجيرها على كِنانة؟

قال:

- نعم، وعلى الخلق كله!

أسرها البرّاض في نفسه، ومضى مع القافلة حتى وصلوا إلى وادٍ إلى جانب فدك<sup>(١)</sup> بعالية نجد، فنزلوا على ماء يُقال له: أواره، وفي الماء جلس عروة يشرب الخمر على صوت قينةٍ راحت تغنيه، حتى قام من معه فناموا، ونهض هو لينام؛ فهجم عليه البرّاض بسيفه وقتله!! واتّجه البرّاض من ساعته إلى خيبر<sup>(٢)</sup>، فلقبي بشر بن أبي خازم الأسدّي الشّاعر، فأخبره وأمره أن يذهب من ساعته إلى عكاظ ليُعلم عبد الله بن جدعان، وهشام بن المغيرة، وحرب بن أمية، ونوفل بن معاوية الدّيلي، وبلعاء بن قيس؛ فانطلق بشرٌ على عجل، وفعل ما أمره به البرّاض!<sup>(٣)</sup>

(١) تبعد فدك عن مكّة بحوالي ٧٥٠ كيلومتراً إلى الشمال الشرقي منها.

(٢) تبعد عن فدك بحوالي مئتي كيلو متر إلى الغرب.

(٣) الطبقات الكبرى (١/١٠٨، ١٠٩)، و"ابن هشام" (١/١٩٦، ١٩٧)، و"حياة محمّد" (ص١١٦، ١١٧).

عندما استيقظ رجال القافلة في الصباح وجدوا سيدهم مضرَّجاً بدمه، فعلموا أن البرَّاض قد قتله، فأرسلوا أحدهم على جناح السُّرعة ليُعلم هوازن بما حدث، فبلغهم آخر النَّهار فأخبرهم، فصاح أبو براء:

- ما كُنَّا من قريش إلا في خَدْعَةٍ!

فوثب كلُّ مَنْ كان له ظَهْرٌ<sup>(١)</sup> على ظَهْرِهِ، وانطلقوا في أثر القوم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحَرَمَ؛ فقاتلوهم إلى الليل<sup>(٢)</sup>، ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن.

استعدَّت قريش وكنانة في اليوم التَّالي، ورصَّت صفوفها، وخرج محمَّد مع أعمامه وقد بلغ العشرين من العمر، وكانت مُهمَّته أن يجمع النَّبل الذي يرمي به الأعداء، فيُرِّدَهُ على أعمامه ليرموا به عدوَّهم<sup>(٣)</sup>.

وبدأت هوازن هجومها باندفاع شديد، فكانت لها الغلبة أوَّل النَّهار، ولكنَّ الحال سرعان ما تبدَّلت وتغيَّرت كفة الميزان، وصرخ أبطال قريش يستثيرون همم الرُّجال، فثبتوا ثبات الجبال، ثم هجموا بكلِّ قوَّتِهِم فتضعَّضت صفوف الأعداء، وتراجعوا مندحرين، واستحَرَّ القتل في رجالهم، وأنقذ عبثُ بن ربيعة الموقفَ، فنادى بالصُّلح بين الفريقين؛ وكان شابًّا لم يبلغ الثلاثين من العمر<sup>(٤)</sup>.

وكان الصُّلح على أساس أن يدفع الفريق الذي قَتَلَهُ أَقْلُ دِيَّةِ العَدَدِ الزائد عنه من قَتلى الفريق الآخر، فكان قتلى هوازن أكثرَ

(١) فرس، أو ناقة.

(٢) "ابن هشام" (١/١٩٧).

(٣) "السيرة النبوية" لابن كثير (١/٢٥٦).

(٤) "الطبقات" (١/١٠٩).

بعشرين رجلاً من قتلى قريش، فدفعت قريش ديّتهم<sup>(١)</sup>.

سُمّيت هذه الحرب بحرب الفِجَار لأنها وقعت في الأشهر الحُرْم!

## ٦- حِلْف الفضول:

لا تكاد مَكَّة بما فيها تَسَعُ فَرِحَةَ الرَّجُل، راح يفرك يديه سروراً وبيتسم ويتلفّت، إنّه يُريد أن يُفضي بفرحته هذه إلى أحد؛ لو كانت زوجته معه! ولكنّه سيعود بعد يوم أو يومين، وسيحمل لها من مَكَّة هدية، سيشتري لها ثوباً جديداً أو قِلادة، سيحدّثها كيف حاله الحظُّ من أوّل يوم وطئت فيه قدمه أرض مَكَّة .

لقد جاءه رجل سمينٌ مهيب، يرتدي قَبَاءً من دِيباج، يتبعه عددٌ من الغلمان، فاشترى البضاعة كلّها، وحملها غلمانه إلى داره.

سيكرمه الرَّجُل، سيعطيه أكثر مما يطلب! هؤلاء رجال مَكَّة، شجاعةٌ وحُلُقٌ وكرمٌ!! لم تمض مدة طويلة على انتصارهم على أكبر قبائل العرب وأشدّها، لقد نصرهم الله على الفيل ونصرهم على هوازن!

راح الزّبَيْدي فشرب من ماء زمزم، ثم طاف بالبيت وتمسّح بالأصنام، ثم جلس في ناحية ينتظر أن يُرسل الرَّجُل الثريُّ في طلبه لينقّده الثمن، ثمن بضاعته التي جاء بها من زبيد، من اليمن؛ وكم مرّة حاول قلبه أن يطفّر من بين جنبيه كلما رأى غلاماً مسرعاً أو مقبلاً إلى ناحيته! ومضى ذلك النهار بطوله، وكوّم الرَّجُل نفسه في ناحية المسجد، وراح يتلذذ بأحلام جميلة، كلها تدور حول عودته إلى بلده، واستقبال زوجته وأطفاله..

(١) "حياة محمّد" (ص ١١٧).

ولكنَّ الأحلام في آخر الليل قد تبدَّلت، فقد رأى غلمانَ ذلك الرجل يركضون وراءه يرمونه بالحجارة، ورأى الرجل نفسه يأمره بالخروج من مكَّة، ورآه مرة أخرى وهو يسخر منه، ويضربه بكفِّه على رأسه!!

استيقظ في اليوم التالي، وعزم على أن يذهب إلى المشتري، فيلزم داره فلا يغادره حتى يحصل منه على ما يريد؛ فتناول تمرات، ثم شرب عليها من ماء زمزم، وانطلق مسرعًا إلى دار الرجل، حتى إذا صار قريبًا منه ثقلت قدماه، وصار يقدم رجلًا ويؤخر أخرى، وراح يراجع نفسه؛ عليه أن يتصرَّف بحكمة ولا يدع الأهواء تلعب بعقله.

وقف أمام البيت ينتظر خروج الرجل، وقد شعر بالمهانة في نفسه وهو ينظر إلى النَّاس الذين يمرون به ولا يجد لنظراتهم تفسيرًا! إنه لا يعرف أحدًا من أهل مكَّة لكي يذهب فيستعين به.

انتظر الزَّبيدي حتى ارتفعت الشَّمس فلذعته، فتحوَّل إلى الفيء، ثم سمع صوت الرجل الذي اشترى منه البضاعة، كان صوته صارخًا، كأنَّه لا يستطيع أن يتكلَّم بهدوء، كان يسب غلمانَه ويطلب إليهم أن يعملوا بنشاط.

استعدَّ الزَّبيدي فوقف مواجهًا للباب، وخرج الرجل البدين الثري، ولكنَّه لم ينظر إلى الزَّبيدي، ومضى أمامه دون أن يلتفت، فأسرع وألقى عليه التحية بمسكنة!

- أهلاً!

كان جوابه كأنَّه دفعة في صدره، فأسرع إلى أحد الغلمان وسأله:

- هل تعرفني؟

نظر الغلام إليه، وكان طويلاً أسمر..

- أنت صاحب البضاعة!

- نعم؛ متى سأقبض الثمن؟!

أشار إلى سيده، وهو يقول:

- اذهب إليه.

- لكنّه أعرَضَ عني؟!

- لعلّه نسي!

وأسرع الزبيدي وراء الرجل، لقد منى زوجته وأطفاله بأن يعود إليهم بشيء من مكة إذا ربح، رآه يدخل في إحدى الأندية المواجهة للمسجد، ونهض الرجال يرحّبون به:

- أهلاً أبا عمرو<sup>(١)</sup>.

وتجرأ الزبيدي، وجمع كل ما لديه من شجاعة وتقدّم قائلاً:

- سيدي أبا عمرو!

لم يلتفت إليه، وراح يتحدث مع رجل جلس إلى جانبه، وظلّ الزبيدي واقفاً ينتظر منه سكتة، أو التفاتة، وعاد مرة ثانية بصوت حاول أن يرفعه قليلاً:

(١) هو أبو عمرو بن العاص.

والقصة عرضناها بتصرف، وليس كما جاءت في كتب السيرة.



- سيّدي أبا عمرو!

التفت إليه التفاتة سريعةً مع نظرة غاضبة، وقال:

- غدًا!

- سيّدي، أنا..

- تعال غدًا!

وانسحب الرجل لينتظر إلى الغد، لا بد إنه سيفي بوعدده.

ومضى يتجول في طرقات مكة، ويتطلع إلى بيوتها التي حاول

أهلها أن تكون أقل ارتفاعًا من الكعبة، وكان ذلك النهار أطول من

سابقه، وساعات الليل كانت أطول وأثقل، ثم بادر من الصباح الباكر

إلى الجلوس أمام بيت الرجل، كان بعض المارة ينظرون إليه

ويضحكون؛ لماذا؟ وانتظر حتى خرج الرجل، فأسرع إليه يقول:

- سيّدي..

أشار بيده بكبرياء.

- غدًا.

- أنت قلت لي بالأمس: غدًا!

فصرخ في وجهه غاضبًا:

- أتجادلني أيها الصعلوك؟!

ثم أشار بيده إلى غلمانه:

- اطرده.

فهجم عليه ثلاثة منهم راحوا يضربونه بالعصي وهو يصرخ:

- بضاعتي! بضاعتي!

أتؤخذ بضاعته بهذه السهولة؟! لو قابله أحد اللصوص في الصحراء لقاتله حتى الموت أو ينجو بها، أمّا أن تُسرق منه بهذه الطريقة الماكرة؛ لا، لن يسكت، سيثير أهل مكة..

وراح يدور على أندية القوم يستغيث بهم، فكانوا يسخرون منه أو يطردونه! وتبعه بعض الغلمان، فرمّوه بالحجارة!

ومضى ذلك النهار أيضًا..

ولم يجد تلك الليلة ما يأكل، فبات طاويًا..

ماذا سيقول لأهله؟!

يقول لهم: إن بضاعته قد سُلبت منه في وضح النهار، سرقها منه رجل شريف مليء من رجال مكة؟!

هل سيصدّقون هذا الكلام؟!

وفي اليوم التالي، وعندما ارتفعت الشمس، وكان القوم في أنديتهم حول البيت، سُمع صوتٌ ينادي:

يا آلِ فِهْرٍ لَمَظْلُومٍ بِبِضَاعَتِهِ

بَبَطْنِ مَكَّةَ، نَائِي الدَّارِ والنَّفْرِ

إنّه صوت الزبيدي، وقد أوفى على أبي قبيس، وراح يُنادي بأعلى

صوته:

يَا آلَ فَهْرٍ لِمَ ظَلُمْتُمْ بِضَاعَتَهُ  
بِبَطْنِ مَكَّةَ، نَائِي الدَّارِ وَالنَّفْرِ

- مَنْ ظَلَمَهُ بِضَاعَتَهُ؟!

- إنه: العاص بن وائل السهمي.

وَمُحْرِمٍ أَشْعَثِ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ

يَا لِلرِّجَالِ، وَبَيْنَ الْحَجْرِ وَالْحَجْرِ؟!

إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ

وَلَا حَرَامَ لثَوْبِ الْفَاجِرِ الْغُدْرِ!

ونهض الزبير بن عبد المطلب، وكان طويلاً جسيماً شريفاً شاعراً، وكان قد أبلى في حرب الفجار بلاءً حسناً، كان ابن أخيه محمد يناوله النبل فيرمي بها العدو<sup>(١)</sup>..

وارتفع صوت الزبيدي:

إِنَّ الْحَرَامَ لِمَنْ تَمَّتْ كَرَامَتُهُ

وَلَا حَرَامَ لثَوْبِ الْفَاجِرِ الْغُدْرِ

فقال الزبير وقد هزته صيحة الرجل:

- ما لهذا مترك!

فدعاه، وأخذ بيده، ودعا إلى اجتماع في دار عبد الله بن جدعان؛ دعا بني هاشم، وزهرة، وتيم بن مرة، فصنع لهم طعاماً، ثم

(١) "إمتاع الأسماع" (ص ٩).

تعاهدوا على نُصرة الزبيدي، ونُصرة كلِّ مظلوم يجدونه بمكة؛ سواءً أكان من أهلها أو من غيرهم ممن دخلها من سائر النَّاس وتعاهدوا أن يكونوا مع المظلوم على الظالم حتى تُردَّ عليه مظلُمته! وكان محمَّد ﷺ حاضرًا مع أعمامه، ونهضوا مع الزبيدي إلى العاص بن وائل، فلم يستطع أن يتفوَّه بكلمة، وأعطى الرجلَ حقَّه!!  
وسمَّت قريشُ هذا الحِلْفَ: حِلْفَ الفُضول.

كان ذلك في شهر ذي القعدة بعد أربعة أشهر من حرب الفِجار لأنَّ حرب الفِجار كانت في شعبان من نفس السنة<sup>(١)</sup>.  
في هذه السنة وُلِدَ جعفر بن أبي طالب.

#### ٧- نفيسة:

حياة محمَّد ﷺ صفحة بيضاء، نقيَّة مُشرقة؛ صدق، وعفة، وكرم، وأمانة، ووفاء، كان أفضلَ قومه مروءةً، وأحسنهم خُلُقًا، وأكرمهم مخالطةً، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حِلْمًا وأمانةً، وأصدقهم حديثًا؛ حتى سمَّاه قومه: الأمين.

كان في مكة نساء تاجرات يستأجرن الرجال في أموالهن، فيربلن القوافل التجارية إلى الشام، أو اليمن؛ اشتهرت منهن خديجة بنت خويلد، والحظليَّة أمُّ عمرو بن هشام بن المغيرة<sup>(٢)</sup>.

كانت خديجة ذات مال وجمال، وكانت ذكيَّة عاقلة تعرف قدر

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (١/٢٥٨).

(٢) "السيرة النبوية" للندوي (ص ٧٧) وعمرو بن هشام هو: أبو جهل.

نفسها، وكانت تستطيع أن تزن الرجال، وكانت تحت عتيق بن عابد المخزومي، فلَمَّا توفِّي تزوّجها أبو هالة بن زُرارة التميمي<sup>(١)</sup>، وقد ولدت له هندًا<sup>(٢)</sup>.

فلَمَّا توفِّي عنها تقدّم لخطبتها كثير من أشرف قريش، فرفضتهم!

وسمعت خديجة بمحمّد؛ بخُلُقِه، بأدبه الجَمِّ، بكرمه، بأمانته..

فأحبت أن تستأجره في تجارتها<sup>(٣)</sup>، فبعثت إليه، وعرضت عليه أن يخرج في تجارة لها إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فقبل، وأرسلت معه غلامها ميسرة<sup>(٤)</sup>.

عاد محمّد من تلك الرحلة بربح وفير، وعاد ميسرة فجعل يحدث خديجة بما رأى من محمّد؛ خلقه، أمانته، صدقه، حتى ملأ سمعها وقلبها إعجابًا وحبًا وتقديرًا لمحمّد!! وأيقنت في قرارة نفسها أنه الرجل الكفء الكريم الذي يجب أن تزوّجه! ولكن كيف؟ هل تفتاحه بنفسها؟

لا..

لعلّها خافت إذا فاتحته أن يرفضها، وهي التي رفضت سادات قريش! وأقبلت نفيسة بنت مُنيّة، أخت أخيها<sup>(٥)</sup> لأبيها: العوام بن

(١) قيل: كانت تحت أبي هالة أولاً، ثم عتيق بن عابد، "ابن هشام" (١/١٩٩)، "سير أعلام النبلاء" (٢/١١١).

(٢) قيل: إنّ اسمها هالة.

(٣) كان حكيم بن حزام صديقًا لمحمّد وكان معجبًا به، فكان يذكر خصاله الطيبة لعمّته خديجة، فأعجبت به.

(٤) "ابن هشام" (١/١٩٨).

(٥) هي أخته لأمّه؛ نفيسة بنت أمية التميمي.

خويلد، زوجته صفية بنت عبد المطلب، عمه محمد ﷺ، ونفيسة امرأة ذكية لبقة حسنة المدخل، إنها خير من يقوم بهذه المهمة، فاتحتها خديجة بما في نفسها، وأرسلتها دسيساً إلى محمد؛ لترى إن كان يرغب في الزواج منها! وذهبت نفيسة، وتركت خديجة نهياً لخواطرها، وقلبا يتلقت نحو الباب بانتظار عودتها..

ماذا لو رفض؟ لا، لن يرفض! لم لا، إنه سيّد شباب مكة، وكل امرأة تتمناه، وخديجة أكبر منه سنًا..

وعادت نفيسة بوجه ضاحك، فحقت خديجة إليها وقلبا يسبقها.

قالت نفيسة وهي تتحدث عن ذهابها إلى محمد، وجلوسها إليه:

- يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟

فقال:

- ما بيدي ما أتزوج به؟

قالت:

- فإن كُفيت ذلك، ودُعيت إلى الجمال والمال والشرف

والكفاءة، ألا تجيب؟

قال:

- فمن هي؟

قلتُ:

- خديجة.

قال:

- وكيف لي بذلك؟

قلتُ:

- عَلَيَّ.

قال:

- فأنا أفعل<sup>(١)</sup>.

#### ٨- خديجة:

عندما تأكدت خديجة أنّ محمّداً لا يمانع في الزواج منها أرسلت إليه، وقالت:

- يا ابن عمّ، إنّي رغبت فيك لقربتك، وسِطَتِكَ<sup>(٢)</sup> في قومك، وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك<sup>(٣)</sup>.

فلَمَّا سمع ذلك ذهب محمّد إلى أعمامه فأخبرهم، فقاموا معه، وحضروا في الموعد الذي حدّته خديجة لهم<sup>(٤)</sup>، وكانت قد أرسلت إلى عمّها عمرو بن أسد ليزوّجها لأنّ أباهما كان قد توفي في حرب الفجار، وقتل عمّها حزام بن خويلد في تلك الحرب، أمّا أخوها العوّام بن خويلد فهو زوج صفيّة بنت عبد المطلب، وقد ولدت له الزبير بن العوّام قبل هذا التاريخ بعامين.

(١) "الطبقات الكبرى" (١/١١٣).

(٢) شرفك.

(٣) "ابن هشام" (١/٢٠٠، ٢٠١).

(٤) "الطبقات الكبرى" (١/١١٣)، والخطبة جاءت في هامش الكتاب.

وقف أبو طالب فقال:

- الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل،  
وضئضئ معد، وعنصر مضر، وجعلنا حاضرة بيته، وسواس حرمة،  
وجعله لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس.

ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يُوزن به رجل شرفاً  
ونبلاً وفضلاً، وإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل، وأمر  
حائل، وعارية مستردة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل،  
وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة<sup>(١)</sup>.

فأجاب عمها عمرو بن أسد قائلاً:

- محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يخطب خديجة بنت  
خويلد؟! هذا الفحل لا يُقدح أنفه<sup>(٢)</sup>.

وتزوج محمد خديجة بنت خويلد؛ أمها: فاطمة بنت زائدة  
القرشية، وكانت خديجة تُدعى في قومها: الطاهرة، وحين تزوجها  
محمد أعتق مولاته بركة الحبشية، فتزوجها عبيد بن زيد بن عمرو  
الخزرجي، وأخذها معه إلى يثرب<sup>(٣)</sup>.

(١) الخطاب إلى أكثر من واحد، فلعل خديجة دعت أخاها وأبناء عمومتها إلى  
هذه المناسبة.

(٢) "الاستيعاب" على هامش "الإصابة" (٤/٢٨٠)، والخطاب للتكريم  
والتعظيم؛ أي: مثله لا يرد!

(٣) "الإصابة" (٤/٤٣٢/ تسلسل ١١٤٥).



كان محمّد في الخامسة والعشرين من عمره، وكانت خديجة في الخامسة والثلاثين<sup>(١)</sup>، وفي هذه السنة وُلدت بنتُ أبي طالب؛ فصار لعمّه أبي طالب من الأولاد ثلاثة، ومن البنات ثلاثاً!

وراح محمّد يشارك السائب بن أبي السائب؛ صَيْفِيَّ بن عائذ المخزومي في تجارته؛ وكان السائب رجلاً لا يُداري ولا يُماري<sup>(٢)</sup>.

### ٩- الاختبار:

أهدى حكيم بن حزام إلى عمّته خديجة غلاماً صغيراً ذكياً، أبيض شديد البياض، لم يتجاوز الثامنة من العمر، خرجت به أمّه سُعدى بنت عبد بن عامر إلى أخواله من بني مَعْن في قبيلة طِيّ<sup>(٣)</sup>، فلمّا كانت هناك أغارت خيل لبني القَيْن بن جَسْر على أهلها فأخذته، وجاءوا به إلى سوق حُباشة في مكّة، فاشتراه حكيم بن حزام<sup>(٤)</sup> بن خويلد بأربعمئة درهم، وأهداه إلى عمّته خديجة بنت خويلد، فلمّا تزوّجت خديجة محمّداً تعلّق الغلام به، وأحبّه حبّاً عظيماً تجاوز حبّ الأب والأم، والعشيرة والنّاس جميعاً؛ لِمَا رأى من شدّة اهتمامه به وحُسن معاملته وحَدْبِهِ عليه!

وبعد مُدّة عِلِمِ أهل الغلام بمكان ولدهم، فجاءه أبوه وعمّه، فسألوا عن محمّد، فقيل: إنّه في المسجد، فدخلوا عليه فقالوا:

(١) "السيرة النبويّة" لابن كثير (١/٢٦٥).

(٢) "إمتاع الأسماع" (ص٨، ٩).

(٣) تقع شمال شرق مكّة، وتبعد عنها بحوالي ألف كيلومتر.

(٤) لخديجة ثلاثة إخوة هم: حِزام، والعوّام، ونَوْفل، وقد قتل حِزام في حرب الفجار.

- يا ابن عبد المطلب، يا ابن هاشم، يا ابن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكُّون العاني، وتطعمون الأسير..

جئناك في ابنا عبدك؛ فامنن علينا، وأحسن إلينا في فِداءه.

قال:

- من هو؟

قالوا:

- زيد بن حارثة.

قال:

- فهلاً غير ذلك؟

قالوا:

- ما هو؟

قال:

- أَدْعُوهُ فَأَخِيْرُهُ؛ فَإِنْ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ بَغِيْر فِدَاءٍ، وَإِنْ اخْتَارَنِي

فَوَاللّٰهِ مَا أَنَا بِالَّذِي اخْتَارَ عَلِيَّ مِنْ اخْتَارَنِي فِدَاءً!

قالوا:

- قَدْ زِدْتَنَا عَلَي النَّصْفِ<sup>(١)</sup> وَأَحْسَنْتَ.

فَأَرْسَلَ فِي طَلَبِ زَيْدٍ، فَلَمَّا حَضَرَ دَعَاهُ فَقَالَ لَهُ:

(١) أي: أنصفتنا وزيادة.

- هل تعرف هؤلاء؟

قال:

- نعم؛ هذا أبي، وهذا عمِّي.

قال:

- فأنا من قد علمت، وقد رأيت صُحبتِي لك؛ فاخترني

أو اخترهما.

فقال زيد بلا تردُّد:

- ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت منِّي بمكان الأب

والعمِّ.

فهتف الرجلان بصوت واحد:

- ويحك يا زيد! أتختار العبودية على الحرية؟! وعلى أبيك

وعمِّك وأهل بيتك؟!

فقال:

- نعم؛ قد رأيت من هذا الرجل شيئًا، ما أنا بالذي أختار عليه

أحد أبدًا.

عند ذلك أخذ محمَّد بيده، وقام به إلى الملاء من قريش، فقال:

- اشهدوا أنَّ هذا ابني؛ وارثًا وموروثًا<sup>(١)</sup>.

(١) "الروض الأنف" (١/١٦٤).

فلما رأى أبوه وعمه ذلك طابت أنفسهما<sup>(١)</sup>.

ومن ذلك اليوم دُعي: زيد بن محمّد، بعد أن كان يُدعى زيد بن حارثة.

### ١٠- نداء الفطرة:

كانت قريش قد ملأت البيت الحرام بالأصنام، فأحاطت الكعبة التي بناها إبراهيم بثلاثمائة وستين صنماً، كان أكبرها هُبُل!! وكان على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى، فجعلت له قريش يدًا من ذهب! وكان أمام البيت صنمان: إساف ونائلة، وعلى الصفا صنم يُدعى: نَهيك مُجاود الرّيح، وعلى المروة صنم يُدعى: مُطعم الطّير<sup>(٢)</sup>.

كانت هذه الأصنام بغيضةً إلى محمّد، كرهةً إلى نفسه الكبيرة، فكان لا يعبد إلا الله، دين الأحناف، دين إبراهيم خليل الرّحمن! وكان يظهر بين الحين والحين نَفَرٌ يخرجون على دين قريش منهم: قُس بن ساعدة الإيادي، وقد اجتمع في إحدى المرّات أربعة نفر هم: ورقة بن نوفل بن أسد، وابن عمّه عثمان بن الحُوَيرث بن أسد، وعبيد الله بن جحش؛ أمّه: أميمة بنت عبد المطلب، عمّة محمّد، وزيد بن عمرو بن نُفيل؛ ابن عمّ عمر بن الخطّاب بن نُفيل.

اجتمع هؤلاء الأربعة؛ فقال بعضهم لبعض:

- تعلّموا والله؛ ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم

(١) "أسد الغابة" (٤/٢٢٤ / تسلسل ٢٠١)، و"الاستيعاب" (ص ٥٤٤-٥٤٧)،

و"الإصابة" (١/٥٦٣ / تسلسل ٢٨٩٠).

(٢) "السيرة النبوية" للندوي (ص ٨٢).

إبراهيم! ما حجرٌ نُطِيفُ به، لا يسمع ولا يُبصر، ولا يضرُّ ولا ينفع! يا قوم، التمسوا لأنفسكم ديناً؛ فإنَّكم والله ما أنتم على شيء<sup>(١)</sup>.

فأمَّا عبيد الله بن جَحْش فقد بقي في مكَّة في حالة من القلق الشديد والمعاناة، أين ذهبت عقول قريش؟! صنم يصنعونه بأيديهم ثم يسجدون له ويقدمون له القرابين؟ أيهما أحقُّ بالطَّاعة والعبادة؛ الصانع أم المصنوع؟!!

وأتَّجه الثلاثة الآخرون إلى الشَّام لعلَّهم يجدون من يدلُّهم على الدين الصحيح، فذهب عثمان بن الحُوَيْرِث إلى قيصر الروم فتنصَّص، وحسنت منزلته عنده<sup>(٢)</sup>.

واعتنق ورقة بن نوفل دينَ النصرانية أيضًا<sup>(٣)</sup>، وأكبَّ على كتب النصراني يقرؤها، وصار يُترجم بعضها إلى العربية، وعاد إلى مكَّة وهو يحمل تلك الكتب.

أما زيد بن عمرو بن نفيل فلقى عالمًا من اليهود فسأله عن دينهم، وقال:

- لعلِّي أن أدين دينكم؛ فأخبرني.

فقال اليهودي:

- لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله.

(١) "ابن هشام" (١/١٣٧-١٣٨)، ويلاحظ أنَّ نوفلاً والحويث هما عمَّا خديجة بنت خويلد؛ فورقة ابن عمِّها نوفل، وعثمان ابن عمِّها الحويث! أما عمُّها الثالث فهو عمرو بن أسد الذي مرَّ ذكره قبل قليل.

(٢) "ابن هشام" (١/١٣٧).

(٣) نفس المصدر (ص١٣٨).

فقال زيد:

- ما أفرُّ إلا من غضب الله! ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً!  
وأنى أستطيعه؟! فهل تدلُّني على غيره؟

قال اليهودي:

- ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً.

قال:

- وما الحنيفُ؟

قال:

- دين إبراهيم؛ لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله.

فذهب زيد، فلقي عالماً من النصارى، فسأله عن دينهم.

فقال النصراني:

- لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله!

فجفل زيد، وقال:

- ما أفرُّ إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه

شيئاً أبداً، وأنى أستطيع؟ فهل تدلُّني على غيره؟

فأجاب النصراني:

- ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً.

قال:

- وما الحنيفُ؟

قال:

- دين إبراهيم؛ لم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا، ولا يعبد إلا الله!

فلَمَّا رأى زيد قولهم في إبراهيم ﷺ خرج، ثم رفع يديه فقال:

- اللهمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ<sup>(١)</sup>!

ثم عاد إلى مكة واعتزل الأصنام، وكان يُسند ظهره إلى الكعبة

ويقول:

- يا معاشر قريش<sup>(٢)</sup>، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري.

ينكر عليهم عبادتهم الأصنام ودعواهم أنهم على دين إبراهيم!!

وكان يُحيي الموءودة؛ يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته:

- لا تقتلها، أنا أكفيكها مؤنتها.

فياخذها؛ فإذا ترعرت قال لأبيها:

- إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها!<sup>(٣)</sup>

كانت خديجة قد ولدت لمحمد: القاسم، وبه صار يُكنى، ثم

مات القاسم، فولدت له زينب<sup>(٤)</sup> وذلك بعد مُضيِّ ثلاثين سنة على

عام الفيل، وفي هذه السنة أيضًا وُلِدَ عليُّ بن أبي طالب.

(١) أصل القصة في "البخاري" (٥٠/٥).

(٢) في رواية: يا معشر قريش.

(٣) "البخاري" (٥١/٥)، و"فقه السيرة" للغزالي (ص ٥٧)، وصححه الألباني وعلّق عليه.

(٤) "الاستيعاب" (٣١١/٤)، و"الإصابة" (٣١٢/ تسلسل ٤٦٦).

## ١١- من يُعيد الحَجْر إلى مكانه؟

أرادت قريش أن تجدد بناء الكعبة؛ كانت ترى أنها أولى الناس برعاية البيت وعمارته، لا سيَّما بعد أن دافع الله عنهم وأهلك عدوَّهم صاحب الفيل! وبيوت السَّادة من قريش قريبة من المسجد، وكانت دار الندوة؛ وهي الدار التي أسسها قصي بن كلاب؛ الجد الخامس لمحمَّد = لاصقةً بجدار البيت، وكان بابها من ناحية المسجد، بل كانت عامَّة مجالسهم أمام البيت<sup>(١)</sup>.

كان القُرشيون أفصح العرب لغةً، وأصحَّهم أجسامًا، وكانوا يمتازون بجمال الخِلقَة، وحسن الملبس، ونظافته وأناقته؛ كانوا مثلًا في سلامة الذُّوق والظُّرف، شأن العواصم والمدن الكبيرة في كل قُطر!<sup>(٢)</sup>

كان ارتفاع الكعبة تسع أذرع، ولم يكن لها سقف<sup>(٣)</sup>، وكان في جوفها أكبر أصنام قريش: هُبَل؛ الذي جاء به عمرو بن لُحي الحُزاعي من بلاد الشام، وأمرهم بعبادته!

تقدَّم الوليد بن المغيرة<sup>(٤)</sup>، فأخذ المِعول، وبدأه بهدمها؛ ثم هدم النَّاس.

(١) "السيرة النبوية" للندوي (ص ٧٩).

(٢) نفس المصدر السابق (ص ٨٠).

(٣) "الروض الأنف" للشهيلي (١/١٢٧).

(٤) "ابن هشام" (١/٢٠٧)، وهذا يدلُّ على أن جدران الكعبة لم تكن رضمًا - حجارةً مرصوفًا بعضها فوق بعض - لأنها لو كانت كذلك لما احتيج إلى استعمال المِعول في هدمها! لعلَّ أحد جدرانها كان رضمًا.



فلَمَّا هُدِمَت الكعبة شَمَّرت كلُّ قبيلة من قبائل قريش تجمع الحجارة لبنائها من جديد، فكانوا يُلقون ثيابهم ويحملون الحجارة وهم عُراة، يَرَوْنَ ذلك دينًا، وأنه من باب التشمير والجِدِّ في الطاعة، وكانوا في غاية الحماس، حتى رفعوا بُنيانها تسع أذرع أخرى؛ فصارت ثمانى عشرة ذراعًا، ورفعوا بابها عن الأرض فكان لا يُصعد إليها إلا في درج، أو سُلَّم<sup>(١)</sup>.

هذه جُدران الكعبة قد قامت، وشاركت كلُّ قبيلة من قريش في بنائها، ولكن: من يعيد الحجر الأسود إلى مكانه؟! من يذهب بهذا الشرف دون الآخرين!!؟

- نحن!

- لا، بل نحن!

وأَسرع بنو عبد الدار فقَرَّبوا جَفنة مملوءة دمًا، وتعاقدوا مع بني عدي بن كعب على الموت، وغمسوا أيديهم في تلك الجَفنة، وطارَت نُذُرُ الشرِّ، كيف تسمح قبيلة لغيرها أن تذهب بهذا الشرف دونها؟! وهم الذين كانوا يقولون: لو أنَّ الله أرسل إلينا رسولًا لَكُنَّا أهدى من إحدى الأمم<sup>(٢)</sup>!؟

وقبل أن تقع الفتنة وتُجرَّد السيوف اتَّفَقوا على حلِّ وسط:

- يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أوَّل من

(١) "الروض الأنف" للسهيلي (١/١٣٢).

(٢) أي: أهدى من كل الأمم. "تفسير ابن كثير" (٣/٥٦٢) «سورة فاطر»،

[الآية: ٤٢].

يدخل من باب هذا المسجد؛ يقضي بينكم فيه .

وراحت القلوب تخفق بسرعة!

وتسمّرت العيون تنظر إلى باب المسجد!

وكلُّ قبيلة ترجو أن يكون الداخل من جماعتها!

ثم دخل الرجل . .

فهتف الجميع بصوت واحد:

- هذا الأمين؛ قد رضينا به<sup>(١)</sup>.

وعمّت الفرحة قلوب الجميع، لقد جاء الرجل الذي يُكنون له كلُّ

الحب والتقدير والاحترام . .

- هذا الأمين؛ رضينا، هذا محمّد.

فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر، فقال:

- هلموا إليّ ثوبًا.

فأتى به . .

فأخذ الحَجَرَ فوضعه فيه بيده، ثم قال:

- لتأخذ كلُّ قبيلة بناحية من الثوب.

ثم رفعوه جميعاً<sup>(٢)</sup>.

فأخذ ممثل كلِّ قبيلة بزواية من زوايا الثوب، ثم رفعوه جميعاً

(١) "إمتاع الأسماع" (ص ١١).

(٢) ابن كثير (١/ ٢٨٠).

حتى إذا بلغوا به موضعه، أخذه بيده، فوضعه في مكانه، ثم بني عليه وارتاح الجميع كل الارتياح إلى هذا الحلِّ، وقالوا:

- هذا الأمين؛ قد رضينا بما قضى بيننا<sup>(١)</sup>.

وهكذا استطاع محمدٌ بحكمته الفذة أن يدفع خطر الحرب التي كادت تنشب بين القبائل من قريش، وكان له وحده شرفُ حمل الحجر الأسود بيده أولاً وآخرًا، وليس لأحد غيره.

كان زيد بن عمرو بن نفيل قد تُوِّفِّي قبل بناء الكعبة بقليل، وقد خَلَّف: سعيد بن زيد، وعاتكة بنت زيد؛ وكانت غاية في الجمال! رُزق محمدٌ بابتته الثانية من خديجة فسَمَّاهَا: رُقِيَّةَ.

كان عاشوراء يومًا تصومه قريش في الجاهلية وكان محمدٌ يصومه<sup>(٢)</sup>.



(١) "الطبقات الكبرى" (١/١٢٨)، وفيها: «ليأخذ كلُّ رجلٍ منكم بزاوية من زوايا الثوب».

قصة الحجر الأسود ووضعه في مكانه قال عنها الألباني في هامش "فقه السيرة" للغزالي (ص ٨٤): «حديث حسن أخرجه الإمام أحمد (٣/٤٣٥)».

(٢) "البخاري" (٥/٥١).



(٣)

ماذا قال الحجر والشجر؟

«إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجْرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ  
قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ، إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ».

صحيح مسلم (٢٢٧٧)

السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ!

### ١- في بيت أبي طالب:

أصابت قريشاً أزمةً اقتصاديةً شديدةً أضرت بالفقراء والمساكين وأصحاب الدَّخْل القليل من أهل مكَّة! وكان أبو طالب كثيرَ العيال قليلَ المال، فكان أثر الأزمة عليه شديدًا؛ لذلك رأى محمَّد أن يخفِّف عن كاهل أبي طالب، فذهب إلى عمِّه العباس؛ وكان من أكثر أبناء عبد المطلب مالاً، وأيسر بني هاشم، وقال له:

- يا عباس، إنَّ أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب النَّاس ما ترى من هذه الأزمة؛ فانطلق بنا إليه فلنخفِّف عنه من عياله؛ آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً فنكفُّهما عنه.

فقال العباس:

- نعم.

فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا له:

إنَّا نريد أن نخفِّف من عيالك حتى ينكشف عن النَّاس ما هم فيه.

فقال لهما أبو طالب:

- إذا تركتُما لي عَقِيلاً فاصنعا ما شئتما.

فأخذ محمَّد علياً فكان في كفالته، وأخذ العباس جعفرًا فكان في

كفالته.

ولعلَّ طالبَ بن أبي طالب قد تزوَّج واستقلَّ عن أبيه.

وفي هذه المدة تُوفِّي العوام بن خويلد؛ أخو خديجة بنت خويلد،

فأسرع نوفل بن خويلد فضمَّ إليه الزبير بن العوام، وقد خلف العوام أولادًا هم: بحير<sup>(١)</sup>، والسائب<sup>(٢)</sup>، وعبد الله، وعبد الرحمن، والزبير، وخلف بنتين هما: هند بنت العوام<sup>(٣)</sup>، وزينب بنت العوام<sup>(٤)</sup>.

ولعلَّ في هذه المدَّة أيضًا قد تزوج أبو سفيان<sup>(٥)</sup> بن الحارث بن عبد المطلب، ابنة عمه جمانة بنت أبي طالب؛ أخت علي بن أبي طالب.

كان محمَّد ملجأ الأيتام والأرامل والمساكين من بني هاشم، بل: كان ملجأ المحتاجين من قريش، وهو كما قال عمه أبو طالب بحق:

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ

ثُمَّ أَلَّ الْيَتَامَى عِصْمَةً لِلْأَرَامِلِ

يَلُودُ بِهِ الْهَلَاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلِ

وقبل أن يبلغ محمَّد الأربعين من العمر رزق بابنته: أم كلثوم، ثم فاطمة، فصار له من البنات أربع.

## ٢- صفاء وضياء:

عندما بلغ محمَّد الأربعين من العمر صار يشعر بصفاءٍ روحيٍّ عجيبٍ، صار يزداد يومًا بعد يوم، حتى صار يرى الرؤيا في المنام

(١) "الروض الأنف" (٢٥٦/١)، و"الإصابة" (ص١٣٨/تسلسل ٥٩٣).

(٢) "الإصابة" (١١/٢) / تسلسل ٣٠٧٠.

(٣) "الإصابة" (١/٥٦٤) / تسلسل ٢٨٩٠، ترجمة زيد بن حارثة.

(٤) "الإصابة" (٤/٣١٨) / تسلسل ٤٩٢.

(٥) "الإصابة" (٤/٢٥٩) / تسلسل ٢٢٣.



وكأنه يراها في اليقظة، ثم صار إذا رأى الرؤيا في المنام رآها في اليقظة تمامًا مثل فلَق الصبح<sup>(١)</sup>!!

في الليالي المظلمة صار يرى ضوءًا، ويسمع صوتًا، حتى خشي على نفسه، فذكر ذلك لخديجة فقال:

- يا خديجة، إنني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا؛ لقد خشيت أن أكون كاهنًا<sup>(٢)</sup>.

فقالت:

- إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله؛ إنك تصدق الحديث، وتؤدّي الأمانة، وتصل الرّحم.

ومرّت الأيام، ونفسه الكبيرة تزداد صفاءً، والرؤى الصريحة الواضحة تزداد.

وعندما دخل المسجد، واقترب من الكعبة سمع الحَجَر الأسود يقول:

- السّلام عليك يا رسول الله<sup>(٣)</sup>!

- 
- (١) "البخاري" (٣٧/٩)، الحديث روته عائشة.  
 (٢) "الطبقات الكبرى" (١٧٩/١)، الحديث عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، وانظر "شرح النووي على صحيح مسلم" (١٩٨/٢).  
 (٣) "الروض الأُنْف" (١٥٢/١)، «قال رسول الله ﷺ: «إنني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن يُنزل عليّ». وفي بعض المسندات زيادة أن هذا الحَجَر الذي كان يسلم عليه هو الحَجَر الأسود وفي رواية: «إنني لأعرف حجراً كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إنني لأعرفه الآن» "مختصر صحيح مسلم" (١٥٢٨) (ص ٤٠٣).

ثم صار يخرج إلى البرية، ويحبُّ الخلوة والابتعاد عن الناس، فكان لا يمرُّ بشجر ولا حَجَرٍ إلا قال<sup>(١)</sup>:

- السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ!

استمرت الحال مدة ربيع الأول والآخِر، وجمادى الأولى والآخرة، ورجب، وشعبان من تلك السنة، ثم حُبب إليه التحنُّث<sup>(٢)</sup> في غار حِراء، فكان ذلك في السنة نفسها؛ يأخذ معه الماء والطعام، ويخلو في غار حِراء يتعبَّد الليالي ذواتِ العدد؛ (لعدة ليال)، ثم يعود إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها.

وفي ليلة من تلك الليالي رأى في المنام:

- فجاءني - يعني: المَلَك - وأنا نائم، بنمطٍ من ديباج<sup>(٣)</sup> فيه كتاب، فقال:

- اقرأ.

فقلت:

- ما أقرأ؟

فغنَّني حتى ظننت أنه الموتُ، ثم أرسلني، فقال:

- اقرأ.

(١) "شرح صحيح مسلم" للنووي (١٩٨/٢).

(٢) «الحنثُ»: هو التعبُّد، تقول العرب: التحنُّث والتحنُّف، يُبدلون الفاء من الثاء تقول: فَمَّ موضع: ثُمَّ» ابن كثير "السيرة النبوية" (٣٩١/١)، فالتحنُّف: اتِّباع الحنيفية، وهي دين إبراهيم.

(٣) قطعة من الحرير.

فقلت :

- ماذا أقرأ؟

وما أقول ذلك إلا افتداءً من أن يعود إليَّ بمثل ما صنع بي . .

قال :

- ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾﴾ إلى قوله تعالى : ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا

لَمْ يَعْلَمْ ﴿٢﴾﴾ [العلق : ١ - ٥] .

فقرأته، ثم انتهى، ثم انصرف عني، وهببتُ من نومي، وكأنما

كُتِبَ في قلبي<sup>(١)</sup>.

ستَّة أشهر مضت على هذه التربية الربانية والإعداد الرُّوحي لتلقِّي

الأمر العظيم، ستَّة أشهر ومحمَّد يخشى أن يكون ما به شيءٌ من

الكهانة أو الجنون أو الشُّعر! وكلُّها بغیضةٌ كريهة إلى نفسه الكبيرة!

ماذا بعد هذه الرؤيا التي رآها في المنام؟ هل يجيء المَلَك في

اليقظة فيُلقي إليه ما ألقى في المنام؟ نعم؛ كان ذلك يوم الاثنين<sup>(٢)</sup> من

رمضان؛ ظهر له المَلَك فجأة، إنَّه نفس المَلَك الذي رآه في المنام،

إنه جبريل عليه السلام، ولكنه لم يأتَه بنمطٍ من ديباج، فقال له :

- اقرأ.

فقلتُ :

(١) "في ظلال القرآن" (٣/١٩٧) والحديث رواه الطبري عن عبد الله بن الزبير .

(٢) "السيرة النبوية" لابن كثير (١/٣٩٢)، سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن صوم يوم الاثنين

فقال : «ذاك يومٌ وُلِدْتُ فيه، ويومٌ أنزل عليَّ فيه» رواه مسلم .

- ما أنا بقارئ.

فأخذني فغطّني<sup>(١)</sup> حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال:

- اقرأ.

فقلت:

- ما أنا بقارئ.

فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال:

- اقرأ.

فقلت:

- ما أنا بقارئ.

فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال:

- ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ

الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق: ١ - ٥].

ثم ذهب الملك، ورجع رسول الله ﷺ خائفًا ترجف بوادره، حتى

دخل على خديجة فقال:

- زملوني! زملوني!

فزملوه حتى ذهب عنه الرّوع، ثم قال:

- يا خديجة، ما لي؟!!

(١) أي: ضمّني إليه بشدة.

وأخبرها الخبر، وقال:

- لقد خشيت على نفسي.

وكانت خديجة امرأة ذكية عاقلة، وكانت من أعرف الناس بأخلاق رسول الله ﷺ، ولقد أدركت بفطرتها السليمة أنه لا يمكن لمثله أبداً أن يُصاب بمس من الجن؛ فقالت له بكل ثقة وتأکید:

- كلا، أبشِّر؛ فوالله لا يُخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق<sup>(١)</sup>.

رأت خديجة أن الأمر أعظم من ذلك، وأنها لا بد أن تستعين بأهل الخبرة في هذا الشأن؛ فأخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان قد تنصّر، وقد كان شيخاً كبيراً قد فقد بصره.

فقالت له خديجة:

- أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال ورقة:

- يا ابن أخي، ماذا ترى؟

فأخبره النبي ﷺ ما رأى؛ فقال ورقة<sup>(٢)</sup>:

(١) هذه رواية البخاري (٣٨/٩)، وفي رواية مسلم زيادة بعد قول خديجة: «إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل وتكسب المعدوم...» (٢/٢٠٠).

(٢) آمن ورقة بالنبي ﷺ، قال ﷺ: «لا تسبوا ورقة؛ فإني رأيت له جنة أو جنتين» أخرجه البزار والحاكم (٤٠٩/٢) حاشية "فقه السيرة" (ص ١٠٠) "فقه السيرة" للغزالي، والحاشية للألباني.

- هذا النَّاموس الذي أنزل على موسى؛ يا ليتني فيها جذعًا؛  
أكون حيًّا حين يُخرجك قومك.

فقال رسول الله ﷺ متعجبًا:

- أومُخرِجِي هم؟!!

فقال ورقة:

- نعم؛ لم يأت رجل قطُّ بما جئتَ به إلا عُودِي؛ وإن يدركني  
يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا.

٣- ثم فتر الوحي:

انقطع الوحي بعد أن نزل على محمَّد ﷺ في غار حراء<sup>(١)</sup>، انقطع  
بعد أن نزل عليه عيانًا جهارًا في رمضان<sup>(٢)</sup> وكانت هذه الفترة لا بدَّ  
منها لكي يستعيد النبي ﷺ قوَّته، ويستعدَّ لما بعدها! وقد آمن به أوَّل  
من آمن: زوجته الوفيَّة خديجة<sup>(٣)</sup> بنت خويلد رضي الله عنها.

ومن جواب ورقة بن نوفل نستدلُّ على أنه قد آمن به.

وآمن به صديقه الحميم وصاحبه طول المدَّة أبو بكر الصِّديق.

(١) يبعد عن مكَّة بأقل من خمسة عشر كيلو مترًا؛ على يسار المارِّ إلى منى، له  
قُلَّة مشرفة على الكعبة مُنحنية، والغار في تلك الحنية "السيرة النبوية" لابن  
كثير (٣٩٢/١).

(٢) في ١٧ رمضان، ٦ آب ٦١٠م "السيرة النبوية" للندوي (ص ١٠٠).

(٣) اعتبر علماء الغرب إيمانها أصح شهادة له، "الوحي المحمَّدي" لرشيد رضا  
(ص ٩٨).

وآمن جميع أهل بيته؛ علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، وهند<sup>(١)</sup>  
ابن أبي هالة؛ ابن خديجة من زوجها السابق، وبنات النبي ﷺ.

خلال هذه المدة تُوفِّي ضرار بن عبد المطلب؛ عم النبي ﷺ،  
وكان قبل ذلك قد تُوفِّي عمه الزبير بن عبد المطلب؛ وخلف بنتين  
هما: ضباعة وأم الحکم، ولم يبق من أعمامه على قيد الحياة سوى  
أربعة: أبو طالب، وأبو لهب، والحمزة، والعبّاس.

#### ٤- استجابة الشباب:

نشط الصديق أبو بكر من أول يوم في الدعوة إلى الله تعالى؛  
وهذا يدلُّ على عظيم ثقته بالنبي ﷺ، وحبّه له، والتفاني في تأييده  
ونصره! راح أبو بكر يختار من الرجال والفتيان أقربهم إلى رسول الله  
ﷺ، وأقربهم إليه، فدعا أوّل من دعا عثمان بن عفان؛ أمه أروى بنت  
أم حكيم البيضاء عمّة رسول الله ﷺ، كان عثمان جميلاً وضيئاً  
أبيض، جعد الشعر، كان في الرابعة والثلاثين من عمره، ولكنّ الناظر  
إليه يظنّه أصغر من ذلك بكثير.

سمع من خالته سُعدى<sup>(٢)</sup> أن محمّداً يدعو إلى الله، فأقبل إلى أبي  
بكر وسأله عمّا قالته خالته، فقال له:

- ويحك يا عثمان! والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق  
من الباطل؛ هذه الأوثان يعبدها قومك، أليست حجارة لا تسمع ولا

(١) هو ربيب رسول الله ﷺ، لم يذكره كتاب السيرة في السابقين إلى الإسلام،  
ولا بدّ أن يكون منهم لأنّه عاش في بيت النبوة!

(٢) "الإصابة" (٤/٣١٧) / تسلسل ٥٣٩، ترجمة سُعدى بنت كريب.

تُبصر، ولا تضرُّ ولا تنفع!؟

قال:

- بلى والله، إنَّها لكذلك.

قال أبو بكر:

- والله لقد صدقتك خالتك، هذا محمَّد بن عبد الله قد بعثه الله

برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه فسمع منه؟

فقال:

- نعم.

فوالله ما كان بأسرع من أن مرَّ رسول الله ﷺ، ومعه علي بن أبي

طالب يحمل ثوبًا لرسول الله ﷺ، فلمَّا رآه أبو بكر قام إليه، فسارَه

في أذنه، فجاء رسول الله ﷺ فقعده، ثم أقبل على عثمان، فقال له:

- يا عثمان، أجب الله إلى جنَّته؛ فإنِّي رسول الله إليك وإلى

جميع خلقه.

فوالله ما تمالك حين سمع قوله أن أسلم، وشهد:

- أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمَّدًا عبده ورسوله.

انظر الطريقة اللطيفة التي طرق بها أبو بكر قلب عثمان:

- ويحك يا عثمان!

هذه الكلمة كأنَّها هِزَّة قويَّة موقظة، ومنبِّهة إلى أمر مهمٍّ جدًّا!!

- والله إنَّك لرجل حازم ما يخفى عليك الحقُّ من الباطل..



والغاية من هذا الثناء الجميل أن يلتفت إلى الأمر المهم الذي سيأتي بعده:

- هذه الأوثان التي يعبدها قومك..

لم يقل له: هذه الأوثان التي تعبدها؛ لكي لا تأخذه العزة بالإثم، فلما قال له:

- أليست حجارة صماء لا تسمع ولا تبصر، إلخ؟!!

لم يتمالك أن قال:

- بلى، والله إنها كذلك.

فسقطت الأوثان مرة واحدة من نفسه، ولعلها كانت ساقطة قبل ذلك دون أن يشعر، فلما جاء النبي ﷺ، وقعد إليه، وكلمه:

- أجب الله إلى جنته؛ فإنني رسول الله إليك، وإلى جميع خلقه.

لم يقل: فإنني رسول الله إليك وإلى قريش، ولا إلى العرب، وإنما قال:

- وإلى جميع خلقه.

فالإسلام دعوة عالمية من أول يوم، من لحظته الأولى، من قوله تبارك وتعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾ [العلق: ١-٢]؛ فهي دعوة إلى الإنسان في أي مكان، في كل زمان ومكان!!

(١) هذه حقيقة علمية لم يعرفها البشر إلا في أواخر القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي.

ثم وقع اختيار أبي بكر على الزبير بن العوام بن خويلد؛ فهو قريب إلى النبي ﷺ من جهتين: من جهة أمه: صفية بنت عبد المطلب؛ عمّة رسول الله ﷺ، ومن جهة خديجة بنت خويلد عمته! لم يتجاوز الزبير الخامسة عشرة من عمره؛ إن لم يكن أقل<sup>(١)</sup>، وكان فتى..

دعاه أبو بكر إلى الإسلام، فاستجاب بسرعة، وقد سبق إخوته الأربعة.

ثم دعا عبد الرحمن بن عوف، وكان في الثلاثين من عمره، طويلاً جميلاً أبيض مُشرباً بحُمرة، أهدب، أعين، فأسرع إلى الإسلام.

وأسلم بدعوة أبي بكر: سعد بن مالك بن أهيب<sup>(٢)</sup>؛ وأهيب هو عمّ أمّنة بنت وهب أمّ النبي ﷺ؛ رأى سعد بن أبي وقاص في المنام كأنه في ظلمة لا يبصر، وإذا بقمر يُضيء له فاتّبعه، فرأى زيد بن حارثة، وعليّ بن أبي طالب، وأبا بكر قد سبقوه إلى القمر.

كان سعد بن أبي وقاص في السابعة عشرة من عمره عندما أسلم.

أما طلحة بن عبيد الله فكان في تجارة مع بعض أهله إلى بصرى، فسمع راهباً هناك يقول:

- سلوا أهل هذا الموسم؛ أفيهم أحد من أهل الحرم؟

قال طلحة:

- نعم، أنا.

(١) قيل: في الثانية عشرة من عمره.

(٢) هو سعد بن أبي وقاص ﷺ.

قال الراهب:

- هل ظهر أحمد؟

قال:

- من أحمد؟

قال الراهب:

- ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شَهْرُهُ الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، ومَخْرَجُه من الحرم، ومُهَاجِرُه إلى نخل وحرّة وسبخ؛ فإيّاك أن تُسبق إليه<sup>(١)</sup>!

فلَمَّا عاد إلى مكّة ذهب إلى أبي بكر، فأخذه إلى النبي ﷺ، فأسلم..

كان طلحة أبيض، أحمر، أقرب إلى القصر، وكان في الخامسة عشرة من عمره؛ أمّه: الصّعبة بنت الحضرمي، أخت العلاء بن الحضرمي.

هكذا بدأ الإسلام بذرته الأولى، خطواته الأولى، لم يحجب دعوته عن الصّغير لصغره، ولا عن الكبير لكبره لأنّ الله تعالى ربّ الصغير والكبير، ربّ الحر والعبد، ربّ الأبيض والأسود، ربّ المرأة والرجل! فإلى هؤلاء جميعًا توجّه الدّعوة دون استثناء لأنّهم جميعًا في نظر الإسلام سواء كآسنان المُشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى!!

هؤلاء الذين على أكتافهم قام الإسلام أوّل ما قام..

فيهم أربعة صغار السنّ: علي، وسعد، وطلحة، والزيير.

(١) "الإصابة" (٢/٢٢٩ / تسلسل ٤٢٦٦)، و"الاستيعاب" (٢/٢١٩).

وفيهم الشباب اليافع: زيد بن حارثة، وهند بن أبي هالة.

وفيهم من تعدى مرحلة الشباب: أبو بكر الصديق، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف.

وفيهم الشيخ الفاني: ورقة بن نوفل.

وفيهم المرأة الصالحة الصادقة: خديجة بنت خويلد.

وفيهم بنات النبي ﷺ.

ولعلَّ النبيَّ الأمِّيَّ الذي لا يعرف القراءة والكتابة قد استشفَّ من الآيات الأولى من التنزيل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿٢﴾ أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ (١) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ [العلق: ٢-٥] أن لا بد من كتابة القرآن؛ فأمر بكتابته، وشدَّد على عدم خلطه بغيره!

ولكن لا بد لهذه المجموعة الصغيرة من المؤمنين أن تجتمع على شيء يربطهم ويشدُّ آصرتهم برباطٍ متين؛ فما هو؟

## ٥- مفتاح دار السعادة:

ثم راحت خطوات الدعوة تأخذ طريقها إلى قلوب الناس وعقولهم، خطوات وئيدة متمهِّلة، ولكنها قويَّة راسخة!!

جاء خالد بن سعيد بن العاص الأمويُّ إلى أبي بكر الصديق، فقصَّ عليه رؤيا رآها، رأى كأنه وقف به على شفير نار هائلة ورأى أباه يدفعه فيها، وإذا النبي ﷺ قد أخذ بحُجْزته لئلا يقع فيها!

(١) هذه الحقيقة العلمية الثانية التي نزل بها القرآن على قوم لم يكونوا يعرفون أهمية القلم، والتي لم تظهر حقيقتها للعيان إلا في عصرنا الحاضر!!

فقال أبو بكر:

- أريد بك خيرًا! هذا رسول الله ﷺ فاتَّبِعْهُ، وإنَّكَ مُتَّبَعُهُ فِي الإسلامِ الَّذِي يَحْجُزُكَ مِنْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، وَأَبُوكَ وَاقِعٌ فِيهَا.

فلمَّا التَقَى بِالنَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

- يَا مُحَمَّدُ، إِلَى مَنْ تَدْعُو؟

قال:

- أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَتَخْلَعُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ حَجَرٍ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، وَلَا يَدْرِي مَنْ عَبْدُهُ مِمَّنْ لَمْ يَعْبُدْهُ.

قال خالد:

- فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ.

فَسَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِسْلَامِهِ.

ثم نزلت السورة الكافية الشافية، تاج القرآن وعروسه ومُبتدؤه، السورة التي عرَّفَ اللهُ تَعَالَى بِهَا نَفْسَهُ إِلَى خَلْقِهِ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى طَرِيقِ الْخَيْرِ وَالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾  
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ  
نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ  
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة: ١ - ٧].

الرحمة: صفة ثابتة له لا تزول، وهو ربُّ العالمين، لا ربُّ قريشٍ وحدها، ولا ربُّ العرب وحدهم، ولا ربُّ البشر وحدهم!! إنه ربُّ العالمين، وهو مالك يوم الدين، يوم الحساب، يوم الثواب والعقاب، وهو مُلْكُه أيضًا.

فأنت رب العالمين، يا رحمن يا رحيم، يا مالك يوم الدين، إياك نعبد، لا نعبد أحدًا سواك، وإياك نستعين؛ فاهدنا يا ربُّ الصراط المستقيم؛ صراط الذين أنعمت عليهم، كلِّ الذين أنعمت عليهم في سمائك وأرضك؛ من ملائكتك، وإنسك، وجنك، غير المغضوب عليهم من الكفرة والملحدين، ولا الضالين الذين أرادوا الحق فلم يهتدوا إليه، بل انحرفوا عنه، وثبتوا على انحرافهم وضلالهم!!

ولا تدري، ولا ندري كيف كان تأثير هذه السورة العظيمة على نفس النبي ﷺ، ولا على نفوس أصحابه القليلة بعددها، الكثيرة بإيمانها وصلتها برّبها!

ثم فرضت الصلاة<sup>(١)</sup> مفتاح الجنة<sup>(٢)</sup>؛ ومفتاح الصلاة الوضوء، وكانت ركعتين في الغداة، وركعتين في العشي<sup>(٣)</sup>؛ وأقبل المؤمنون السابقون على صلاتهم إقبالَ الظمان على الماء، أو إقبالَ الحبيب على الحبيب، وشعروا كأنَّ أرواحهم تتحرَّر من هذه الأرض وترابها الثقيل،

(١) نزلت سورة الفاتحة قبل فرض الصلاة. "سيرة الرسول" محمَّد عزة دروزة (ص ١٢٥).

(٢) "الترمذي" (١٠/١)، عن جابر بن عبد الله.

(٣) "إمتاع الأسماع" للمقرئزي (ص ١٧)، وصلاة الغداة هي صلاة الصبح، أمَّا العشيُّ فوقته من الظهر إلى قبل الغروب.

وتتعلَّق بالسماء، برَبِّ الأرض والسماء، شَعَرُوا بأنَّ أرواحهم تطير بلا أجنِح، شَعَرُوا لأوَّل مرَّة في حياتهم بلذَّة العبادة وحلاوة الطاعة.

كانت الدعوة تسيير بغاية السَّرِّيَّة والكتمان، ولم يكن أحد يعرف عدد الذين آمنوا بالدين الجديد، وإذا وصل، أو لم يصل خبرُ الدعوة إلى كَفَّار قريش فإنهم لم يحسبوا ذلك إلا من أمثال الصيحات الخافتة التي نادى بها قُسُّ بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نُفيل، وورقة بن نُوَفل<sup>(١)</sup>، وكلُّهم ماتوا ولم يتركوا أثرًا!

في هذه المدة عادت بركة الحبشيَّة من يثرب بعد أن توفي زوجها عبيد بن زيد الخزرجي، عادت مع ابنها البكر أيمن، فأمنت بالنبي ﷺ، وآمن ابنها أيمن.

## ٦- القرآن يرَبِّي:

بالكلمة الهادئة الرقيقة اللطيفة، بالهمسة الخافتة انجذب إلى نور الدعوة أحسنُ الرجال، وأشرفهم، وأذكاهم، وآمنوا بها، وثبتوا عليها، آمن جعفر بن أبي طالب، وكان أشبه الناس بالنبي ﷺ، وكان في العشرين من عمره، وأمنت زوجته أسماء بنت عميس، كما آمنت أمينة؛ زوج خالد بن أبي أحيحة (خالد بن سعيد)، ثم آمن عبد الله ابن عبد الأسد المخزومي؛ أمه: برة بنت عبد المطلب عمَّة النبي ﷺ، وهو أخو النبي ﷺ من الرضاعة وأخو حمزة، وآمن خباب بن الأرت، وآمن واقد بن عبد الله التميمي اليربوعي.

وكانت السور القصصار تُشَدُّ هذه المجموعة المباركة إلى الإسلام

(١) مات بعد نزول الوحي بقليل.

شداً قوياً، كانت سور القرآن تثبت دعائم العقيدة الراسخة في القلوب؛ الإيمان بالله الواحد الأحد، والإيمان بالرسول محمد ﷺ، والإيمان باليوم الآخر، بالجنة والنار، بالنعيم المقيم، والعذاب الأليم.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ١ - ٨].

عندما سمع أعرابيُّ الآية الأخيرة: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٨].

صاح:

- واسوأته!

ومضى النبي ﷺ في دعوته دون أن يلتفت إلى الأصنام الكثيرة التي تعجُّ بها مكة، ويضيق بها المسجد الحرام! ودون أن يلتفت إلى الأصنام الحيّة من كفار قريش التي وقفت نفسها للدفاع عن الأصنام الميتة!

وراحت سور القرآن تطرق القلوب طرقاً قوياً:

﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ ﴿١٠﴾ نَارُ حَامِيَةٍ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ١ - ١١].



وراحت بذرة الإسلام التي أُلقيت من السَّماء في مكَّة تشتدُّ، وتنمو وتُورق، وكانت قلوب العرب أنقى القلوب، وأسرعها استجابةً إلى أمر الله؛ لم تعكَّرها فلسفات الفرس، ولا تفاهات الروم، ولا تخيُّلات الحبشة، إنها الأرض البكر التي اختارها الله لحمل رسالته إلى النَّاس كافةً إلى أبد الدهر.

آمن عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب؛ ابن عمِّ النبي ﷺ، وكان في الخمسين من عمره، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو حذيفة بن عُتبة بن ربيعة العبشمي، وسالم بن مَعْقِل؛ مولى أبي حذيفة، وسعيد ابن زيد بن عمرو بن نُفيل، وزوجته: ابنة عمِّه فاطمة بنت الخطاب؛ أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر الصِّديق، وأم رومان؛ زوجة أبي بكر الصِّديق .

كانت قلوب العرب حافظة واعية لما تسمع، كانوا يحفظون الخُطبة الطويلة البليغة من أوَّل مرَّة يسمعونها، يحفظونها كما أُلقيت عليهم بلا زيادة حرف ولا نقص! وكانوا يعرفون جيِّد الكلام ورديئه، ويعرفون الشعر، ويميّزون بين بليغ الكلام وسَقَطه! فلا توجد أمَّة على طول الأرض وعرضها مثلُ أمَّة العرب في هذه الناحية؛ لذلك بهرَّهم القرآن ببلاغته ومعانيه وأسلوبه، وأيقنوا تمامًا أنه لا طاقة لبشر أن يأتي بمثله، وأنه من عند الله؛ خالق السماوات والأرض ومن فيهن!!

كان القرآن يربِّي هذه المجموعة الفريدة التي سارعت إلى الإيمان، كان يعرض عليها صورًا من مشاهد يوم القيامة، كل صورة من ناحية، كل لقطة تختلف أو تأتلف مع صاحبها: ﴿أَلَهَكُمُ التَّكَاثُرُ

﴿١﴾ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾  
 كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ  
 الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ [التكاثر: ١ - ٨] .

### ٧- في دار الأرقم:

فَشَتَّ الخمرُ في المجتمع الجاهلي فشوًّا بالغًا، وكانت في مكة مجالس للشرب والعزف، والرقص والغناء، وجرت هذه إلى فواحش أخرى؛ كالزنى، والقمار، والظلم، والقسوة، وغمط الناس، وبَطَر الحقِّ، وأكل أموال الناس بالباطل<sup>(١)</sup>!

لم يتعرَّض الإسلام في بداية مسيرته إلى شيء من هذه الأمراض، ولكنَّه ركَّز على أمرٍ مهمٍّ هو أساس الفساد في كل مجتمع؛ الشرك بالله!! والأمر الثاني هو عدم الإيمان بالغيب؛ ما بعد الموت، وهذا هو داء الإنسان الفتاك، داؤه الأوَّل في قديم الزمان وحديثه، إنَّه يظنُّ أنَّ فرصته في الحياة واحدة فقط، هي هذه الحياة الدنيا، فإذا مات انقطعت صلته بكل شيء!! وذهب كأن لم يكن!

وجاء القرآن يردُّ زعمه هذا ردًّا قويًّا صارخًا زاجرًا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [التكاثر: ٣ - ٤]، ثم تأتي «سورة العاديات» فترسم مشهدًا سريعًا حيًّا لخيال المعركة؛ أصواتها، وسرعتها، وإغارتها، وإثارة الغبار، وشقِّ صفوف الأعداء، ثم: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿١﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٢﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [العاديات: ٦ - ٨].

(١) "السيرة النبوية" للندوي (ص ٨٢).

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [العَادِيَات: ٩-١١].

ربُّهم وحده يعلم، وهو الخبير العليم، من أساء منهم ومن أحسن؛ فيجزى المسيء بإساءته، ويجزي المحسن بإحسانه!

انضمَّ إلى موكب النور: الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وهو شاب لم يتجاوز، أو لم يبلغ العشرين من العمر، واسمه: عبد مناف بن أسد بن عبد الله، وأسلم الإخوة الثلاثة: عثمان، وقُدامة، وعبد الله ابن مَظْعُون، وأسلم ثلاثة إخوة أيضًا: حَاطِب بن عمرو، وسَلِيْط، والسَّكْران بن عمرو، وزوجته: سَوْدَة بنت زَمْعَة، ومسعود بن الربيع القَارِي، وواقِد بن عبد الله التميمي، ثم أسرع إلى القافلة المؤمنة عبدُ الله بن جحش، وأمه أميمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، وأسلم أخوه أبو أحمد الضرير؛ واسمه: عبْد بن جحش، وهو زوج الفارعة بنت أبي سفيان، وكان يقطع مكّة طولًا وعرضًا بلا دليل!! وكان يقول<sup>(١)</sup>:

حَبَّذَا مَكَّةُ مِنْ وَادٍ

بِهَا أَهْلِي وَعُوَادِي

بِهَا تَرَسُّخُ أَوْتَادِي

بِهَا أَمْشِي بِلَاهَادِي

وأسلم عامر بن فُهيرة التميمي مولى أبي بكر الصّدِّيق، وخنيس

(١) "الإصابة" (٦/٤/١٠) تسلسل (١٠).

ابن حذافة القرشي السهمي، وأسلم أربعة إخوة: إياس، وعافل، وعامر، وخالد؛ بنو البكر.

رأى النبي ﷺ أن لا بدَّ من أن يلتقي بأصحابه، وأن يكون ذلك في مكان بعيد عن أعين الرُّقباء، فاختار بيتَ المؤمن الشاب: الأرقم ابن أبي الأرقم المخزومي، وكان الدخول إليه في غاية الحذر والسرية وكان قريباً من الصفا.

فصار النبي ﷺ يلتقي بعدد من أصحابه، فكان يصبُّ في قلوبهم الإيمان صبًّا، وكان من يريد أن يُسلم يأتي إليه في هذه الدار.

كانت دار الأرقم: دارًا للتربية الروحية والإيمانية، دارًا لإعداد الرجال الأتقياء الأوفياء، دارًا لإعداد الرجال الذين يستطيعون حمل أعباء الدعوة والجهاد في سبيلها، والتضحية من أجلها بالمال والروح والولد.

في هذه الدار؛ بل في هذه المدرسة الصغيرة بمساحتها الكبيرة بمعناها: أسلم بلال بن رباح، وعمَّار بن ياسر، وصهيب الرومي، وكان عيَّاش بن عمرو<sup>(١)</sup> بن المغيرة قد أسلم قبل الدخول إلى دار الأرقم، وهو ابن عمِّ خالد بن الوليد.

كان صهيب أحمرَ شديدَ الحمرة، كثيرَ شعر الرأس، متوسط القامة، وهو من أصل عربي، ولكنَّ الروم أغارت على منازلهم التي كانت تقع على نهر دجلة من جهة الموصِل، فأخذوا صهيبًا وهو صغير، فأخذ لسانهم، فلمَّا بلغ مبلغ الرجال هرب منهم، وجاء إلى مكَّة فحالف عبد الله بن جُدعان، وقد تُوفِّي ابن جُدعان قبل البعثة،

(١) "الإصابة" (٣/٤٧ / تسلسل ٦١٢٣) وهو عيَّاش بن أبي ربيعة.

وكان صهيب صديقاً للنبي ﷺ؛ فلَمَّا علم أنه يدعو إلى الواحد الأحد ذهب إليه، فالتقى بعَمَّار بن ياسر، فسأله عمار:

- ما تريد؟

فقال صهيب:

- ما تريد أنت؟

قال عمار:

- أردتُ الدخول إلى محمَّد فأسمع كلامه.

قال:

- فأنا أريد ذلك.

فدخلوا، وعرض عليهما النبي ﷺ الإسلام فأسلما، ثم مكثا في دار الأرقم إلى الليل، ثم خرجا مُتسللين لثلا يراها أحد، كان عمَّار في الثامنة والثلاثين من عمره، أما صهيب فكان شاباً في الثالثة والعشرين من عمره<sup>(١)</sup>.

ثم أسلم ياسر العنسي؛ أبو عمَّار، وزوجته سمية.

هذه المرحلة كانت ضروريَّة جدًّا لحياة الدعوة؛ لكي لا تتعرَّض النبتة الطريَّة الجديدة للعواصف، لكي لا تهتز، لكي تضرب جذورها في الأرض، ثم تنهض بعد ذلك قويَّة صلبة تُناطح هُوج الرياح!!

(١) أو الرابعة والعشرين. انظر ترجمته في: "الاستيعاب" (١٧٤/٢) على هامش "الإصابة"، و"الإصابة" (١٩٥/٢/ تسلسل ٤١٠٤)، وعمار: "الإصابة" (٥١٢/٤/ تسلسل ٥٧٠٤).

## ٨- قيام الليل:

افترضت الصلاة أوّل ما افترضت ركعتين بالغداة وركعتين بالعشيّ؛ أي: ركعتين في أول النهار وركعتين في آخره.

وقد أراد الإسلام أن يبني المؤمنين به بناءً جديدًا، أن يصوغهم صياغة جديدة؛ فكانت سور القرآن التي تنزل تباغًا، ولقاء النبي ﷺ بهم على شكل مجموعات صغيرة، والصلاة التي يؤدونها تعمل عملها في نفوسهم!

في هذا الدّور لم تُعرض عليهم قصص الأنبياء وجهادهم مع أقوامهم بصورة تفصيليّة، ولكن وردت إشارة إلى صحف إبراهيم وموسى في «سورة الأعلى»:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤَوتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٩].

وفي «سورة الشمس» ورد ذكر ثمود بدون ذكر اسم النبي الذي أرسل إليهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَنِهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١-١٥].

هذه الإشارة السريعة جعلت نفوس المؤمنين تتطلع إلى معرفة المزيد عن هؤلاء الأقوام وموقفهم من أنبيائهم.

والقرآن كتاب تربية وتعليم وإعداد للنفوس للأيام القادمة؛ لذلك فرض الله تعالى على نبيه، وعلى الجماعة المؤمنة معه قيام الليل: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ ﴿١﴾ فُرُ الَّتِلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نَصَفَهُ؛ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَبَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل: ١-٥]، ثم بيّن الغرض من هذا القيام، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾﴾ [المزمل: ٥].

من أجل القول الثقيل، من أجل الدعوة إلى الله، من أجل القرآن العظيم؛ فرض الله تعالى عليهم قيام الليل.

ولما دعت خديجةُ النبي ﷺ إلى أن يطمئن وينام قال لها:

- «مضى عهد النوم يا خديجة!»

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٦].

لأنَّ للذكر فيها حلاوته، وللصلاة فيها خشوعها، وللمناجاة فيها شفائيتها، وإنَّها لتكسب في القلب أنساً وراحة ونوراً قد لا يجدها المؤمن في صلاة النهار وذكره<sup>(١)</sup>.

ولا بد أن يكون قد نزل من السُّور ما يكفي لقراءته لمدة أربع أو خمس ساعات؛ ولكن بترتيل وتدبُّر وتمهُّل، ولعلَّ منها: «سورة الفجر»، و«الغاشية»، و«الدهر»، و«الانفطار».

ولعلَّ هذا كان في نهاية السنة الثانية للبعثة.

(١) "في ظلال القرآن" الجزء التاسع والعشرون (ص ١٧٧).

وقد أسلم مُصعب بن عمير العبدي؛ وكان فتى مكة شاباً  
وجملاً<sup>(١)</sup> ونهاً.



(١) "الاستيعاب" (٣/٤٦٨).



(٤)

ما جرّبنا عليك كذبًا

«إِنِّي نَذِيرٌ كَم بَيْن يَدَي عَذَابٍ شَدِيدٍ»

## ١- إنك رسول الله حقًا:

لا يمسح الإسلام على رأس الرجل ثم يتركه ويقول: اذهب فقد صرت مسلمًا، ولا يغمسه في ماء المعمودية كما يفعل الصابئة والنصارى؛ لا.

إنه يضع في نفس الإنسان بذرة الحياة النامية، ثم يسهر عليها بالرعاية والتربية والتهديب حتى تنمو وتنمو، وتضرب جذورها الراسخة في القلب، وتنتشر فروعها وأغصانها في الجسم، ثم تؤتي ثمارها كاملة ناضجة شهية!! إنه يبني كيان الإنسان من جديد، إنه يبينه من الداخل، ويصبر عليه، ويترىث معه حتى ينهض قويًا ممتلئًا حيًا مسلمًا في جميع حركاته وسكناته.

عام كامل مرّ على الجماعة المؤمنة وهي تقوم الليل، والنبي ﷺ يربّيهم ويعلمهم ويصقل نفوسهم؛ وقد شفت نفوسهم إلى درجة أنهم كانوا يأكلون الطعام مع النبي ﷺ وهم يسمعون تسييح الطعام<sup>(١)</sup>.

وعلى الرغم من سرّية الدعوة فقد شعرت قريش بها، ولكنها لم تُعرها كبير أهمية، وظنّت أنها دعوة صغيرة لا تلبث أن تذهب كغيرها من الدعوات، وتضاحك أصحاب الترف وسخروا.

لكنّ أمّ جميل، أروى بنت حرب؛ أخت أبي سفيان لم تسكت؛ امتلأ قلبها حقدًا وبُغضًا للنبي ﷺ؛ لعلّها أرادت أن تكون النبوة لزوجها أبي لهب، أو لأخيها سيد قريش أبي سفيان؛ فصارت تحثُّ أبا لهب على بغض ابن أخيه محمّد، وكان الشقيّ طوّعَ يدها ورهن

(١) "سنن الترمذي" (٥/٥٩٧/٥) حديث رقم (٣٦٣٣)، حسن صحيح.

إشارتها، لا يخالفها في كلمة.

في الليل كان النبي ﷺ يصلي ركعتين ركعتين . . إلى ما بعد منتصف الليل، وفي النهار يتحرك في مكة لعله يجد من يتوسم فيه الخير فيدعوه إلى الله، وكان يقضي بعض وقته في بيت الأرقم فيلقى أصحابه، يلقي عليهم ما نزل عليه من القرآن، ثم يأمرهم بتبليغه إلى إخوانهم.

وراحت «سورة المزمّل» تصف حال النبي ﷺ: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَأَذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأَهْرُجْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾ [المزمّل: ٧-١١].

ثم خفف الله تعالى عن نبيه وعن المؤمنين قيام الليل، وذلك بعد عام كامل:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَافَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَنَّابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمّل: ٢٠].

ثم بشرهم وهم في تلك الحالة من السرية والكتمان والاستخفاء بأن الأمر سيتحوّل إلى أحسن حال، وأنهم سيضربون في الأرض طلباً للرزق، وسيجاهدون في سبيل الله ويقاتلون الكفار: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُؤٌ وَعَاخِرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَعَاخِرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمّل: ٢٠].

وقد تعود النبي ﷺ على الوحي؛ فصار لا يصبر عنه، وصار يجد في اللقاء به الراحة والطمأنينة، بل يستمدّ القوة والعزيمة على المضي

في الطريق!!

ولكنّ الوحي انقطع فجأة!!

فارتاع النبي ﷺ؛ قلقَ، ووصل الخبر إلى أمّ جميل، امرأة أبي لهب، ففرحت، وصارت إذا مرَّ بها تقول له شامتةً:

- يا محمّد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك<sup>(١)</sup>.

واغتمّ النبي ﷺ غمًّا عظيمًا، وظهر ذلك عليه حتى تحدّث به المشركون في مجالسهم، فقالوا:

- ودّع محمّدًا ربّه<sup>(٢)</sup>!

واشدّد حزن النبي ﷺ بعد أن أنس إلى الوحي وارتاح له، وشعر بالراحة كل الراحة بقربه ومناجاته...

ولم تنقطع أقوال المشركين، وربما ضحكوا وسخروا، والنبي ﷺ يسمع، أو تصله أقوالهم:

- ودّعه ربّه، وقلاه<sup>(٣)</sup>.

حتى كان ذات يوم والنبي ﷺ خارج مكّة بالأبطح:

- «بينما أنا أمشي سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري فإذا المَلَك الذي جاءني بحِراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، ففرقت منه»<sup>(٤)</sup>.

(١) "تفسير ابن كثير" (٥٢٢/٤) وقال: «رواه البخاري ومسلم والترمذي».

(٢) "في ظلال القرآن" المجلد الثامن (١٨٤/٣٠).

(٣) "تفسير ابن كثير" (١٨٥/٤).

(٤) "البخاري" (٢١٩/٦) وفي رواية: «فجُثِّثُ منه حتى هَوَيْت إلى الأرض» =

## ٢- ما جرّبنا عليك كذبًا:

رأى النبي ﷺ جبريل في صورته التي خلقه الله عليها، قد سدَّ عظيم خلقه الأفق، فاقرب منه وأوحى إليه عن الله ﷻ<sup>(١)</sup>:

﴿وَالصُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾

[الضحى: ١-٣] إلى آخر السورة.

رجع النبي ﷺ إلى أهله، فصبوا عليه ماءً، ودثروه<sup>(٢)</sup>، فلمَّا ذهب ما به وارتاح نزلت الآيات الأولى من «سورة المدثر»: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾ فُرُّ فَأَنْذِرُ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ ﴿٣﴾ وَتَبَّابَكَ فَطَهِّرُ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُ ﴿٥﴾﴾ [المدثر: ١-٥].

وقد بدأ الخطاب للنبي ﷺ بصيغة فيها الكثير من الرقة والرحمة والحنان: ﴿يَأْتِيهَا الْمَدَّثِرُ ﴿١﴾﴾ [المدثر: ١].

ورؤية النبي ﷺ لجبريل على الصورة التي خلقه الله عليها لكي يعلم عظمة القوة التي تقف وراءه، وعظمة المَلَك الذي جاءه بالرسالة، وجلالة قدره، وعلو مكانته عند خالقه الذي بعثه إليه!!<sup>(٣)</sup> فيندفع للأمر العظيم الذي كُلف به بلا خوف ولا تردُّد لأنَّ جنديًا واحدًا من جند الله، ملكًا واحدًا يستطيع بضربة واحدة من يده أن يسحق مدينة كافرة بكاملها!!

= "البخاري" (٢٠٢/٦) و"مسلم" (٢٠٦/٣).

(١) "تفسير ابن كثير" (ص٢٤٨) تفسير «سورة النجم»، وانظر: (ص٥٢٢) تفسير «سورة الضحى».

(٢) "صحيح مسلم" (٢٠٨/٢)، وانظر: "تفسير ابن كثير" (٤/٤٤٠) وفيه: «فدثروني وصبوا عليّ ماءً باردًا» تفسير «سورة المدثر».

(٣) "تفسير ابن كثير" (٤/٢٤٨).

و«سورة الضحى» برقّتها المتناهية وشفافيتها، والحنان البالغ الذي تضمّنته مسحت عن قلب النبي جميع الهموم، جميع الآلام التي عاناها في فترة انقطاع الوحي!!

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]؛ لا، إِنَّ رَبَّكَ لَم يَفْعَلْ  
 ذلك، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥]؛ فالعطاء  
 مستمر من عند الله، والكرم متواصل بدون انقطاع من يوم ولدت،  
 إلى الآن، وإلى الأبد: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوَىٰ﴾ [٦] وَوَجَدَكَ ضَالًّا  
 فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦-٨].

بلى، بلى، بلى؛ لقد كانت رعاية الله دائمة مستمرة؛ أنشأه أحسن  
 نشأة، وحفظه وحاطه أحسن إحاطة، وأكرمه بالزوجة الصالحة  
 المباركة والذرية والمال الكثير، فكان محظوظًا في التجارة ﷺ إلى  
 آخر حدّ، لذلك كان يحمل الكلّ، ويقرّي الضيف، وينفق على الفقراء  
 والمساكين؛ كما وصفه أبو طالب:

يَلُودُ بِهِ الْهَلَّاكُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ فَهُمْ عِنْدَهُ فِي نِعْمَةٍ وَفَوَاضِلٍ  
 لم يكن رسول الله ﷺ يلبس المرقع ولا الممزق، ولا الرديء من  
 الثياب؛ بل كان ﷺ يرتدي أحسن الثياب في أحسن هيئة بلا إسراف  
 ولا تجاوز!!

نهض النبي ﷺ منقذًا لأمر ربّه؛ فصعد على الصفا<sup>(١)</sup>، وجعل  
 ينادي على بطون قريش:

- يا بني فهر، يا بني عدي...

(١) يبدو أن الصفا كان تلاً مرتفعًا.

حتى اجتمعوا، فجعل الذي لم يستطع أن يخرج يُرسل رسولاً،  
حتى إذا اجتمعوا قال:

- رأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تُريد أن تُغير عليكم، أكنتم  
مُصدّقِيّ؟

قالوا:

- ما جرّبنا عليك كذباً.

قال:

- فإنّي نذيركم بين يدي عذاب شديد!!

فقال أبو لهب:

- تبّاً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا!!<sup>(١)</sup>

### ٣- القريب البعيد:

لعلّ الذي قطع على الناس فُرصة السؤال عن العذاب الذي  
أنذره إياه النبي ﷺ = قول أبي لهب أقرب الناس إليه، عمّه: تبّاً  
لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟

لو صدر هذا الكلام من آحاد الناس، من أيّ رجل من قريش عدا  
هذا القريب البعيد، الشقي البليد = لكان له باب وجواب كما يُقال!!  
أما أن يصدر من أقرب الناس، من أخي أبيه، فهنا البلاء الأكبر  
والطامة التي ما بعدها طامة!! لذلك انفضّ الناس دون أن يسألوا النبي

(١) "فقه السيرة" للغزالي (ص ١٠١)، قال الشيخ الألباني: «حديث صحيح  
أخرجه البخاري (٨/٤٠٠ - ٤٠٨، ٥٠٩ - ٥١٠)، ومسلم (١/١٣٤)».



ﷺ، أو يستفسروا عما يُريد أن يقوله لهم، وكان وَقُعُ كلام الشقيِّ على نفس النبي ﷺ كالصاعقة!! لذلك جاء الرد قويًّا ومناسبًا أشدَّ المناسبة، وصفعة قاضية لا يرفع بعدها رأسًا، ألقته في نار جهنم إلى أبد الأبدين مع زوجته العوراء التي كانت تدفعه وتحمله على بُغض النبي ﷺ ومعاداته بلا هوادة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد: ١]: دعاءً عليه بالخسران، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾﴾ [المسد: ٢]: وإخبار عنه بأنه خسر وانتهى، ﴿سَيَصِلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾﴾ [المسد: ٣]: فلا أمل في هدايته أبدًا!! ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾﴾ [المسد: ٤]: هذه المرأة الدنيَّة العصيَّة الشقيَّة، ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾﴾ [المسد: ٥]: التي تدفعه إلى الشرِّ ستحمل الحطب بيديها وتلقيه عليه ليزداد عذابًا فوق العذاب في نار جهنم؛ والجزاء من جنس العمل!! ويا له من جزاء!؟

هكذا بدأ الإعلان عن دعوة الإسلام بعد ثلاث سنين بكاملها قضاها النبي ﷺ في تربية أصحابه وإعدادهم ليكونوا على أهبة الاستعداد لمواجهة قريش بأصنامها الحيَّة والميِّتة!! إنَّها المواجهة بالكلام لا بالحسام! وإن كان القرآن قد وعدهم بالقتال في سبيل الله<sup>(١)</sup>، ولكن ليس الآن.

لم تكن هذه المواجهة، والكلمة التي فاه بها أبو لهب لِتُفْلَ من عزمته، أو تحُدَّ من حماسه واندفاعه؛ لقد كان جريئًا في الحقِّ غاية الجراءة، لا يخشى أحدًا من النَّاس، وكيف يخشى وقد رأى بعينه

(١) في «سورة المزمل»: ﴿وَأَخْرُونَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

القوة الهائلة التي تقف وراءه! وقد نزلت الضربة القاضية أول ما نزلت على رأس أبي لهب، الرجل الشقي الذي كان المفروض أن يكون أول من يقف إلى جانبه ويدافع عنه.

وكان يسعه أن يسكت كما سكت حمزة والعبّاس أول مرة! ولكنه كان مطيةً لزوجته الشرسة: أروى بنت حرب، حمالة الحطب!!  
في هذه المدّة زوج النبي ﷺ مُتَبَنَاهُ زيد بن حارثة أمّ أيمن؛ بركة الحبشية، وكانت في الخمسين من عمرها تقريباً.

#### ٤- حمالة الحطب:

بيت من الشعر واحد إذا قيل في مدح قوم يرفعهم ويجعلهم موضع احترام العرب وتقديرهم! وبيت واحد إذا قيل في هجاء قوم يجعلهم موضع سخريّة وتندّر عندهم!!

نزلت «سورة اللهب» على رأس العوراء<sup>(١)</sup> أمّ جميل نزول الصاعقة! أفقدتها صوابها، جعلتها تحمل حجراً وتدور في الأسواق تبحث عن النبي ﷺ لتضربه به حتى إذا جاءت إلى المسجد، وكان جالساً إلى جنب أبي بكر لم تره!! فقالت له:

- يا أبا بكر، هجانا صاحبك!

فقال أبو بكر:

- لا؛ وربّ هذه البنية (يشير إلى الكعبة) ما ينطق بالشعر ولا

(١) "تفسير ابن كثير" (٤/٥٦٤) في حديث رواه ابن أبي حاتم، عن أسماء بنت أبي بكر، ولا أعرف سبب تسميتها بالعوراء.

يتفوّه به.

فقالت:

- إنك لمصدّق.

انظر إلى حسن التخلّص؛ لم ينفِ نزول السورة بحقّها وحقّ زوجها، ولكنّه قال: ما ينطق بالشعر ولا يتفوّه به؛ نعم، ولكنّه ينطق بالقرآن الذي هو من عند الله تبارك وتعالى.

وذهبت المرأة القبيحة السليطة إلى زوجها، فأمرته أن يفسخ خطبة ابنه عتبة، وكانت قد خطبت رقية بنت رسول الله ﷺ لابنه عتبة، فأمر بفسخ الخطبة ففعل، فتزوّجها عثمان بن عفان، وكذلك فعل عتبية؛ فسخ خطبة أمّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ.

كانت رقية كأنّها حوريّة نزلت من الجنّة، وكان عثمان جميلًا جدًّا.

وتزوّج العاص بن الربيع العبشمي؛ ابن هالة بنت خويلد أخت خديجة بنت خويلد، تزوّج زينت بنت النبي ﷺ؛ كان يقال له: الأمين، ويلقّب جرو البطحاء<sup>(١)</sup>.

وكان قد ولد للنبي ﷺ ولد، أسماه عبد الله ولقّبه بالطاهر، والطيب لأنّه ولد في الإسلام بعد البعثة، ولكنه لم يلبث أن توفي وهو صغير، وكان آخر من ولد لخديجة بنت خويلد ﷺ.

في هذه المدة أسلمت لُبابة بنت الحارثة بن حزن الهلالية<sup>(٢)</sup>؛

(١) "الإصابة" (٤/١٢١/ تسلسل ٦٩٢).

(٢) "الاستيعاب" (٤/٣٩٨).

زوج العباس بن عبد المطلب، وهي تسمى: لُبابة الكبرى، أمًا لُبابة الصغرى فهي أمُّ خالد بن الوليد، وهي أختها.

### ٥- قادم من حضرموت:

أحدثت الصيحة التي أطلقها النبي ﷺ على جبل الصفا أثرها في المجتمع المكي، وراح الناس الذين لم تبلغهم دعوته يتساءلون:

- ماذا أراد محمّد أن يقول؟

- ما العذاب الشديد الذي أنذرنا به محمّد؟

- متى، وأين؟!

سمع الخبر شاب طويل أسمر، آدم، طويل شعر الرأس، واسع العينين، مقرون الحاجبين، هو المقداد بن الأسود الكندي؛ ولم يكن ابن الأسود الكندي حقيقة، بل كان ابن عمرو بن ثعلبة الحضرمي، وكان أبوه قد أصاب دمًا في قومه<sup>(١)</sup>، فهرب إلى حضرموت وتزوج هناك، فولد له المقداد، فلمّا شبّ وقع بينه وبين أبي شمر بن حجر الكندي خلاف، فضرب المقداد رجل أبي شمر بالسيف ثم هرب إلى مكّة، فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري، فتبنّاه لِمَا رأى من أخلاقه وحسن سيرته؛ فصار يُدعى: المقداد بن الأسود، وكتب المقداد إلى أبيه، فقدم إلى مكّة، ولكن اسم الأسود غلب على اسم أبيه؛ ربما حتّاه أبوه على الهرب من حضرموت، فلمّا اطمأنّ المقداد في مكّة لحق به.

(١) قتل رجلاً. "الإصابة" (٣/٤٥٤) تسلسل (٨١٨٣)، و"الاستيعاب" (٣/٤٧٢).

جاء المقداد إلى النبي ﷺ فسمع منه، وأسلم وأظهر إسلامه.

وكان أول من أظهر الإسلام رسول الله ﷺ وذلك عندما أعلن دعوته من فوق الصفا، ثم أبو بكر الصديق، وعمّار بن ياسر، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، وخبّاب بن الأرت، وسُميَّة بنت خياط؛ أم عمّار...

ولحق بالركب المبارك: مالك بن زمعة؛ أخو سودة بنت زمعة، ومعمر بن عبد الله بن نضلة القرشي العدوي، وكان شيخًا من شيوخ بني عدي، وأسلم أبو الروم بن عمير؛ أخو مصعب بن عمير لأبيه، وكانت أمه أمة روميّة<sup>(١)</sup>، وعدي بن نضلة.

وسخر أصحاب الثروة والسلطة والجاه من القلّة التي آمنت، لا سيما التي أعلنت إسلامها، وصاروا ينالون منها بالهمز واللمز والإشارة بالعين واليد، وبالكلام البذيء، فنزل القرآن يردّ عليهم بسياط من نار: ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ هُمْزٍ لُحْمَةً ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾﴾ [الهمزة: ١ - ٣]؛ أين مصيره إذن؟ ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾﴾ [الهمزة: ٤ - ٥]؛ ما هي الحطمة؟ وماذا تحطم؟

﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْجِدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾﴾ [الهمزة: ٦ - ٩]؛ هذا هو المصير التعيس الذي ينتظر كل همّاز لَمَّاز، ساخر من الذين آمنوا.

كان القرآن مع النبي ﷺ خطوة خطوة، هو الذي يردّ، وهو الذي

(١) "الاستيعاب" (٤/١٦٧).

يُحاجج، وهو الذي يتوَعَد ويُنذر ويهدِّد!! والمؤمنون يشعرون بهذه القوة العظيمة التي تسندهم، وتدافع عنهم وتسدُّ خُطاهم .

إنَّهم الحواريون حقًّا، أصحاب محمَّد ﷺ.

كان عبد الله بن مسعود بن غافل غلامًا صغيرًا لم يتجاوز الثامنة من عمره، وكان قصيرًا نحيفًا جدًّا، مرَّ به النبي ﷺ وهو يرعى غنمًا لعقبة بن أبي مُعيط؛ فقال له:

- يا غلام، هل من لبن؟

فقال:

- نعم، ولكنني مؤتمن.

فقال النبي ﷺ:

- فهل من شاةٍ حائل<sup>(١)</sup> لم ينزَّ عليها الفحل؟

فجاءه بشاة، فمسح النبي ﷺ صرْعها، فنزل لبن!! فحلب في إناء وشرب وسقى أبا بكر، ثم قال للصرع:

- اقلص.

فقلص الصرْع وعاد كما كان!

تركت هذه الحادثة أثرًا في نفس الصغير، فأسرع إلى النبي ﷺ بعد أن أعاد الغنم، وقال:

- يا رسول الله، علّمني من هذا القول!

(١) ليست حاملًا.

فمسح النبي ﷺ رأسه وقال:

- يرحمك الله؛ فإنك غليم معلّم<sup>(١)</sup>.

هذا الغلام الراعي الصغير لم يكن صغيرًا عندما أسلم، كان أكبر بكثير من أولئك الذين يتشدّقون بالذكاء والعلم والمعرفة!! إنه أكبر منهم جميعًا لأنه أدرك الإسلام من أوّل لحظة، وآمن به!

أقبل إلى الإسلام أيضًا رجل أعمى؛ ابن خال خديجة بنت خويلد: عبد الله بن أم مكتوم؛ وأمّ مكتوم اسمها عاتكة، وأبوه اسمه زائدة بن الأصم<sup>(٢)</sup>؛ فهو: عبد الله بن زائدة، وأسلمت لبيبة جارية بني المؤمل، والنهدية وابنتها.

#### ٦- القائد المغرور:

عزم أبرهة الحبشي على هدم الكعبة!! لماذا لا يحجّ العرب إلى كنيسته التي بناها في اليمن، والتي أنفق عليها الأموال الطائلة وزينها وزخرفها؟! فجّهز جيشًا كبيرًا زحف به نحو مكة.

تقدّم الجيش الأسود وقد ألقى الخوف والرعب في النفوس!!

وتصدّت له مقاومات صغيرة من بعض القبائل فشتتها!! حتى إذا وصل إلى مشارف مكة لاذت قريش برؤوس الجبال، وتركت بيتها الذي تعترّ به للجيش الغازي!! ووقف عبد المطلب مع عدد من رجالات قريش يرفعون أكفّ الضراعة إلى الله، وهو يقول:

(١) "الاستيعاب" (٣١٧/٢). أم عبد الله اسمها: أم عبد.

(٢) نفس المصدر (٢٥٩/٢).

لَاهُمْ إِنَّ الْعَبْدَ يَمْنَعُ رِخْلَهُ؛ فَا مَنَعَ رِحَالِكَ  
لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ وَمِحَالُهُمْ أَبَدًا مِحَالِكَ  
إِنْ كُنْتَ تَارِكَهُمْ وَقَبَلْتَنَا فَأَمْرًا مَا بَدَا لَكَ

وفي اليوم التالي زحف الدود الأسود نحو الكعبة، فماذا حدث؟! لا، لم يقف العرب في وجهه؛ لقد كانوا أضعف من أن يقفوا في وجه جيش منظم قوي عنيد!! ماذا حدث إذن؟

أرسل الله جنداً من جنده، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤]؛ أرسل طيراً أبابيل سدّت الأفق، ألقت على الجيش حجارة من سجيل، فجعلته كعصف مأكول، جعلته جُثًا هامدةً مُبعثرة، وهرب الفيل، وصاحب الفيل، وجيش الفيل، ورفع الحادث مكانة قريش عند العرب، وقالوا:

- لقد دافع الله عنهم.

وصاروا أينما ذهبوا يقابلون بالترحيب والاحترام؛ فتجارتهم آمنة أينما ذهبت، وقوافلهم محروسة مصونة لا تمتد إليها يد، وبلدهم قبلة العرب كلهم في كل مكان.

وأنزل تبارك وتعالى على لسان رسوله الكريم يذكّرهم هذه النعمة العظيمة التي حباهم إيّاها:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ١ - ٥].



ألا يستحقُّ هذا الربُّ العظيم الذي فعل كلَّ هذا أن يُعبد وحده دون سواه؟! ما الذي استطاعت آلهتهم أن تفعل عندما وقف الجيش الأسود على بُعد خطوات من مكّة؟! ماذا.. ماذا؟

لقد لجأ العرب آنذاك إلى الله وحده، لا إلى الأصنام لأنهم أيقنوا أنّها لا تستطيع عمل شيء..

عندما قابل عبد المطلب أبرهة الحبشي لم يقل له: إنّ للبيت أصنامًا تدافع عنه وتحميه، لا؛ إنما قال له:

- إنّ للبيت ربًّا سيمنعه.

وبعد أقل من شهرين، بعد خمسين يومًا فقط ولد النبي ﷺ؛ لقد كان النصر لهذا المولود العظيم الذي اختاره الربُّ رحمةً للعالمين!!

ثم نزلت «سورة قريش»: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكَ قُرَيْشٌ ۖ﴾ ﴿١﴾ ﴿إِلَيْهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۖ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ﴾ ﴿٢﴾ ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ﴿٤﴾ [قريش: ١-٤].

بفضل الله وحده اكتسبت قريش هذه المكانة، وبفضله وحده احتلت هذا المركز في قلوب العرب؛ فصار العرب يحجّون إلى مكّة من كل مكان، وصار الخير والتجارة والمال والطعام يتدفّق عليهم؛ فهم آمنون والناس من حولهم في خوف، وهم طاعمون والناس من حولهم يقتلهم الجوع!!

فليعبدوا ربَّ هذا البيت، ولا يشركوا به شيئًا، إنه يطلب إليهم هذا، فهل من مجيب؟! ولكن الأصنام الحيّة من أهل الثراء والمال

والتجارة أصرت على عنادها، وظنت أن محمداً يريد أن يُزعزع مكانة مكة في نفوس العرب، وفي ذلك زعزعة لمكانتها، وضربة لتجاريتها، وقلة لمواردها؛ فعليها أن تتمسك بأصنامها الميتة أكثر من ذي قبل قبل أن يُفلت الزمام من يدها!!

### ٧ - أجهل الناس:

للمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم القرشي المخزومي ثلاثة أولاد ذكور؛ هشام، وعمرو، والوليد، ولهشام خمسة أولاد؛ سلمة، والهارث، والعاصي، وخالد، وعمرو، وله بنت هي حنتمة بنت هشام؛ أم عمر بن الخطاب. وعمرو بن هشام هو الذي يُكنى بأبي الحكم، وقد ركب الغرور والطيش والسّفه حتى أعماه عن رؤية الحق؛ بل رأى الحق وعرفه ولكنّه حاد عنه وانحرف، وأصرّ على طيشه وانحرافه؛ حسداً أو بغضاً للنبي ﷺ؛ ربما كان يُريد النبوة لنفسه، أو في عائلته، أو في بني مخزوم!!

كان هذا المغرور قد نهى النبي ﷺ عن أن يصلي في المقام، فجاء رسول الله ﷺ هناك، فأقبل أبو جهل<sup>(١)</sup> فقال:

- ألم أنهك عن هذا؟

فنهض إليه النبي ﷺ، وأمسك به بقوة وأخذ بمجامع ثيابه، وقال له:

- أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى.

فقال أبو جهل:

(١) أطلقه عليه المسلمون فعرف به أبد الدهر.

- أَتَوَعَّدُنِي<sup>(١)</sup> يَا مُحَمَّدٌ؟! وَاللَّهِ لَا تَسْتَطِيعُ أَنْتَ وَلَا رَبُّكَ شَيْئًا،  
وَإِنِّي لِأَعَزُّ مَنْ بَيْنَ جَبَلَيْهَا<sup>(٢)</sup>.

فأنزل الله تعالى في حقه بقية «سورة العلق»: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي  
بَنَى ۙ ٩ عِدَا إِذَا صَلَّى ۙ ١٠ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ۙ ١١ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوَىٰ ۙ ١٢  
أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۙ ١٣ أَلَمْ يَعْلَمِ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۙ ١٤ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ  
١٥ نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۙ ١٦ فليدع ناديه ۙ ١٧ سَدِّعُ الزَّيْنَبِيَّةَ ۙ ١٨ كَلَّا لَا نُطِيعُ  
وَأَسْجُدُ وَأَقْرَبُ ۙ ١٩﴾ [العلق: ٩-١٩].

هذا الرجل الثاني بعد أبي لهب الذي كُتِبَ عليه ألا يؤمنَ أبدًا؛  
إنَّ ناصيةَ هذا الرجل التَّعَسُّ لست مخطئة، لكنَّها خاطئة؛ إنَّها مستمرة  
في خطئها حتى تردَّ النَّارُ، ويا له من مصير!!

كان ما ينزل من القرآن يُكتب أولًا، ثم يُبلِّغ إلى الجماعة المؤمنة  
من رجل إلى رجل، إلى امرأة، إلى غلام، ويقروه النبي ﷺ بلا تردُّد  
ولا تهيُّب، ولا خوف ولا وَجَلَّ على المشركين من قريش.

## ٨- القويُّ الأمين:

أسلم عبيدالله بن جحش؛ أحد الأربعة الذين فارقوا دين قومهم  
قبل البعثة؛ ورقة بن نوفل، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن  
نُفيل، وعبيدالله بن جحش.

وبهذا يكون الإخوة الثلاثة قد أسلموا: عبد الله، وعبيدالله،  
وعبد؛ أبو أحمد الضرير، وأسلمت أختهم زينب بنت جحش<sup>(٣)</sup>؛

(١) أتهدُّني. ابن كثير (٤/٤٥٢).

(٢) "تفسير ابن كثير" (٤/٤٥٢) والبقية من تفسير «سورة العلق» (ص ٥٣٩).

(٣) من أمهات المؤمنين بعد ذلك.

أمهم: أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ.

ومع عبيدالله بن جحش أسلمت زوجته رملة بنت أبي سفيان!

كان النبي ﷺ عندما ينزل عليه الوحي يقرأ معه بسرعة لكي لا تفوته كلمة، أو: يخشى أن تفوته كلمة، وكان يعاني من ذلك؛ فأنزل الله تعالى عليه في «سورة القيامة»: ﴿لَا تُحْرَكُ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) ﴿إِذَا قَرَأَهُ فَأَنعِقُوا لِغَدَاةٍ لَهُ نَبَأٌ خَلِيقَةٍ﴾ (١٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (١٩) [القيامة: ١٦-١٩].

فكان بعد ذلك إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله ﷻ (١): ﴿سُنُقِرُكَ فَلَ تَسَى﴾ (٦) [الأعلى: ٦].

ثم أنزل في حق السفية المغرور، أجهل الناس أبي جهل: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ (٣١) ﴿وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ (٣٢) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ (٣٣) ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ (٣٤) ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ (٣٥) ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٣٦) ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّيِّ يَمِينٍ﴾ (٣٧) ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ (٣٨) ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الْزَوْجَيْنِ الْأُنثَىٰ وَالْأُنثَىٰ﴾ (٣٩) ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ (٤٠) [القيامة: ٣١-٤٠].

بلى، بلى، بلى؛ إنه على كل شيء قدير.

التحق بقافلة الأبرار: عبد الله بن حذافة القرشي السهمي؛ وكان شاباً طويلاً جميلاً شجاعاً، وكانت فيه دعاية لم تُفارقه في جاهلية ولا إسلام، وأسلم سلمة بن هشام؛ أخو الكافر الجاهل المغرور أبي جهل

(١) ابن كثير (٤/٤٤٩) تفسير «سورة القيامة»، واللفظ للبخاري.

(٢) نفس الكلمة التي قالها النبي ﷺ لأبي جهل.

(٣) هذه الحقيقة العلمية لم يكشفها علم الأجنة إلا في نهاية القرن التاسع عشر!

ابن هشام.

هنا تملمت قريش؛ رأت أن صيحة محمد ﷺ ليست كالصيحات الخفيفة المريضة السابقة؛ إنها صيحة قوية، صارخة مفزعة مستمرة!! إنه يقف في المجامع ويتلو عليهم كلامًا يقول إنه من عند الله، وإنه يوحى إليه بوساطة ملك قوي شديد؛ بلغ من عظمته وكبره أنه سدّ ما بين الأرض والسماء!! فانقسم المشركون بين مصدّق لا يريد أن يُصدّق، ومعاند أعماه عناده عن رؤية الحق، ومُبغض، وسفيه، وجاهل، وأنكروا رؤيته لجبريل، وأنكروا أن الله تعالى يوحى إليه، وتمسّكوا بما ورثوه عن آبائهم، وقالوا:

- إنَّ محمدًا مجنون!

وقالوا:

- إنَّ الذي يكلمه إنما هو شيطان!

ونزل القرآن يردُّ عليهم<sup>(١)</sup>، ويسدُّ في وجوههم أبواب الباطل:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۖ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ۗ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ١٧-٢٩].

هذا هو الملك الذي يوحى إلى رسول الله ﷺ؛ ملك كريم، قوي، مكين عند ربّ السموات والأرض، مطاع هناك في الملاء

(١) "في ظلال القرآن" للشهيد سيد قطب (٦٨/٣٠).

الأعلى، وأخيرًا: فإنه أمين على كل كلمة؛ لا يزيد عليها ولا ينقص منها، وصاحبكم محمد تعرفونه جيدًا؛ أكرم الناس، وأصدق الناس، وأعف الناس، وأرحم الناس بكم، إنه الصادق الأمين.

### ٩- القبيح التبعيس:

اشترت أم أنمار الخزاعية خباب بن الأرت التميمي، وكان قينًا حدادًا يعمل السيوف الجيدة ويبيعها، استمر خباب بعد أن أسلم في مهنته، فجاء العاص بن وائل؛ أبو عمرو بن العاص، فطلب إليه أن يصنع له سيفًا، ثم أخذه ولم يعطه ثمنه، وكان رجلًا شرسًا بخيلًا يحب الاعتداء على أموال الناس<sup>(١)</sup>، وكان إذا جاءه أحد من المؤمنين يطالبه بدين قال:

- أستم تزعمون أن في الجنة ذهبًا وفضة، وحريرًا، ومن كل الثمرات؟

قالوا:

- بلى..

قال:

- فإن موعدكم الآخرة؛ فوالله لأوتينن مالا وولدا، ولأوتين مثل كتابكم الذي جئتم به!<sup>(٢)</sup>

ذهب خباب إلى الرجل القبيح، وطالبه بثمان السيف، فقال:

(١) هو الذي اعتدى على مال الزبيدي، وبسببه قام حلف الفضول.

(٢) "تفسير ابن كثير" (٣/١٣٥، ١٣٦).

- لن أقضيك حتى تكفر بمحمد.

فقال خباب:

- لا، والله لا أكفر بمحمد ﷺ حتى تموت ثم تبعث.

قال ساحرًا:

- فإني إذا مت ثم بعثت جئتني ولي ثم مال وولد فأعطيتك<sup>(١)</sup>.

فذكر خباب ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى ردًا على الساحر الفاجر المتعجرف من «سورة مريم»: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٧٧) ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (٧٨) ﴿كَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ (٧٩) ﴿وَنَرِيَّهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ (٨٠) [مريم: ٧٧-٨٠].

هذا الرجل الثالث الذي كُتبت عليه الشقاوة مقدّمًا، والذي عرف مقعده من النار، وهذه آية ظاهرة بيّنة لمن كان له قلب؛ وإلا فمن أين يدري محمد ﷺ أن هؤلاء الثلاثة سيموتون على الكفر ولا يؤمنون؟! إنه القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه الله

الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور!

في هذه المدة ولد أسامة بن زيد بن حارثة، فهو أخو أيمن لأمه بركة الحبشية، وفي هذه المدة أسلم: أبو موسى الأشعري (عبد الله ابن قيس)، وعتبة بن غزوان، وعتبة بن مسعود؛ أخو عبد الله بن مسعود.

(١) انظر: "مختصر صحيح مسلم" للمنذري (ص ٥٧١) حديث (رقم ٢١٥٠).

١٠- أفضل الدين:

رغب عمرو بن عَبَسَةَ عن عبادة الأصنام؛ رأى أنها آلهة باطلة لا تضرُّ ولا تنفع؛ فذهب يسأل عن أفضل الدين، فلقي رجلاً من أهل الكتاب فسأله عن أفضل الدين:

قال الرجل:

- يخرج رجل من مكَّة يرغب عن آلهة قومه، ويدعو إلى غيرها، وهو يأتي بأفضل الدين؛ فإذا سمعت به فاتبعه.

لبث عمرو بن عَبَسَةَ مدَّة يخرج إلى الطريق الذي يمر به الركبان القادمون من مكَّة، فيسأل:

- هل حدث في مكَّة حدث؟

فيقولون:

- لا.

بقي عمرو بن عَبَسَةَ متلهِّفًا، لا همَّ له إلا مكَّة، يخرج إلى طريق القوافل القادمة من مكَّة، والطريق ليس بعيدًا عن منزله، فيسأل:

- هل حدث في مكَّة حدث؟

وفي يوم، وبينما كان قاعدًا على الطريق مرَّ به راكب، فسأله:

- من أين أنت؟

فقال:



- من مكّة.

فسأله:

- هل فيها خير؟

قال:

- نعم؛ رجل رغب عن آلهة قومه ثم دعا إلى غيرها.

فقال وقد هزّه الفرح:

- صاحبي الذي أريد!

المسافة من بني سليم إلى مكّة قد لا يقطعها راكب الناقة في أقلّ

من عشرين يومًا<sup>(١)</sup>، ولكنّ الذي يريد الحق لا يقف في طريقه شيء!

انطلق عمرو بن عبّسة نحو مكّة - وهو البدوي الخبير بطرق

الصحراء - حتى وصل إليها، ونزل في المكان الذي كان ينزل كلما

جاء إلى مكّة، فسأل عن النبي ﷺ، فوجده مستخفيًا، ووجد قومه

جُراء عليه، فتلطف حتى استطاع الوصول إليه؛ قال عمرو بن عبّسة

السلمي:

- فقلت له:

ما أنت؟

قال:

- أنا نبيّ.

(١) تبعد منازلُه عن مكّة حوالي ٦٥٠ كيلومترًا إلى الشمال الشرقي منها.

فقلت:

- وما نبيي؟!!

قال:

- أرسلني الله.

فقلت:

- وبأي شيء أرسلك؟

قال:

- أرسلني بصلة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يوحد الله لا

يُشرك به شيء.

قلت له:

- من معك على هذا؟

قال:

- حرٌّ وعبد.

«ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به».

فقلت:

- إني متبِّعك.

قال:

- إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا؛ ألا ترى حالِي وحال النَّاس؟

ولكن ارجع إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فائتني<sup>(١)</sup>.

فأسلم عمرو بن عَبَسَةَ ثم عاد إلى أهله.

قال عمرو بن عَبَسَةَ:

- ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به!<sup>(٢)</sup>

لم يُرد النبي ﷺ أن يبوح بأسماء من معه من المؤمنين، ولا بعددهم؛ فذكر كلمة عامة جامعة: حر وعبد؛ ولعلّ معناها: أحرار وعبيد، ولعلّ أبا بكر وبلالاً كانا حاضرين ساعة اللقاء، فظنّ الرجل أنهما المقصودان بكلمة: حر وعبد، فكان يقول:

- لقد رأيتني وإني لربع الإسلام!!<sup>(٣)</sup>

وقد أراد أن يبقى مع النبي ﷺ في مكة، ولكنّ النبي ﷺ طلب إليه أن يعود إلى أهله، فإذا سمع به قد ظهر فليأت!! وهذه آية بيّنة على أنّ النبي ﷺ في تلك الشدّة يُخبر بأنّه سينتصر، فإذا انتصر، وسمع بذلك عمرو بن عَبَسَةَ فليأت إليه.

انضم إلى طريق السعادة: نُعيم بن عبد الله النّحام، ونعمان بن قَوْقَل الأعرج، وأفلح؛ أبو فكيهة، مولى بني عبد الدار، وسهيل بن

(١) هذه المحاورة رواها مسلم في "صحيحه" (١١٤/٦، ١١٥)، والحديث له تتمّة في الصفحات التالية (١١٦-١١٨)، والقصة في "الاستيعاب" بتفصيل أكثر (٤٩٨/٢-٥٠٠)، وفي "الإصابة" باختصار (٥/٣، ٦/٦) تسلسل (٥٩٠٣).

(٢) "صحيح مسلم" (١١٥/٦).

(٣) "الإصابة" (٦/٣)، لقد جاء عمرو بن عَبَسَةَ بعد إعلان الدعوة، وقد سبقه إلى الإسلام كثيرون، ولكنه لم يكن يعلم.

بيضاء، وأخوه صفوان، وبيضاء أمهما؛ واسمها: وعد بنت الجحدم،  
واسم أبيها: وهب بن ربيعة.

### ١١- أساطين الكفر:

أشدُّ خلق الله حرصًا على هداية النَّاسِ رسولُ الله ﷺ؛ كان يريد  
خير النَّاسِ، سعادتهم، نجاتهم في الدنيا والآخرة، كان يتألم، يتألم  
كثيرًا جدًا، كان يتمنى لو يصغي النَّاسُ إليه، لو لم يكن هناك من  
يصدُّهم ويمنعهم من الاستماع إليه!! لقد وقف عدد من الرجال ليسوا  
من الكثرة في شيء، ولكنهم أعيان النَّاسِ ووجوههم، أصحاب  
السُّلطة والسُّطوة، والنفوذ والثراء والجاه، وقف هؤلاء كالصخرة  
الصلدة في طريق الإسلام، في طريق الرسالة الخالدة التي أرادها الله  
رحمةً للعالمين، في طريق السيل الجارف تمنع من المضي في سبيله!!  
تمنع من تحدُّثه نفسه في سلوك طريق النجاة من سلوك طريق السعادة  
الأبدية، تمنع النَّاسِ من الاستماع إلى رسول الله ﷺ، تمنع المؤمنين  
من الصَّلَاة في المسجد الحرام!!

هؤلاء القساة الغلاظ الشداد هم أنفسهم كانوا يقولون قبل البعثة

المحمّدية:

- لئن جاءنا نذير لكننا أهدى من كل الأمم!

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ  
إِحْدَى الْأُمَّمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [فاطر: ٤٢] (١).

من أعمدة الكفر الذين كُتبت عليهم الشقاوة أبد الدهر: أبو جهل

(١) وقد كانوا كذلك؛ ولكن ليس هؤلاء فحسب الذين وقفوا في طريق الدعوة!!

عمرو بن هشام، وعمّه الوليد بن المغيرة، وعتبة، وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي مُعيط، وأمّية بن خلف، وأخوه أبيّ بن خلف، والعاص بن وائل، وأبو لهب!!

كان المؤمنون يستطيعون أن يؤدّوا صلاة الغداة (الصبح) في المسجد لأنّه يكون خاليًا من النَّاس، ولكن صلاة العشيّ (العصر) يؤدّونها خارج مكّة، بعيدًا عن أعين النَّاس، وفي يوم كان سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب النبي ﷺ يؤدّون الصّلاة في شعب من شعاب مكّة؛ إذ طلع عليهم نفر من المشركين، فشتموهم وعابوا عليهم دينهم، وقاتلوهم، فحمل سعد لحيّ جمل (عظم جمل) وضرب به أحدهم فشجّه، فكان أوّل دم أريق في الإسلام<sup>(١)</sup>.

لعلّ بعض أولئك النفر من المشركين ذهب إلى أمّ سعد فأخبرها بإسلام سعد؛ فحلفت ألا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب!!<sup>(٢)</sup>، وقالت له:

- يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت، لتدعّن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعيّر بي؛ فيقال: يا قاتل أمّه.

فقال:

- لا تفعلي يا أمّه؛ فإنّي لا أدع ديني هذا لشيء.

فمكثت يومًا وليلة لم تأكل؛ فأصبحت قد جهّدت، فمكثت يومًا

(١) "الإصابة" (٣٣/٢) تسلسل (٣١٩٤).

(٢) "صحيح مسلم" (١٨٥/١٥) وقالت: زعمت أنّ الله أوصاك بوالديك، وأنا أمك وأنا أمرك بهذا.

آخر ليلة لم تأكل؛ فأصبحت قد جُهدت، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل؛ فأصبحت قد اشتدَّ جَهدُها، فلمَّا رأى ذلك قال لها:

- يا أمَّه، تعلمين والله لو كانت لك مئة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء؛ فإن شئتِ فكلي، وإن شئتِ لا تأكلي<sup>(١)</sup>.

ثلاثة أيام بلياليها تحاول مع ابنها البارِّ بها أن يرجع عن دينه، تحاول ذلك بالامتناع عن الأكل والشرب لعلَّه يرقُّ لها وينقاد لما تريد، فقطع عليها كلَّ أمل بقوله: والله لو كانت لك مئة نفس، فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني.

عند ذلك اضطرت إلى الرضوخ، وتناولت طعامها!! ونزل القرآن يثني على موقفه الصُّلب تجاه أمِّه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت: ٨ - ٩].

لسعد بن مالك أختُ اسمها خالدة: أسلمت بعد ذلك.

وقد انضمَّ إلى القافلة سهل بن بيضاء، وكنتم إسلامه.

١٢- يا صباحاه:

علم القاضي والداني في مكة أنَّ النبي ﷺ يدعو إلى دين جديد، كان رسول الله ﷺ يدعو إلى الله ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، لا يصرفه

(١) "تفسير ابن كثير" (٤/٤٤٥) عن الطبراني كتاب العشرة.

صارف، ولا يرُدُّه رادُّ، ولا يصدُّه صادُّ!! يتبع النَّاسُ في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم والحج، يدعو من لقيه من حُرِّ وعبد، وضعيف وقوي، وغنيّ وفقير، جميع الخلق في ذلك شرعٌ سواء<sup>(١)</sup>.

فلَمَّا نزل القرآن: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] انطلق نبيُّ الله ﷺ إلى رَضْمَةَ<sup>(٢)</sup> من جبل، فعلا أعلاها حجرًا، ثم نادى:

- يا بني عبد منافاه!

فلَمَّا اجتمعوا قال:

- إني نذير، إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يربأ أهله، فخشي أن يسبقوه، فجعل يهتف: يا صباحاه!



(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (١/٤٦٠ - ٤٦١).

(٢) الرضمة: الحجارة، يا صباحاه: كلمة يعتادونها عند وقوع أمر عظيم ليجمعوا ويتأهبوا. والحديث رواه مسلم (٣/٨١) وجاء في "البخاري" (٩/١١٥): «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومًا، فقال: يا قوم، إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان؛ فالتجاء! فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم! فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق».





(٥)

لقاء في السحر

﴿قَدْ نَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِعَايِنَتِ  
اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا  
حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأَمْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴿

[الأنعام: ٣٣-٣٤]

١- اللهم لا ترفعه:

عندما سمع ابن العاص بإسلام ولده خالد أرسل وراءه أبا نأ وعمراً، فلما جاء به هجم أبو أحيحة على ولده خالد بعصاه، وصار يضربه ويشتمه حتى تكسرت العصا على رأسه، وكان يصرخ ويقول:

- أتبع محمدًا!؟

وخالد يجيب:

- قد والله تبعته.

ويشتدُّ أبو أحيحة على ولده بالسبِّ والشتم والضرب، وهو يصرخ:

- أتبع محمدًا وأنت ترى خلافة قومته، وما جاء به من عيب

ألتهم، وعيب من مضى من آبائهم!؟

فيجيبه خالد:

- قد والله تبعته على ما جاء به!

فلم يتحمَّل أبوه ذلك، وصرخ به:

- اذهب يا لكع حيث شئت، والله لأمنعك القوت!!

فأجابه خالد:

- إن منعني فإنَّ الله يرزقني ما أعيش به.

فجُنَّ جنونه، وهجم عليه وهو يدفعه في ظهره:

- اخرج! اخرج! اخرج!

ثم التفت إلى أولاده؛ أبان، وعمرو، وعبد الله، وسعيد، وقال لهم:

- لا يكلمه أحد منكم إلا صنعتُ به ما صنعتُ بخالد!

وذهب خالد إلى رسول الله ﷺ، ولزمه، وصار يعيش معه، وسقط أبو أحيحة مريضاً، وكان شديداً على المسلمين، فقال:

- لئن رفعني الله من مرضي هذا: لا يُعبد إله ابن أبي كبشة بمكة!

فلما سمع خالد مقالة أبيه قال:

- اللهم لا ترفعه<sup>(١)</sup>!

فمات في مرضه ذلك!!

وأسلمت امرأة خالد؛ أميمة بنت خالد الخزاعية.

بعد أن توفي أبو أحيحة ودُفن في مكان يُقال له: الظريبة = أقبل

عمرو بن سعيد فأسلم، وأسلمت زوجته فاطمة بنت صفوان بن أمية بن محرث الكنانية<sup>(٢)</sup>، وهكذا أقبل على الإسلام خيرة الشباب والرجال والنساء.

وتحرّكت قريش تدافع عن أصنامها الميتة، وراحت تسبُّ الذين

آمنوا وتشتمهم، وتؤذيهم بقارص الكلام والأفعال، ونزل القرآن الكريم يسري عن قلب النبي ﷺ الذي آلمه ذلك:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ ﴿٢﴾ وِزْرَكَ ﴿٣﴾ أَلَّذِي أَنْقَضَ

(١) "أسد الغابة" (٣/٨٢، ٨٣/ تسلسل ١٦١).

(٢) "الاستيعاب" (٢/٤٩٤).

ظَهَرَكَ ﴿٣﴾ [الشرح: ١-٣].

وبشّره بأن وراء هذا سيأتي اليسر بإذن الله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

[الشرح: ٥-٨].

فكانت هذه الآيات البيّنات تقع بردًا وسلامًا على قلب النبي ﷺ؛

إنها تمسح على آلامه، تداوي جراحه، تمّده بالأمل العريض!!

كان النبي ﷺ أحرص الأنبياء على هداية قومه، وأقواهم على

حمل الدعوة، وأقدرهم على تبليغها للناس، كلّ النَّاس، وكانت سور

القرآن تنزل تشدُّ أزره، وتقوي عزمته، وتعرض عليه صورًا من إخوانه

الأنبياء الذين جاهدوا قبله:

﴿هَلْ أُنثِيَ مِنْكَ حَدِيثٌ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرَكُنِي ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ

فَنُخْشِي ﴿١٩﴾ فَأَرِنَهُ آيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾

فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ [التَّازِعَات: ١٥-٢٦].

وعلى الرغم من جميع العقبات التي وضعتها قريش في طريق

الذين آمنوا فقد أقبل إلى الجنة: أبو خزيمة؛ جهم بن قيس القرشي،

وامراته أم حرملة، وولده؛ عمرو وخزيمة، وأسرع إلى السفينة

الناجية: سفيان بن مَعمر، وولده؛ جابر وجنادة، وزوجته حَسَنَة

وولدها شُرْحَيْبِل.

## ٢- الفئة الرابعة:

مضت الدعوة في سيرها الحثيث على الرغم من الأعاصير التي بدأت تشتد، وصيحات الغضب، والوجوه المكفهرة، والعيون الملتهبة!! مضت الدعوة لا تلتفت إلى شيء من هذا لأن الله قد أمر نبيه ﷺ بالتبليغ، وقص عليه من قصص الأنبياء قبله، وما لاقوا من أقوامهم؛ فالدرُّ دَرُبُهُم، والطريق طَرِيقُهُم، والحقُّ واحد لا يتجزأ، ودعوة الله لا بد أن تظهر ولو كره الكافرون؛ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح: ١-٤].

ومضى نوح ﷺ يدعو قومه ليلاً ونهاراً، سرّاً وجهاراً، لم يترك وسيلة معروفة إلا أتبعها، ولكنهم أعرضوا عنه، وكفروا به، ورفع نوح رأسه إلى السماء متألماً، يائساً من إيمان قومه إلا من قد آمن كما أخبره الله تعالى؛ فقال: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالَهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١].

ثم دعا عليهم فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦-٢٧].

ولكن محمداً ﷺ لم يدع على قومه بدعاء الاستئصال كما دعا نوح ﷺ لأن الله تعالى لم يخبره بأنه لا يؤمن من قومه إلا من قد

آمن، ومن ثمَّ كان حريصًا كلَّ الحرص على إيمانهم لتخلد الرسالة من بعده، بل كان يدعو لبعضهم بالذات بالإيمان؛ لِمَا يجد فيهم من قدرة على خدمة الإسلام إذا أسلموا؛ فقد جاء في الحديث: «اللَّهُمَّ أَعِزِّ الإسلامَ بِأَحَدِ العُمَرَاءِ»؛ ولهذا صبر، وتحَمَّل، وثابر على دعوة النَّاسِ بكلِّ ما أُوتِيَ من قوة وعزيمة وتوفيق من الله!!

وانضمت عائلة بكاملها إلى ركب الدعوة؛ الحارث بن قيس القرشي السهمي؛ ابن الغيطة، وأولاده؛ السائب، وبشر، وتميم، ومعمر، وسعيد، وعبدالله، وأبو قيس.

وأسلم سعد بن خولة؛ من بني عامر بن لؤي، وزوجته سبيعة بنت الحارث، وأسلمت صفية بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، وأخت حمزة بن عبد المطلب شقيقته، أمُّ الزبير بن العوام.

ونزلت «سورة العصر» من ثلاث آيات فقط، ولكنها تحدّد منهج الحياة، وتبني طريق الإنسان، إنه الخسر!! الخسر للجميع إلا للمؤمنين: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ [العصر: ١ - ٣].

### ٣- ضباعة بنت الزبير:

سأل عبد الرحمن بن عوف المقداد:

- ما لك لا تتزوج؟

فقال المقداد بلا تردّد:

- زوجني ابنتك.

فغضب عبد الرحمن بن عوف، وأغلظ له! فذهب المقداد إلى النبي ﷺ فشكا ذلك له، فقال النبي ﷺ: - أنا أزوجك.

فزوجه بنت عمه؛ ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب!!

كان عبد الرحمن بن عوف قد كره أن يزوج ابنته إلى رجل ليس من قريش، وهو ينتمي إلى زوج أمه، فكان جواب النبي ﷺ أن زوجه ابنة أقرب الناس إليه، وأعلاهم نسباً وذكرًا؛ ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب؛ الذي دعا إلى حلف الفضول عندما غمط العاص بن وائل حقّ الزبيدي!! إنه درسٌ بليغٌ، درسٌ عمليٌّ لعبد الرحمن وغيره من المؤمنين إلى أبد الدهر، الرجل يوزن بإيمانه ومسارحته إلى الإسلام، لا بماله وحسبه ونسبه وثرائه، لا؛ إنه الإسلام الذي صهر الحر والعبد، والغني والفقير، والأسود والأبيض في بوتقة واحدة.

المقداد رجل بطل؛ أعلن إسلامه من أول يوم أسلم فيه، فلا بد أن يحظى من إخوته المسلمين بكلّ احترام وتكريم! وقد اعتنقت ضباعة بنت الزبير الإسلام، وكذلك فعلت أختها أم الحكم، وقد تزوجت ابن عمها ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب<sup>(١)</sup>، وكان ربيعة شريك عثمان بن عفان في التجارة!

في هذه المدة انضم إلى موكب الهدى: عكاشة بن محصن الأسدي، وكان من أجمل الرجال<sup>(٢)</sup>، وأخته أم قيس، وأخوه أبو

(١) "الإصابة" (٤/٤٤٢) / تسلسل (١٢٢٠).

(٢) "الاستيعاب" (٣/١٥٥)، و"الإصابة" (٣/٤٩٤) / تسلسل (٥٦٣٢).



سنان؛ وهب<sup>(١)</sup> بن عبد الله، وهو أكبر من عكاشة بعشرين عاماً تقريباً، وعُفيرة<sup>(٢)</sup> بنت رباح، وأخوها خالد بن رباح؛ أخو بلال بن رباح، وشجاع بن وهب الأسدي، ومحمية بن جزء الزبيدي.

#### ٤- لقاء بعد السحر:

اشتدت قريش على النبي ﷺ، وعلى الذين علمت بإيمانهم، ومنعوا أي شخص من الاتصال به والاستماع إليه؛ لئلا يتأثر بالقرآن فيسلم، وكان بعض المشركين يرغبون في الاستماع إلى النبي ﷺ ليعلموا ماذا يقول؟ ولكي يردوا عليه إذا كان ذلك في استطاعتهم، ولكن أولئك الذين وقفوا على رؤوس الناس منعوهم!

في الثلث الآخر من الليل خرج رجل متسللاً من داره، سار مستخفياً يستره الظلام المخيم على مكة، وقد انقطعت الرجل، ونام الناس، حتى أتى بيت النبي ﷺ، فالتصق بالجدار وراح يستمع إلى النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، كان النبي ﷺ يتهجّد بالقرآن، كانت نفسه تهيم بالقرآن، كان يجد الراحة في تلاوته، وكانت قراءته ﷺ تأسر القلوب، ونسي الرجل الملتصق بالجدار نفسه وهو يستمع بلهفة، ولم يشعر إلا والدنيا تتكشف، ثم يبصر أمامه رجلين؛ أحدهما أبو سفيان، والثاني فرعون هذه الأمة، وأشد الناس عداوةً للنبي ﷺ، إنه أبو جهل ابن هشام!!

وأسقط في أيدي الرجال الثلاثة؛ الأحنس بن شريق، وأبي سفيان

(١) "الاستيعاب" (٤/٨٣).

(٢) "الاستيعاب" (٤/٣٧٢)، و"الإصابة" (٢/٨٠٦).

ابن حرب، وأبي جهل ابن هشام؛ فتلاوموا، وقال أحدهم:

- لا تعودوا؛ فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً.

ثم انصرفوا.

في الليلة التالية تاقت نفس أبي سفيان إلى العودة إلى الاستماع إلى النبي ﷺ، ونهض بعد أن اطمأن إلى أن لا أحد سيأتي هذه الليلة ويراه، ومضى متسللاً مستخفياً حتى انتهى إلى بيت النبي ﷺ، والتصق بالجدار وراح يستمع التلاوة العذبة النديّة الأخذة بمجامع القلوب، ونسي نفسه، بل أنسته نفسه أن يعود قبل وضح الفجر، وفوجئ مرةً أخرى بالرجلين الآخرين؛ الأحنس بن شريق الثقفي، وأبي جهل ابن هشام!! فتلاوموا مرةً أخرى، وأوصى بعضهم بعضاً بعدم العودة لمثلها.

لكن أبا جهل ابن هشام لم يصبر، وأيقن أن لا أحد سيأتي هذه الليلة، وأنه سيعود تحت جناح الظلام قبل طلوع الفجر، وذهب يستمع إلى النبي ﷺ؛ هذا الكلام العظيم قد حُصّ به محمد ﷺ، لماذا لم يكن هو النبي المختار؟ لماذا؟ لماذا؟

وطلع الفجر دون أن يدري، واستقبله الرجلان الآخران بنظرات مؤنّبة محيرة!! وصاح أحدهم قائلاً:

- لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود!!

فتعاهدوا على ذلك، ومضى كل منهم إلى أهله.

لم يصبر الأحنس بن شريق؛ حليف بني زهرة حتى ترتفع

الشمس، فأخذ عصاه مسرعًا إلى بيت أبي سفيان، وطرق عليه الباب، فلما خرج قال:

- أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد؟  
فقال:

- يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يُراد بها، وسمعت أشياء ما عرفت معناها، ولا ما يراد بها.  
قال الأحنس:

- وأنا والذي حلفت به كذلك.

ثم تركه وذهب إلى بيت أبي جهل، ودخل عليه بيته، وقال:

- يا أبا الحَكَم، ما رأيك بما سمعت من محمد؟  
فقال أبو جهل غاضبًا:

- ماذا سمعت! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف؛ أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الرُّكْب، وكنا كَفَرَسِي رِهَانٍ قالوا: منَّا نبيُّ يأتيه الوحيُّ من السماء! فمتى ندرك مثل هذه؟!

والله لا نؤمن به أبدًا، ولا نصدِّقه!!

فقام عنه الأحنس وتركه<sup>(١)</sup>.

خرج أبو جهل بعد ذلك من بيته، فرأى النبيَّ ﷺ فصافحه، فلاحق

(١) "ابن هشام" (١/٣٣٧، ٣٣٨)، و"تفسير ابن كثير" (٢/٦٢٩).

بأبي جهل رجل، وسأله:

- ألا أراك تُصافح هذا الصابي؟

فقال أبو جهل:

- والله إنني لأعلم إنه لنبي، ولكن متى كنتا لبني عبد مناف تبعاً؟! (١)

الحسد، والغرور، وحبُّ الظهور، وحبُّ التسلُّط على النَّاس، كل أولئك كانوا من أسباب بُعد أبي جهل عن الإسلام، ومعاداته والتصدي له، ومحاربتة بلا هوادة!!

ونزل القرآن الكريم:

﴿قَدْ نَعَلِمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ  
بِعَايَتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا  
كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنَّهُمْ نَصَرْنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ  
الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام: ٣٣-٣٤].

كان النبي ﷺ يتألم غاية الألم لأنَّ هؤلاء الطغاة قد جعلوا بينه وبين النَّاس سداً منيعاً، فضلُّوا وأضلُّوا، وسيصبر النبي ﷺ كما صبر أولو العزم من الرسل، ولقد جاءه من نبي المرسلين، وقصَّ عليه القرآن الشيء الكثير!!

٥- ملكتم العرب:

انطلق وفد مؤلَّف من: أبي سفيان، وأبي جهل، والنضر بن الحارث، وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبي مُعيط، وعمرو بن العاص،

(١) "تفسير ابن كثير" (٢/١٢٩).

وأبي بن خلف، والأسود بن البختري إلى أبي طالب:

- يا أبا طالب، أنت كبيرنا وسيّدنا، وإنّ محمّداً قد آذانا وآذى  
آلهتنا، فنحُبُّ أن تدعوّه فتنهاه عن ذكر آلهتنا، ولندعه وإلهه.

فدعاه أبو طالب، فجاء النبي ﷺ، فقال له:

- هؤلاء قومك وبنو عمّك.

قال رسول الله ﷺ:

- ما تريدون؟

قالوا:

- نريد أن تدعنا وآلهتنا، ولندعك وإلهك.

فقال النبي ﷺ:

- أرايتم إن أعطيتكم هذا: هل أنت معطيّ كلمة إن تكلمتم بها  
ملكتم العرب، ودانت لكم بها العجم، وأدّت لكم الخراج؟

قال أبو جهل:

- وأبيك، لنعطيتكها وعشرة أمثالها!

قالوا:

- فما هي؟

قال:

- قولوا: لا إله إلا الله.

فأبوا، واشمأزوا!!

قال أبو طالب:

- يا ابن أخي، قل غيرها؛ فإن قومك قد فزعوا منها.

قال:

- يا عم، ما أنا بالذي يقول غيرها حتى يأتوا بالشمس فيضعوها

في يدي، ولو أتوا بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها!

فغضبوا، وقالوا:

- لتكفرن عن شتم آلهتنا أو لنشتمنك ونشتمن من يأمرك<sup>(١)</sup>.

فأنزل الله تعالى في «سورة الأنعام»: ﴿أَنْبِئْ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأنعام:

١٠٦-١٠٨].

وهكذا؛ ترك النبي ﷺ سب آلهتهم لأنها تؤدي إلى مفسدة كبيرة،

أن يسبوا الله بغير علم، وهذه المسألة يطلق عليها في الاصطلاح

الفقهية: ترك مصلحة لمفسدة أرجح منها<sup>(٢)</sup> أو: سدُّ الدَّرَاعِ الْمُفْضِيَةِ

إلى مفسدة.

(١) "تفسير ابن كثير" (١٦٤/٢) تفسير «سورة الأنعام»، (الآية ١٠٨).

(٢) نفس المرجع السابق.

انضمَّ إلى جماعة الهدى: عمرو بن أبي أثانة، وأخوه عُروة؛ وهما أخوا عمرو بن العاص لأُمَّه، والنعمان بن عدي بن نَضلة، وعُمير بن رَبَّاب السَّهمي.

### ٦- أتشتمه وأنا على دينه؟

خرج الوفد من عند أبي طالب غاضبين؛ إنه لم يجبهم إلى شيء مما أرادوا، وهم لا يستطيعون أن ينالوا من رسول الله ﷺ ما دام أبو طالب يمنعه ويدافع عنه؛ وهذا العُرف - الحماية والجوار - لم يكن معروفًا إلا عند العرب.

فإذا أجاز رجل ذو مكانة في قومه وعشيرته رجلاً فلا تمتدُّ إلى الرجل المُجَارِ يَدُ بسوء، وهذا ما لم يكن معروفًا في الدولتين الكبيرتين المجاورتين للعرب؛ فارس والروم، ولم يكن معروفًا عند الحبشة أيضًا؛ فإن الملوك يلجؤون إلى قتل مخالفيهم لأسباب تافهة جدًّا؛ لذلك اختار الله لدعوته مكانًا بعيدًا عن ظلم الملوك وطيشهم وجبروتهم لأنها الدعوة التي أراد الله تعالى أن تبقى إلى الأبد، فلا بد أن تنمو وترعرع في مكان جيّد، وبين قوم هم أفضل من جيرانهم؛ لما في جِبَلَّتْهم وصفاتهم من معانٍ نبيلة؛ كالصدق، والصراحة، وحب الحرية، وكراهية العبودية!!

رجع حمزة بن عبد المطلب من الصيد، وكان من عادته إذا رجع أن يطوف بالكعبة أولًا، ثم يمر على مجالس قريش، فيسلم عليهم ويتحدّث إليهم قبل أن يذهب إلى بيته، عندما رجع آخر النهار ذلك اليوم نادته مولاة كانت لعبد الله بن جدعان، وكان بيئها على الصفا:

- يا أبا عُمارة .

وقف حمزة؛ ماذا تريد هذه الفتاة؟

- يا أبا عُمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمدَ آنفًا من أبي

الحكم ابن هشام؟

- ماذا لقي؟

- وجده ها هنا جالسًا فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف

عنه ولم يكلمه محمدًا!!

إنَّ إهانة محمد ﷺ إهانةٌ لبني عبد المطلب كلهم!! إنها إهانة

لحمزة نفسه، ونيلٌ منه! لذلك احتمل حمزة الغضب، واندفع مسرعًا

يطلب أبا جهل، فلم يقف عند أحد، ولم يسلم على أحد حتى دخل

المسجد فوجده جالسًا في القوم! فاندفع نحوه غاضبًا أشدَّ الغضب،

فرفع قوسه وضربه بقوة، فشجّه شجّةً منكرة، ثم صرخ به مزمرًا:

- أتشتّمه وأنا على دينه؛ أقول ما يقول؟! فرُدَّ عَلَيَّ إن استطعت؟

فنهض رجال من بني مخزوم يريدون أن ينصروا أبا جهل، فأشار

إليهم أبو جهل وقال:

- دعوا أبا عُمارة؛ فإنني والله قد سببت ابن أخيه سبًا قبيحًا<sup>(١)</sup>.

وذهب حمزة إلى داره، فلمّا أوى إلى فراشه ندم على فراق دين آبائه

وقومه، وهجمت عليه الوسوس، وبات في شكٍّ عظيم!! ولم تكتحل

عينه بنوم حتى أصبح الصباح، فنهض حمزة وذهب إلى الكعبة، وراح

(١) "سيرة ابن هشام" (٣١٢/١).



يتضرّع إلى الله تعالى أن يشرح صدره، ويذهب عنه الرّيب، فما أتمّ  
تضرّعه حتى زال عنه الباطل، وامتلاً قلبه يقيناً، فذهب إلى النبي ﷺ  
فأخبره بما كان من أمره، فدعا له بأن يثبتّه الله على دين الإسلام<sup>(١)</sup>!

وبإسلام حمزة اشتدّ عَضُدُ المسلمين، والإسلام يحتاج إلى  
الرجال الأقوياء الذين يقفون بقوة وصلابة في وجه أعداء الله.

لحق بموكب النور: شَمَّاس بن عثمان بن الشريد المخزومي؛  
اسمه: عثمان، والشَّمَّاس لقب له؛ وذلك لشدة حسنه وجمال وجهه!!  
وكان قد قدم إلى مكّة قبل البعثة شَمَّاس<sup>(٢)</sup> من الشَّامِسة، وكان  
جميلاً، فعجب النَّاس من جماله، فقال عتبة بن ربيعة:

- أنا آتيكم بشمّاس أحسن منه.

وذهب فجاء بابن أخته عثمان بن عثمان، فلما رأوه سمّوه شَمَّاساً  
من يومئذ<sup>(٣)</sup>، وغلب على اسمه!!

انضم إلى قافلة الإيمان: أبو سَبْرَةَ بن رُهم، وامرأته: أم كلثوم  
بنت سهيل بن عمرو، وأبو سبرة أمّه بَرّة بنت عبد المطلب عمّة  
رسول الله ﷺ، وقيس بن عبد الله؛ من بني أسد بن خزيمة، وامرأته  
بركة بنت يسار؛ مولاة أبي سفيان بن حرب، ومعتب بن عوف  
الخزاعي؛ المعروف بابن الحمراء.

(١) "مختصر السيرة" لمحمّد بن عبد الوهاب (ص ٨٨، ٨٩) عن كتاب "المنهج  
الحركي للسيرة النبويّة" للأستاذ منير محمّد غضبان (ص ٧٩) وقد جاء مثلها  
في هامش "ابن هشام" (ص ٣١٢) ولم يذكر المصدر.

(٢) منصبٌ دينيٌّ عند النصاري.

(٣) "الاستيعاب" (٣/٨٩).

٧- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

قالت مولاة كانت لعبد الله بن جدعان:

- لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفًا من أبي الحكم، فأذاه  
وسبه وبلغ منه ما يكره، ولم يكلمه محمد!!

نعم؛ إنه لم يكلم الأحمق الجاهل المغرور، وقد كان يستطيع أن  
يبطش به، وقد كاد أن يفعل عندما أمسك بتلابيبه، وهزّه بقوة، وهو  
يقول له:

- أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى!!

ردّدها القرآن بنصّها في «سورة القيامة» ولكنّ النبي ﷺ تحمّل  
ذلك من أجل دعوته، إنّ البطش بالأحمق الجاهل المغرور يثير حربًا  
لا أوّل لها ولا آخر بين آل عبد مناف وآل مخزوم، والدعوة إلى الله  
تريد أن تثبت أقدامها أولاً، تريد أن تمتدّ برفق إلى القلوب الحيّة،  
إلى القلوب القابلة للحياة، فتبعث فيها الحياة.

وليس الجاهل الأحمق أقلّ عداوة وبغضًا ونيلاً من شخص  
الرسول ﷺ من عمّه الوليد بن المغيرة، وقد رويت عنه مواقف كثيرة  
في الكيد والصدّ والوقوف في وجه الدعوة<sup>(١)</sup>؛ فأنزل الله تبارك وتعالى  
«سورة القلم»؛ وفيها الثناء كل الثناء، بل أعظم الثناء على النبي ﷺ،  
ووصفه الله بأجمل صفة، وأجمعها لصفات الأدب والكمال، وما  
يستحقّ ذلك إلا النبي ﷺ دون سائر الناس: ﴿تَوَّابًا وَأَلْقَمًا وَمَا يَسْطُرُونَ

(١) "في ظلال القرآن" (٨/٥٥).

﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْحُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ [القلم: ١ - ٤].

مَنْ مِنَ النَّاسِ اسْتَحَقَّ هَذَا الثَّنَاءَ الْخَالِدَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ مَنْ مِنَ النَّاسِ اسْتَحَقَّ أَنْ يُوصَفَ بِهَذَا الْوَصْفِ الْعَذْبِ الْجَمِيلِ؟! مَنْ؟! مَنْ؟!

إنه محمد رسول الله!!

مِمَّنْ كَانَ هَذَا الثَّنَاءُ؟

إنه ليس من رئيس فانٍ، ولا ملكٍ زائلٍ، ولا شاهٍ ولا إمبراطورٍ، لا.. لا، ليس من أحدٍ من هؤلاء؛ إنه من ربِّ العالمين، ربِّ السماوات والأرض وما بينهما، الذي أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن؛ فيكون.

ثم مضت السورة في بيانها المعجز: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ﴿٧﴾ [القلم: ٧].

والإسلام الذي بلغه محمد عن ربِّه واضح صريح، لا يلتقي مع الباطل في منتصف الطريق؛ ﴿فَلَا تَطْعَمُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تَدَّهَنُ فَيُدَّهِنُونَ ﴿٩﴾ [القلم: ٨ - ٩].

ثم نزلت الصاعقة على رأس الوليد بن المغيرة؛ عمُّ أبي جهل: ﴿وَلَا تَطْعَمُ كُلِّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ مَبْنِيٍّ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْفُرْقَانِ ﴿١٦﴾ [القلم: ١٠-١٦].

بعد كل تلك الصفات المهيبة الذليلة الوضيعة: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْفُرُطُورِ

﴾؛ سنضع عليه علامة يُعرف بها!!

إن بيتاً من الشعر يُقال في هجاء قبيلة يجعلها تنكس رأسها، فلا تستطيع أن ترفعه بين العرب!! فكيف وهجاء هذا الرجل جاء من رب العالمين؟!

هناك الثناء الذي ما بعده ثناء على سيّد الخلق!!

وهنا هجاء ما بعده هجاء على شرّ الخلق!!

انضم إلى موكب النور: عامر بن ربيعة العنزي، وامراته ليلي بنت حثمة؛ وكان عامر قد تبناه الخطاب؛ أبو عمر بن الخطاب، وعامر بن أبي وقاص؛ أخو سعد بن أبي وقاص، والأسود بن نوفل بن خويلد؛ ابن أخي خديجة بنت خويلد، ويزيد بن زمعة بن الأسود، ولُبابة بنت الحارث الهلالية؛ زوج العباس بن عبد المطلب.

ومضت قافلة الإيمان تشقّ طريقها بين الأعاصير، وهي ثابتة راسخة، وآيات ربهم تحثهم وتقدم لهم الأجر الجزيل:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤].

٨- عتاب، ودرس:

عاتب الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ من أجل رجل!! لا، ليس من كبراء القوم، ولا من رؤسائهم، ولا من أثريائهم! إنه رجل من عامة الناس، ربما لم يكن له وزن ولا قيمة ولا أهمية عند أصحاب المبادئ الثرابية، ولكنه عند الإسلام، عند ربّ الناس تبارك وتعالى

كان له قيمة وأية قيمة! وكانت له من الأهمية بحيث أنزل الله تعالى سورة من القرآن يعاتب فيها نبيّه الحبيب من أجله، إنّه الرجل الفقير الأعمى عبد الله ابن أمّ مكتوم<sup>(١)</sup>!!

جاء عبد الله ابن أمّ مكتوم يتحسّس بعصاه الطريق إلى النبيّ ﷺ؛ إنّه يريد أن يتعلّم منه، يريد أن يسمع شيئاً من القرآن الذي أنزل على النبيّ ﷺ، الجديد الذي أنزل والذي لم يسمعه، فجاء إلى النبيّ ﷺ وكان واقفاً مع عدد من رجالات قريش يدعوهم إلى الله، حريصاً على هدايتهم، راغباً أشدّ الرغبة في انضمامهم إلى القافلة المؤمنة، كان فيهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو جهل ابن هشام، وأمّية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وراح ابن أمّ مكتوم يلحّ على النبيّ ﷺ - وهو لا يرى اهتمامه بدعوة النفر من قريش - فأعرض النبيّ ﷺ عنه، ورغب في أن يتركه الساعة لعلّ الله يهدي هؤلاء النّاس، لكنّ ابن أمّ مكتوم ألحّ، فأعرض النبيّ ﷺ عنه، وعبس، ثم مضى دون أن يجيبه إلى ما يريد، ولم تمض إلا مدّة يسيرة حتى نزل الوحي يحمل عتاباً، وأيّ عتاب؟!

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾﴾ [عبس: ١-٢].

من الذي عبس، ومضى، من؟! ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي ﴿٣﴾ أَوْ يَذَكَّرُ فَنَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ﴿٤﴾﴾ [عبس: ٣ - ٤]؛ الخطاب له؛ للنبي ﷺ، ﴿أَمَّا مَنْ أَسْتَعَنَّ ﴿٥﴾ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ﴿٦﴾﴾ [عبس: ٥-٦]؛ تتصدّى لهؤلاء الذين استغنوا عنك، ولم يريدوا أن يسمعوا منك، ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا

(١) في "الاستيعاب" عمرو ابن أمّ مكتوم (٢/٥٠١-٥٠٢)، وكذلك في "الإصابة" (٢/٥٢٣/٢ تسلسل ٥٧٦٤) وهو ابن خال خديجة بنت خويلد، ابن أخي أمها فاطمة، أبوه: قيس بن زائدة، وأمه: عاتكة.

يَرْكَبُ ﴿٧﴾ [عبس: ٧]؛ ماذا عليك إن لم يؤمنوا، إن لم يزلوا  
أنفسهم، إن لم يرتفعوا من الحضيض؟ ﴿٨﴾ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ  
يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ  
مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ [عبس: ٨-١٦].

هذا الإسلام العظيم الذي جاء من رب العالمين يجب أن يوجه  
لكل الناس؛ للمؤمن والكافر، للمرأة والرجل، للغني والفقير، للأسود  
والأبيض، للصغير والكبير لأن الله تبارك وتعالى رب الجميع، فدعوته  
توجه إليهم بلا استثناء؛ فلعل الفقير القابع في زاوية مظلمة من دار  
ضيق، هو خير ألف مرة من رئيس كبير حوله جنود وبنود، وحرس  
شديد، وخدم وحشم، و.. و..!

إن ميزان الإسلام يختلف عن الموازين الأرضية، وإن قيمه  
تختلف عنها؛ إنه ميزان السماء، وقيم السماء، و..

### ٩- مُفَاصَلَةٌ:

لم يدرك قفار قريش ماذا يصنعون أمام الحدث العظيم، أمام الدين  
الجديد الذي يحمله محمد للناس، يدعوهم إلى الإيمان به في كل  
وقت، في كل ناد، والعرب من حولهم تقف موقف المتفرج؛ تنظر  
ماذا يصنع أهل الرجل وعشيرته؟!!

وتشاور عدد من رجالات قريش فيما بينهم؛ لماذا لا يلتقون مع  
محمد في منتصف الطريق، يأخذون ما يريدون، ويعطونه ما يريد؟!  
ورأقت لهم الفكرة، وظنوا أنها فكرة صائبة ليست قابلة للرفض من أي  
أحد!!

اجتمع الأسود بن المطلب، والوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف،  
والعاص بن وائل السهمي، ولقوا النبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة،  
وقالوا له:

- يا محمد!

واستمع النبي ﷺ؛ ماذا يريدون؟

- يا محمد، هلمّ فلنعبُد ما تعبُد، وتعبُد ما نعبد، فنشترك نحن  
وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا  
بحظننا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت  
بحظنك منه<sup>(١)</sup>!

إنها مساومة تافهة رخيصة، لا يرضاها رجل تعلق قلبه بالله  
تعالى، وعرف قدره وعظمته، وقد أنزل الله تبارك وتعالى سورة يردُّ بها  
عليهم أشدَّ الردِّ وأعنفه، وهي سورة تؤكِّد إخلاص النية والقصد  
والإرادة لله الواحد الأحد<sup>(٢)</sup>: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا  
تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا  
أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١-٦].

إنها مُفاصلة هائلة بين دين التوحيد ودين العبيد، لا يمكن أبداً  
أبداً أن أتنازل ولو شعرة، أو أقلَّ من ذلك عن عقيدتي التي أعتقد،  
أنا ما عبَدْتُ سابقاً قبل النبوة، ولم أعبد بعد النبوة في الحال، ولا

(١) "في ظلال القرآن" للشهيد البطل (٢٩/٥٥).

(٢) اقرأ في تفسير هذه السورة "التفسير القيم" لابن القيم (ص ٥٢٤) «سورة الكافرون».

أعبد في المستقبل ما تعبدون!! وأنتم أيضاً لم تعبدوا الله حقَّ عبادته فيما مضى، ولا في الحال، ولن تعبدوه في المستقبل، لكم دينكم الذليل الحقير، الكسير الخسير، الذي سيوردكم موارد الهلاك، ولي ديني العظيم الكريم الذي سيأخذ بيدي إلى رضا الله وجنات النعيم!!  
وقرأ النبي ﷺ عليهم هذه السورة، وقطع عليهم الطريق...

ومن غيرهِ ﷺ يستطيع أن يقف في وجه هؤلاء الطغاة؟!!

انضمَّ إلى السفينة: مُعَيْب بن أبي فاطمة، وعبد الله بن سهيل.

#### ١٠- دين الأنبياء:

- لئن رأيتُ محمّداً لأفعلنّ وأفعلنّ!

خرج الأحمق الجاهل المغرور أبو جهل ابن هشام يتهدّد ويتوعّد

ويقول:

- لئن رأيتُ محمّداً..

ومرّ النبي ﷺ من أمامه، فقالوا له:

- هذا محمّد.

فأخذ يتلّفّت يميناً وشمالاً وهو يقول:

- أين هو؟ أين هو؟

ويشيرون بأيديهم ويقولون:

- هذا محمّد!



ويتلفَّت حوله ولا يراه<sup>(١)</sup>.

وجلس أبو جهل في جماعة من المشركين وراح يتحدث ساخرًا:

- إن محمَّدًا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكًا، فإذا مَثم بُعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جنانٌ خيرٌ من جنانِ الأردن، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بُعثتم بعد موتكم، وكانت لكم نار تعذبون بها.

وبلغ النبي ﷺ قولُ أبي جهل؛ فقال:

- وأنا أقول ذلك؛ إن لهم مني لذبحًا، وإنه لآخذهم<sup>(٢)</sup>.

والنبي ﷺ إنما يقصد هؤلاء الذين وقفوا سدًّا أمام دعوة الله الخالدة، والذين ألقوا الرعب في نفوس الذين يُريدون أن يؤمنوا، أو أن يستمعوا إلى القرآن من فم النبي ﷺ.

ومع كلِّ التهديد والوعيد والحواجز الكثيرة كان يتقدَّم إلى الإسلام رجال دون أن يلتفتوا إلى الأصنام الحيَّة التي نذرت نفسها للدفاع عن الحجارة الصمِّ التي لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تدري من عبدها ومن لم يعبدها!!

انضمَّ إلى قافلة الإيمان: عمرو بن أميَّة بن الحارث بن أسد، وسويبط بن سعد بن حرملة؛ ابن عبد الدار، والمطلب بن أزهري، مع امرأته رملة بنت أبي عوف، وطليب بن عمير بن وهب بن كثير<sup>(٣)</sup>،

(١) "تفسير ابن كثير" (٣/٥٦٤) والحديث عن عكرمة.

(٢) "تفسير ابن كثير" (٣/٥٦٥).

(٣) أمه أروى بنت عبد المطلب عمَّة رسول الله ﷺ.

وطليب بن أزهر القرشي الزهري؛ أخو المطلب، وزنيرة الرومية، وأم عبيس؛ زوج كُريز بن ربيعة.

كانت الدعوة تستقبل يوماً بعد يوم قلوباً جديدة، تؤمن بالدين الجديد القديم؛ الجديد على العرب الذين أضاعوا دين إبراهيم خليل الرحمن، وأشركوا مع الله أوثاناً قالوا: إنها تقربهم إلى الله!! القديم لأنه دين الأنبياء جميعاً منذ وضع آدم ﷺ على الأرض إلى قيام الساعة!! إنه دين الإسلام الخالد!!

#### ١١- التاجر:

كتب أحد الرجلين إلى صاحبه يسأله عن النبي ﷺ:

- ما فعل؟

فكتب إليه:

- إنه لم يتبعه أحد من قريش، إنما أتبعه أراذل الناس ومساكينهم.

هذان الرجلان كانا شريكين في تجارة؛ ذهب أحدهما في التجارة نحو الساحل، وبقي الثاني في مكة، وكان الثاني يكتب للأول بما يستجد في مكة فكتب إليه بأن محمداً يدعو إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأوثان، وكان الأول قد قرأ الكتب، أو بعض الكتب، وله علم عن الأنبياء والرسول، فلما كتب إليه صاحبه:

- إنما أتبعه أراذل الناس ومساكينهم.

ترك تجارته وجاء إلى مكة، فقال لصاحبه:

- دُنِّي عليه.

فأخذه إلى النبي ﷺ، فقال:

- إلامَ تدعو؟

قال:

- أدعو إلى كذا وكذا.

قال الرجل:

- أشهد أنك رسول الله!

قال ﷺ:

- وما علمك بذلك؟

قال:

- إنه لم يُبعث نبيٌّ إلا أتبعه أراذل النَّاسِ ومساكينهم.

ثم ذهب الرجل، فنزلت هذه الآية من «سورة سبأ»: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي

قَرِيْبَةٍ مِّنْ نَّذِيْرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ [سبأ: ٣٤].

فأرسل إليه النبي ﷺ: إِنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَدْ أَنْزَلَ تَصْدِيقَ مَا قُلْتَ (١).

وراحت بقيّة الآيات تتحدّث عن المترفين الذين ينظرون إلى

المساكين نظرة استخفاف واحتقار:

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي

يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَا

(١) "تفسير ابن كثير" (٣/٥٤٠) والحديث رواه ابن أبي حاتم.

أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ بِالَّتِي تُحِبُّونَ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا  
فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ  
يَسْعَوْنَ فِي ءَابِنَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي  
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ  
يُخْفِيهِ ۗ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ ﴿٣٩﴾ [سَيِّ: ٣٥-٣٩].

### ١٢- الصّاعقة:

هال كفار قريش أن يلتحق حمزة بن عبد المطلب بالركب المبارك، ونظر بعضهم في وجه بعض؛ إن أصحاب محمد يزيدون ويكثر يومًا بعد يوم، فماذا نضع؟!

قالوا:

- انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر؛ فليات هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وعاب ديننا فليكلّمه، ولننظر ماذا يردّ عليه؟

فقالوا:

- ما نعلم أحدًا غير عتبة بن ربيعة، وأشاروا إلى عتبة وقالوا:

- أنت يا أبا الوليد.

فذهب إلى النبي ﷺ فسأله:

- يا محمد، أنت خير أم عبد الله؟

فسكت رسول الله ﷺ ولم يجب، فسأله:

- أنت خيرٌ أم عبد المطلب؟

فسكت النبي ﷺ.

فقال عتبة:

- إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت،

وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع قولك!

إننا والله ما رأينا سَخْلَةً قَطُّ أشأم على قومك منك؛ فرقت

جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا، وفضحتنا في العرب؛ حتى لقد

طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، والله ما ننتظر

إلا مثل صيحة الحُبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى!

أيها الرجل، إن كان إنما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى

قريش رجلاً واحداً، وإن كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش

شتت فلنزوجك عشراً.

انظر إلى هذا السِّفير الأحمق الجاهل المغرور كيف يتكلم؟! إنه

يعلم أن النبي ﷺ ليس في حاجة إلى المال، وأن الفقراء والمساكين

والمعوزين من آل هاشم يلوذون به فينفق عليهم، وقد أغناه الله تبارك

وتعالى عن كل أحد: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ [الضحى: ٨].

أمّا عن حاجته إلى النساء فهم يعلمون أيضاً أنه أعف فتى في

قريش، بل في العرب، بل في العالم أجمع!!

ومع كل هذا السّفه والجهل، فقد استمع إليه النبي ﷺ بأدب ما

بعده أدب، حتى إذا فرغ سأله:

- فرغت؟

قال:

- نعم.

فقال رسول الله ﷺ:

﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ١ - ٥].

وراح عتبة يستمع، وقد ألقى يديه وراء ظهره معتمداً عليهما، وقد فَعَرَ فاه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت: ٦ - ٨].

لم يستطع عتبة أن يقاطع النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن، بل بقي يستمع كالمأخوذ..

﴿قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُٓءَ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّابِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ آئِتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴿١١﴾ قَالَتَا أَنِنَا طَائِعِينَ ﴿١٢﴾﴾ فقضنهنَّ

(١) أحدث نظرية توصل إليها علماء العصر الحديث أن الكون كان دخاناً.

سَبَّحَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا  
بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ  
صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ [فُضِّلَتْ: ٩-١٣].

فلما وصل النبي ﷺ إلى ذكر الصاعقة هتف عتبة قائلاً:

- حسبك! حسبك!

ثم قال:

- ما عندك غير هذا؟

فقال رسول الله ﷺ:

- لا.

فرجع عتبة إلى قريش، فبادروه قائلين:

- ما وراءك؟

قال:

- ما تركت شيئاً أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته.

قالوا:

- فهل أجابك؟

قال:

- نعم.. لا، والذي نصبها نبياً ما فهمت شيئاً مما قاله! غير أنه

أنذركم صاعقةً مثلَ صاعقةِ عادٍ وشمود!

قالوا:

- ويلك، يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟!

قال:

- لا، والله ما فهمت شيئاً مما قال غير ذكر الصاعقة<sup>(١)</sup>!



(١) "تفسير ابن كثير" (٤/٩٠)، والقصة رواها الإمام العالم عبد بن حميد في "مسنده"، وانظر: "سيرة ابن هشام" (١/٣١٣، ٣١٤).



(٦)

مَلِكٌ لَا يُظَلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ

﴿الرَّحْمَنُ ۝ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ (٤)﴾

[الرحمن: ١ - ٤]

### ١- فَخُذْ لِي حَقِّي مِنْهُ:

لَمْ يَذَرِ الرَّجُلُ مَاذَا يَصْنَعُ؛ فَقَدْ جَاءَ بِإِبِلٍ لَهُ مِنْ إِرَاشٍ <sup>(١)</sup> فَبَاعَهَا فِي مَكَّةَ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْبِضِ الثَّمَنَ!! اشْتَرَاهَا مِنْهُ رَجُلٌ مِنْ وَجُوهِ الْقَوْمِ فَمَطَّلَهُ بِأَثْمَانِهَا، أَيْنَ يَذْهَبُ؟ إِلَى مَنْ يَلْتَجِي؟ وَهُوَ الرَّجُلُ الْغَرِيبُ الَّذِي لَا يَجِدُ مَنْ يَنْصُرُهُ فِي هَذَا الْبَلَدِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ فِيهِ أَحَدًا!! وَدَارَ الرَّجُلُ عَلَى أُنْدِيَةِ قَرِيشٍ الَّتِي تَحِيطُ بِالْمَسْجِدِ:

- يَا مَعْشَرَ قَرِيشَ، مِنْ رَجُلٍ يُؤَدِّينِي <sup>(٢)</sup> عَلَى أَبِي الْحَكَمِ ابْنِ هِشَامٍ؛ فَإِنِّي رَجُلٌ غَرِيبٌ، ابْنُ سَبِيلٍ، وَقَدْ غَلَبَنِي عَلَى حَقِّي؟  
كَانَ النَّبِيُّ ﷺ جَالِسًا فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ، فَأَرَادَ الْقَوْمُ أَنْ يَسْخَرُوا مِنَ الرَّجُلِ الْغَرِيبِ، فَقَالُوا:

- أَتَرَى إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ الْجَالِسِ؟ وَأَشَارُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛  
اذْهَبْ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ يُؤَدِّيكَ عَلَيْهِ!

أَقْبَلَ الْإِرَاشِيَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ:

- يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ أَبَا الْحَكَمِ ابْنَ هِشَامٍ قَدْ غَلَبَنِي عَلَى حَقِّي لِي قَبْلَهُ، وَأَنَا رَجُلٌ غَرِيبٌ، ابْنُ سَبِيلٍ، وَقَدْ سَأَلْتُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ عَنْ رَجُلٍ يُؤَدِّينِي عَلَيْهِ، يَأْخُذُ لِي حَقِّي مِنْهُ، فَأَشَارُوا إِلَيْكَ، فَخُذْ لِي حَقِّي مِنْهُ،  
يَرْحَمُكَ اللَّهُ!

فَنَهَضَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَالَ:

(١) قَبِيلَةٌ عَرَبِيَّةٌ؛ بَطْنٌ مِنْ حَتُّعَمَ.  
(٢) يُعِينُنِي.

- انطلق إليه.

فلما رأى القوم من قريش ذلك أشاروا إلى رجل منهم، وقالوا:

- اتبعه؛ فانظر ماذا يصنع؟

خرج النبي ﷺ مع الرجل الغريب حتى جاء بيت أبي جهل،

فضرب عليه بابه، فصاح أبو جهل:

- من هذا؟

فهتف النبي ﷺ بقوة:

- محمّد؛ فاخرج إليّ.

وقع صوت النبي ﷺ على قلب أبي جهل وقوع الصاعقة؛ فامتلاً

رعباً، وخرج إليه مذعوراً وما في وجهه رائحةٌ، وقد انتقع لونه حتى

صار بلون التبن الأصفر!! فقال النبي ﷺ:

- أعط هذا الرجل حقّه!

فلم يستطع أن يبلع ريقه من الخوف وقال:

- نعم؛ لا تبرح حتى أعطيه الذي له!

ودخل سريعاً ثم خرج بحق الرجل، فدفعه إليه!!

والتفت النبي ﷺ إلى الإراشيّ، وقال:

- الحقُّ بشأنك.

لم يدّر الإراشيّ كيف يشكر النبيّ ﷺ، فعاد إلى القوم الذين

أشاروا عليه، فقال:

- جزاء الله خيرًا؛ فقد والله أخذ لي حقِّي!

ولم يصدِّق القوم ما سمعوا، ونظروا إليه مبهوتين؛ ماذا يقول الرجل؟! وأقبل الرجل الذي بعثوه، فقالوا له:

- ويحك! ماذا رأيت؟

قال:

- عجبًا من العجب!

ووقف يحدثهم بالذي رأى وسمع:

- والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه، فخرج إليه وما معه رُوحه<sup>(١)</sup>، فقال له:

- أعط هذا حقَّه.

- فقال: نعم؛ لا تبرح حتى أُخرج إليه حقَّه!

فدخل، فخرج إليه بحقَّه، فأعطاه إيَّاه.

وراح القوم كلُّ يدلي برأيه حول الموضوع؛ حتى أقبل أبو جهل، فقالوا له:

- ويلك! ما لك؟! والله ما رأينا مثل ما صنعت قطُّ!

قال:

- ويحكم! والله ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي وسمعت صوته فمُلئت رعبًا، ثم خرجت إليه، وإنَّ فوق رأسه لفحلًّا من الإبل ما رأيت

(١) هذا يفسر ما مرَّ قبل قليل: وما في وجهه رائحة.

مثل هامته، ولا قصرته<sup>(١)</sup>، ولا أنيابه لفحلٍ قط، والله لو أبيت لأكلني!  
 هذه الحادثة وحدها<sup>(٢)</sup> تكفي الرجل العاقل الحازم الذي لا يغلبه  
 حقه وطيشه وهواه، تكفيه لأن يؤمن بالله ورسوله ﷺ، وكانت كافيةً  
 لأن يؤمن القوم الذين كانوا في ذلك المجلس من قريش، ولكن العناد  
 والهوى يعميان الرجل؛ فلا يرى الحقَّ الواضح كأنه الشمس الساطعة  
 في وضح النهار.

وقد رأى النبي ﷺ رجلاً فدعاه إلى الإسلام، فكَرِهَ الرَّجُلُ ذلك،  
 وصار ينظر إلى النبي ﷺ ولا يجيب؛ فقال له نبيُّ الله ﷺ:

- أرايتَ لو كنتَ في طريقٍ وَعَرَّ وَعَثَّ، فلقيتَ رجلاً تعرفُ  
 وجهه، وتعرفُ نسبه، فدعاك إلى طريقٍ واسعٍ سهلٍ، أكنتَ تتبعه؟

قال:

- نعم.

قال:

- فوالذي نفس محمد بيده إنك لفي أوعر من ذلك الطريق لو قد  
 كنت عليه، وإنِّي لأدعوك لأسهل من ذلك لو دُعيت إليه<sup>(٣)</sup>.

﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ  
 يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمْ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ  
 وَكَذَّبُوهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ

(١) القَصْرَة: أصل العنق.

(٢) "ابن هشام" (٢/٢٩، ٣٠)، و"السيرة النبوية" لابن كثير (١/٤٦٩، ٤٧٠).

(٣) "تفسير ابن كثير" (٣/٢٥٠).

وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾  
 أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَجَ رَيْبُكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى  
 صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ [المؤمنون: ٦٨-٧٣].

انضم إلى سفينة النجاة الماضية في طريقها إلى شاطئ السلامة:  
 فراس بن النَّضْر بن الحارث بن عبد الدار، والحارث بن خالد بن  
 صخر، وامرأته: رَيْطَةُ بنت الحارث، وعمرو بن عثمان بن عمرو،  
 وعثمان بن عبد غنم، وسعد، وأخوه الحارث؛ ابنا عبد قيس،  
 وعبد الله ابن مخزومة بن عبد العزى، وعمرو بن الحارث بن زهير،  
 وجَبَلَةُ بن حارثة، أخو زيد بن حارثة، وهو أكبر من أخيه زيد.

قال جبلة:

- قلت: يا رسول الله، علّمني شيئاً ينفعني الله به!

قال:

- إذا أخذت مضجعتك فاقراً: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا الْكٰفِرُونَ﴾ (١).

في هذه المدة ضاقت قريش بالنبي ﷺ وبأصحابه؛ فأخذت تؤذي  
 المستضعفين منهم!!

٢- تنزيل من رب العالمين:

خرج عمر بن الخطاب يريد أن يتعرّض لرسول الله ﷺ، فوجده  
 قد سبقه إلى المسجد، وقام يصلي، فوقف عمر بن الخطاب خلفه

(١) "الإصابة" (١/٢٢٣/٢٢٣)، أي: فاقراً سورة: ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا  
 الْكٰفِرُونَ﴾... إلى آخرها.

يستمع إلى قراءته، فقرأ النبي ﷺ «سورة الحاقة» فانجذب عمر بكل كيانه وراح يتعجب من تأليف القرآن: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾ [الحاقة: ١٣-١٦]، وراح عمر يتابع كلمات القرآن وآياته، وقد أخذه العجب كل العجب: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢١-٢٤].

لعل عمر بن الخطاب لم يستمع إلى النبي ﷺ قبل هذه المرة؛ فأخذه القرآن كل ما أخذ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَلَيِّنَنِي لِمَ أُوتِيَ كِتَابِي ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِي ﴿٢٦﴾ يَلَيِّنَهَا كَأَنَّ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّتِي ﴿٢٩﴾﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩].

ماذا سيكون مصير الشقي الذي وجد نفسه وجهًا لوجه أمام أعماله التي لا ترفعه عند الله؟ ﴿حُذُّوْهُ فَعَلُوْهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ لَنْجِيْمٍ صَلَوٰهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سَلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوْهُ ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٠-٣٢].

لماذا، لماذا كل هذا؟

﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة: ٣٣-٣٧].

تنفس عمر بن الخطاب الصُّعداء، وقال: هذا والله شاعر كما قالت قريش؛ فجاءه الجواب سريعاً:



﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَا بُصِّرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا بُصِّرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة: ٣٨-٤١].

قال عمر: كاهن، فجاءه الجواب أسرع من السابق:

﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ ﴿٤٢﴾ نَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾

[الحاقة: ٤٢-٤٣].

وليس هذا فقط؛ فلا النبي ﷺ، ولا أي مخلوق يستطيع أن يزيد حرفًا أو ينقص حرفًا من كتاب الله: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾ [الحاقة: ٤٤-٥٢].

وراح عمر بن الخطاب<sup>(١)</sup> وهو لا يدري ما يقول بعد الذي سمعه، وماذا يقول؟ واحتدم الصراع في نفسه، وراح يقلب الأمر على أكثر من وجه، لماذا يقف خاله أبو جهل في وجه الإسلام؟ لماذا يحاربه؟!

انضمَّ إلى الركب المبارك: هَبَّار بن سفيان المخزومي، وأخوه: عبد الله بن سفيان، وهشام بن أبي حذيفة، وعروة بن عبد العزى، وقيس بن حذافة السهمي؛ أخو عبد الله بن حذافة، وعثمان بن ربيعة ابن أهبان.

(١) "تفسير ابن كثير" (٤/٤١٧) «سورة الحاقة».

اشتدَّ البلاء على المسلمين في مكة، وراحت قريش تعذب المستضعفين منهم، وتعاكس الآخرين وتسمعهم قارص الكلام، ثم قررت قريش أن ترسل وفدًا إلى أبي طالب؛ لعله يستطيع أن يكفَّ ابن أخيه عن الدعوة إلى الله!!

### ٣- ارجعوا راشدين:

- يا أبا طالب، إنَّ ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا وسفَّه أعلامنا، وضللَّ آباءنا؛ فإما أن تكفَّه عنَّا، وإما أن تخلِّي بيننا وبينه؛ فإنَّك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيك<sup>(١)</sup>.

وكان جواب النبي ﷺ:

- والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بُعثت به من أن يُشعل أحد من هذه الشمس شعلةً من نار<sup>(٢)</sup>.

فقال أبو طالب:

- والله ما كذب ابن أخي قط، ارجعوا راشدين<sup>(٣)</sup>.

إنَّ النبيَّ ﷺ لا يستطيع أن يدع ما بُعث به لأنَّه من عند الله وبأمر الله تبارك وتعالى، وهذا ما لم تستطع الجاهلية - وكل جاهلية - أن تدركه! ولأنَّه لخير النَّاس جميعًا، فإذا وقف عدد من الأشرار في وجه

(١) "ابن هشام" (١/٢٨٣-٢٨٤).

(٢) حاشية "فقه السيرة" للغزالي (ص١١٥) بقلم الشيخ ناصر الدين الألباني، وقد رجح هذه الصيغة، ولعلَّ تعدُّد الصيغ كان بتعدُّد المواجهة، وهذا ما نرجحه والله أعلم، وستأتي صيغة أخرى.

(٣) نفس المصدر السابق.

الحق الذي بعث الله به أنبياءه للناس فما على الأنبياء وأتباع الأنبياء إلا المضيُّ والصبرُ حتى يحكم الله؛ وهو خير الحاكمين.

انضمَّ إلى موكب النور: حاطب بن الحارث، وامرأته: فاطمة بنت المُجَلَّل.

#### ٤- قَادِمٌ مِنْ غِفَارٍ:

كان شابًا طويلًا نحيفًا أسمر، وكان له أخ أكبر منه اسمه: أنيس؛ أمهما: رَمْلَةٌ بنت الرفيعة، رغب الشاب الطويل الأسمر عن عبادة الأصنام، ففارق قومه وعبدَ الله وحده! وقد بدت لأخيه أنيس حاجة في مكة، فذهب إليها، فلمَّا عاد قال:

- إنِّي لقيت رجلًا بمكة على دينك، يزعم أن الله أرسله.

فسأله أخوه:

- ماذا يقول النَّاسُ؟

قال:

- يزعمون أنه كاذب، وأنه ساحر، وأنه شاعر، وقد سمعت

قوله، فوالله ما هو بقولهم، والله إنِّي لأراه صادقًا<sup>(١)</sup>!

قال أنيس وهو يحدث أخاه:

- رأيتَه يأمر بمكارم الأخلاق، ويقول كلامًا ما هو بالشعر<sup>(٢)</sup>؟

(١) "الإصابة" (١/٧٦/٢٨٩/ترجمة أنيس).

(٢) "الإصابة" (٤/٦٢/٣٨٤/ترجمة أبو ذر).

فقال أخوه:

- ما شفيتني مما أردت<sup>(١)</sup>.

وعزم الشاب على أن يذهب بنفسه إلى مكة، ويسمع من الرجل فأخذ زادًا؛ سنة<sup>(٢)</sup> له فيها ماء، وسار إلى مكة<sup>(٣)</sup>؛ إنه يريد أن يلقي الرجل، أن يسمع منه بنفسه، المسافة من غفار إلى مكة تستغرق بضعة أيام، وطالب الحق لا يثنيه شيء؛ لا سيما إذا كان رجلاً قوي الإرادة، ماضي العزيمة!

عندما وصل إلى مكة صار ينظر في وجوه الرجال.. هذا! بل:

هذا!

ودخل المسجد، كانت الأصنام قد ملأت البيت الحرام، ومجالس قريش ونواديها تحيط به إحاطة السوار بالمعصم، هل يسأل عنه؟! جلس في زاوية من المسجد، وراح يتطلع إلى كل داخل وخارج لعله يستطيع أن يرى النبي ﷺ.

وعندما غربت الشمس رأى أمامه صبيًا لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، عرف أنه غريب، فأشار إليه أن يتبعه، كان الصبي جميلًا نحيفًا ذكيًا أبيض، أخذه إلى بيته، وقدم له طعامًا، ولم يسأله عن شيء! لم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء<sup>(٤)</sup>.

(١) "البخاري" (٥٩/٥ - ٦٠) إسلام أبي ذر.

(٢) قرية.

(٣) تبعد حوالي ٣٥٠ كيلومترًا.

(٤) "البخاري" (٥٩/٥)، و"الإصابة" (٤/٦٣/٤) تسلسل (٣٨٤).

وفي اليوم التالي عاد الرجل إلى المسجد، وراح يتطَّلَع في الوجوه، ولكن كيف يستطيع أن يعرفه وأخوه لم يصفه له؟ هذه الأصنام الخرساء التي تملأ البيت؛ كم هي بغیضةٌ إلى نفسه؟! إنه يريد أن يلقي الرجل الذي يدعو إلى نبذها، وعبادة الله وحده، فلمَّا أمسى المساء جاء الصبي الذكي الجميل، فقال:

- أما آن للرجل أن يعلم منزله<sup>(١)</sup>؟!

فقام معه إلى بيته، لا يسأل أحدهما صاحبه عن شيء! فلمَّا كان اليوم الثالث سأله الصبي:

- ألا تحدَّثني ما الذي أقدمك؟

قال الرجل:

- إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لُتُرشدنني<sup>(٢)</sup> فعلتُ.

ففعل الصبي، فأخبره بالذي أقدمه؛ إنه يبحث عن رجل يدعو إلى عبادة الله، ونبذ عبادة الأحجار الصمَّاء البكماء التي لا تعرف من عبدها، فامتلاً وجه الصبي بابتسامة فرحةٍ وقال:

- فإنَّه حق، وإنه رسول الله ﷺ، فإذا أصبحت فاتبعني فإنِّي إن رأيت شيئاً أخافه عليك قمت كأنِّي أريق الماء، فإن مضيتُ فاتبعني حتى تدخل مدخلي<sup>(٣)</sup>.

فلمَّا كان اليوم التالي انطلق الرجل وراء الصبي حتى دخل على

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) "البخاري" (٥٩/٥) وفي رواية: «لُتُرشدنني».

(٣) "البخاري" (٦٠/٥).

رسول الله ﷺ، فقال:

- السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

فقال:

- وَعَلَيْكَ السَّلَامُ؛ مَنْ أَنْتَ؟

فقلت:

- رَجُلٌ مِنْ بَنِي غِفَارٍ.

فَعَرَّضَ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ؛ فَأَسْلَمْتُ، وَشَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ (١).

فقال لي رسول الله ﷺ:

- ارْجِعْ إِلَى قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ، وَارْتَمِ أَمْرَكَ عَنْ أَهْلِ مَكَّةَ؛ فَإِنِّي

أَخْشَاهُمْ عَلَيْكَ.

فقلت:

- وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُصَوِّتَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانِيهِمْ (٢).

خَرَجَ أَبُو ذَرِّ الْغِفَارِيِّ؛ جُنْدُبُ بْنُ جُنَادَةَ مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ وَقَدْ

تَزَوَّدَ بِشُعْلَةَ هَائِلَةَ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْحِمَاسِ، حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ، فَوَقَفَ

وَنَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ مُتَحَدِّيًا الْأَصْنَامَ الْحَيَّةَ فِي مَجَالِسِهَا وَنَادِيهَا،

وَالْأَصْنَامَ الْمَيِّتَةَ الْقَابِعَةَ فِي أَمَاكِنِهَا.

(١) "الاستيعاب" (٤/٦٣).

(٢) "الاستيعاب" (٤/٦٣).

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله!

وثار القوم، وهجموا عليه يضربونه حتى سقط على الأرض وهم لا يدرون من الرجل؟ حتى أقبل العباس بن عبد المطلب فأكبَّ عليه وقال:

- ويلكم! أستم تعلمون أنه من بني غفار، وأنَّ طريق تجارتكم إلى الشام عليهم؟! وأنقذه منهم!

لكنَّ شعلة الإيمان والحماس في نفس الشاب المؤمن الجديد كانت هائلة وقادة، لم ينل منها ما ناله من ضرب، وسب، وشم؛ فعاد في اليوم التالي إلى المسجد، ونادى بأعلى صوته، صارخاً متحدياً معلناً:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله!

فثاروا إليه مرة ثانية، وانهالوا عليه ضرباً، وأقبل العباس سريعاً فأكبَّ عليه، وأنقذه منهم، ثم خرج أبو ذر من مكة، ولحق بقومه، وذهب إلى أمه وأخيه، فأخبرهما الخبر؛ فقالا:

- ما لنا رغبة عن الذي دخلت فيه<sup>(١)</sup>؛ فأسلما.

الصبي الذكي الجميل الذي أخذ أبا ذر إلى منزله، هو: علي بن أبي طالب، ويبدو أنه لم يأخذه إلى بيت النبي ﷺ؛ فقد كان ربيبه، بل أخذه إلى بيت أبيه أبي طالب، وهنا... نرى صورة عظيمة من

(١) "الإصابة" (١/٧٥-٧٦/تسلسل ٢٨٩).

الأدب الرفيع والأخلاق العالية؛ لم يسأله علي: من أنت؟ ماذا تريد؟ من أين أتيت؟ لم يسأله شيئاً مدّة ليلتين، حتى إذا كانت الثالثة سأله، وبلطف؛ لكي لا ينفّر الرجل:

- ألا تحدّثني بالذي أقدمك هذا البلد؟

ثم تحدّث الرجل بعد أن أخذ على عليّ العهد والميثاق بأن يرشده إلى ما يريد، ولما علم علي لم يقل له: أنا ابن عمه، أنا ربيبه، أنا، أنا، لا، لم يقل شيئاً من هذا، بل قال:

- إنه حقّ، وإنه رسول الله ﷺ.

وانتهت مهمّة علي بإيصال أبي ذر إلى مكان النبي ﷺ، ولما أراد أبو ذر أن يصرخ بإسلامه في المسجد لم يمنعه النبي ﷺ؛ فالأمر يحتاج إلى أن تعلم قريش أن الإسلام قد أخذ طريقه إلى القبائل المحيطة بمكّة، بل إلى القبيلة التي تقف على طريق تجارتهم إلى الشام، وقريش أحرص الناس على أن يكون طريقها آمناً في الذهاب والإياب.

وهكذا انضمّ إلى ركب السعادة رجل يتوقّد إيماناً وحماساً، وراح يدعو قومه إلى الإسلام، فأمن بعضهم!

راحت سياط التعذيب تنهال على ظهور المستضعفين من الذين آمنوا، وتفنّنوا في تعذيبهم، ولكن الطريق إلى الجنّة بقي مفتوحاً على الرغم من كل شيء؛ فبادر إلى دار الإيمان: مُعْتَب بن عوف بن عامر، وحطّاب بن الحارث، وامرأته: فُكَيْهَة بنت يسار.

سارت قافلة الإيمان بأقدام ثابتة إلى الأمام، وصيحات المستهزئين تتعالى من كلّ مكان، والقرآن يُهدّدهم بأسلوبه المعجز:



﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ  
وَقَدْ ﴿٨٥﴾ [مَرِيَمَ : ٨٤-٨٥].

### ٥- ظهرَ على الجَمْر:

علمت أم أنمار بنت سباع الخزاعية أنَّ خَبَّابَ بن الأَرْتِ يتردّد على النبي ﷺ، وعلمت بإسلامه، فأمرته بأن يترك دينه، ويعود إلى عبادة اللات والعُزى، ثم أمرت غلمانها بأن يأخذوه فيعذّبوه حتى يرجع عن دينه، والعبيد المحرومون من أيّة سلطة يُسيئون التصرف عندما توضع في أيديهم بعض السلطة.

أخذوا خَبَّابًا وصاروا يُلصقون ظهره بالرّصْف<sup>(١)</sup>، ويصرخون في وجهه:

- ارجع عن دينك.

وصبر خَبَّابٌ؛ واشتدّ العبيد عليه، وقد شعروا أنهم صاروا سادة عليه! صاروا سادة على أخيهم الذي آمن بالله واليوم الآخر، والذي ملأته عزّة الإيمان حتى استعلى بها على العبيد، وسادات العبيد، وكلّ الأشرار الذين يريدون أن يعبدهم النَّاس من دون الله!!

ومضت أيام والعبيد سعداء بتعذيب أخيهم؛ طاعةً لسيدتهم أم أنمار، والعذاب يزداد على خَبَّاب يوماً بعد يوم، فجاء إلى النبي ﷺ مع عدد من المستضعفين، وكان النبي ﷺ متوسّداً وهو في ظل الكعبة، فقالوا:

- ألا تستنصر لنا؟! ألا تدعو الله لنا<sup>(٢)</sup>!؟

(١) الرّصْف: الحجارة المُحمّاة "أساس البلاغة".

(٢) "البخاري" (٤/٢٤٤).

فقعد وهو محمراً الوجه، فقال<sup>(١)</sup>:

- قد كان الرجل فيمن كان قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيُجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه!! ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظمٍ أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه!!

والله ليؤمنن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه!! ولكنكم تستعجلون<sup>(٢)</sup>.

إنها قافلة طويلة للدعاة إلى الله، بدأت يوم بدأ الصراع بين الكفر والإيمان، فلستم أول من يعذب، ولا آخر من عذب في الله، ورجال الكفر لا يضيقون بشيء أكثر من ضيقهم بالدعاة إلى الله؛ فعلى المؤمنين أن يصابروا، وأن يتأسوا بمن سبقهم، وإن هذا الأمر سيتم لا محالة، وتختفي عناصر الكفر وتلوذ بجحورها كالفئران المذعورة، وليس هذا فقط؛ فالعذاب الأشد والأعظم سيلاقونه في الآخرة.

ونزل القرآن الكريم يقص على المؤمنين نبأ جماعة آمنت بالله واستعلت على إرادة الكافرين:

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ (٣) قُلْ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦)﴾ [البروج: ١ - ٦].

ماذا فعل أصحاب الأخدود؟ لماذا حفروا الأخاديد وأضرموا فيها النار؟ ماذا يريدون أن يفعلوا؟ لماذا اجتمعوا؟ ماذا يريدون أن يشاهدوا؟

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (٤٩٦/١).

(٢) "البخاري" (٢٤٤/٤).

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٧]

ألقوا المؤمنين في النار، وجلسوا ينظرون ويضحكون، إنَّ تعذيب المؤمنين تسلية للكافرين!!

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ٨-١٠].

وماذا للمؤمنين الذين ثبتوا على إيمانهم وماتوا في سبيله؟

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿١١﴾﴾ [البروج: ١١].

ثم يأخذ القرآن الكريم يهدد الكافرين بقوة:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِيءُ وَبَعِيدٌ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٢-١٦].

هل انتهت «سورة البروج»؟

لا؛ ﴿هَلْ أُنثِيَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾﴾ [البروج: ١٧].

مِنَ الْجُنُودِ؟ ما خبرهم؟

﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ١٨-٢٢].

هل انتهت قصة خَبَاب؟

أمرت أم أنمار عبيدها بأن يجمعوا حطبًا، فانطلقوا سراعًا

فجمعوه، ثم أوقدوا نارًا، ثم تركوها حتى تحوّل الحطب إلى جَمْرٍ،  
ثم فرشوا الجَمْرَ على الأرض، ثم جيء بخبّاب، فبطحوه على الجَمْرِ،  
وتكاثروا على يديه ورجليه وصدره!

وهو يصرخ!!

وهم يصرخون:

- ارجع عن دينك!

حتى ذاب شحم ظهره، فأطفأ الجَمْرَ<sup>(١)</sup>!!

وترك خبّاب أساييع لا يستطيع أن يتحرّك.

كان خبّابٌ يومذاك شابًا، لم يبلغ العشرين من العمر!! وهل  
يستطيع أن يتحمّل كلّ ذلك العذاب غير الشباب؟!

## ٦- قلب مطمئن بالإيمان:

ليس غريبًا أن يعذب فرد واحد من عائلة، أما أن تعذب عائلة  
بأكملها؟! أب وأم وأخوان اثنان؟! تلك عائلة ياسر العنسي؛ لم يجد  
آل المغيرة ما يشفي غليلهم من المسلمين إلا أن يعدّبوها من كان تحت  
أيديهم من المستضعفين!!

جاء السفية الأثول<sup>(٢)</sup> الأرعن المجنون، فرعون هذه الأمة: أبو  
جهل ابن هشام، فأخذ يسبُّ سمية بنت خياط؛ أم عمار بن ياسر،  
راح يقذف من فمه القدر كلمات قبيحة قدرة، ولم يكتف بهذا؛ بل

(١) "أسد الغابة" (٣/٩٨/تسلسل ١٦٤).

(٢) الأثول: الذي يتصرّف بغباء.

حمل رمحه فطعنها، فقتلها<sup>(١)</sup>!!

كانت العائلة كلها تعذب؛ ياسر العنسي، سمية بنت خياط، عمّار ابن ياسر، عبد الله بن ياسر<sup>(٢)</sup>، وكان الأخير أصغر من عمّار .

ومات ياسر من جرّاء التعذيب، وكان النبي ﷺ يمرُّ عليهم ويقول:

- صبرًا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة<sup>(٣)</sup>!

وراحت الشياطين تنزل على كل موضع من جسد عمّار حتى نفد صبره فأجابهم إلى ما أرادوا، ولكن قلبه بقي صافيًا صادقًا لم يتغير، لقد أعطاهم بلسانه ولم يعطهم بقلبه!! ونزل القرآن الكريم من «سورة النحل»: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٥﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾ [التحل: ١٠٤-١٠٧].

المسألة جدُّ ليس فيها هزل؛ ليس للذي يدخل في الإسلام أن يخرج منه متى شاء، أو متى ساءت في وجهه الظروف، أو متى لقي شدة وعتًا!!

لا، إنَّ الذي يدخل في الإسلام لا يخرج منه، ولا يتكلَّم أية كلمة تمس الإسلام بسوء، إلا إذا أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، أما إذا

(١) "الاستيعاب" (٤/٣٣٣).

(٢) "الإصابة" (٢/٤٨٢/تسلسل ٥٠٣١).

(٣) هامش "فقه السيرة" للغزالي، قال الشيخ الألباني: حديث حسن صحيح.

شرح بالكفر صدرًا، أما إذا رضي بطريق الضلال، أما إذا تقدّم نحو الكفر خطوات:

﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦].

٧- أحد، أحد:

عندما يشتدّ حرّ الظهيرة تلتهب أرض مكّة بالحرّ، في ذلك الوقت يأمر أمية بن خلف؛ أحد أعمدة الكفر والحقّد على الإسلام، يأمر عبّده بإخراج بلال بن رباح الشابّ الصغير المؤمن، يأمر بإخراجه وطرحه على ظهره في بطحاء مكّة، يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول:

- لا يزال على ذلك حتى يموت أو يكفر بمحمّد<sup>(١)</sup>.

ويصرخ العبيد في وجهه، يأمرونه بالكفر بالله، فيقول:

- أحدًا! أحدًا!

ويزيد صراخهم عليه، فيقول:

- والله لو أعلم كلمة هي أغیظ لكم منها لقلّتها<sup>(٢)</sup>!

ولم يكتف الفاجر الكافر أمية بن خلف بتعذيب بلال؛ بل راح يعدّب أمّه حمّامة أيضًا<sup>(٣)</sup>، وكان يتابع العذاب عليهما كل يوم؛ بل تفنّنوا في تعذيب بلال، فكثّفوه، وجعلوا في عنقه حبلاً من ليف،

(١) "الإصابة" (١/١٦٥/تسلسل ٧٣٦).

(٢) "تفسير ابن كثير" (٢/٥٨٨).

(٣) "الإصابة" (٤/٢٧٤/تسلسل ٣٠١).

ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين جبلي مكة!!

مرَّ أبو بكر الصِّدِّيق فرآه يعذَّب؛ فاشتراه من أمية بن خلف بعبد له أسود كافر، واشترى أمه حَمَامَة وأعتقها.

كان بلال شابًّا طويلاً نحيفًا، وكان له أخ اسمه خالد، وأخت اسمها عُفَيْرَة<sup>(١)</sup>، أخى النبي ﷺ بينه وبين أبي عبيدة عامر بن الجراح.

إنَّ الإيمان إذا استقرَّ في القلب فإنَّه يفعل الأعاجيب! إنَّه يستعلي على المال والجاه والطواغيت، لقد ولد هؤلاء النَّاس من جديد، ولدوا ولادة لا يستطيع الكافرون أن يعرفوها أبدًا لأنَّهم لم يجربوها، ولم يتذوَّقوا طعمها، لذلك كان أبو بكر الصِّدِّيق يبذل ماله في عتق هؤلاء المستضعفين من المسلمين، لا يبتغي بذلك إلا وجه الله، وكانت له يد على كلِّ أحد من المشركين وفضلٌ، ولم يكن لأحد من المشركين عليه يدٌ<sup>(٢)</sup>، وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليه في الآيات الأخيرة من «سورة الليل»:

﴿فَأَنْذَرْتَهُمْ نَارًا تَلْقَوْنَ أَهْلًا لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيَجْزِيهَا الْآلَتَى (١٧) الَّذِي يُوْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)﴾ [الليل: ١٤-٢١].

## ٨- يتحدَّى بالقرآن:

كان شابًّا قصيرًا نحيفًا جدًّا، دقيق الساقين، جلس مع بعض أصحاب النبي ﷺ، وراحوا يتحدثون؛ قالوا:

(١) "الاستيعاب" (١/١٤٣)، و"الإصابة" (٤/٣٧٧/٣) تسلسل (٨٠٦).

(٢) "التوسُّل والوسيلة" لابن تيمية (ص ٣٥).

- والله ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر لها به قط.

ثم تلقّتوا في الوجوه، وقالوا:

- فمن رجلٌ يُسمِعُهُمُوه؟

قال عبد الله بن مسعود:

- أنا.

ونظروا إليه؛ إلى قصرِ قامته، ونحافةِ جسمه، فقالوا:

- إننا نخشاهم عليك، إننا نريد رجلاً له عشيرة؛ يمنعونه من

القوم إن أرادوه.

قال عبد الله بن مسعود بن غافل<sup>(١)</sup>:

- دعوني؛ فإن الله سيمعني.

وفي ضحى اليوم التالي، وعندما كانت قريش في أنديتها المحيطة

بالبيت، طلع عليها شاب قصير نحيف، يقرأ بصوت واضح قوي:

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا

وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ [الرحمن: ١ - ٧].

- من هذا؟

- إنه ابن أمّ عبد.

(١) وَهَمَّ الْمُحَقِّقُ لِلسَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ لِابْنِ هِشَامٍ؛ فَقَالَ: «هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ عَمْرِو الثَّقَفِيِّ»، وَالصَّحِيحُ مَا ذَكَرْنَاهُ؛ وَيَدْعَى ابْنَ أُمِّ عَبْدِ أَيْضًا كَمَا جَاءَ فِي «السَّيْرَةِ» (١/٣٣٦).



- ماذا يقول ابن أمّ عبد؟

- إنه يتلو بعض ما جاء به محمّد.

ومضى الشاب القصير النحيف يتحدّاهم: ﴿أَلَا تَطْغَوْنَ فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾﴾ [الرحمن: ٨-٩]؛  
إنهم يطفّفون الكيل إذا باعوا، ويستوفون أكثر من حقّهم إذا  
ما اشتروا، فالقرآن يأمرهم بإقامة الوزن بالقسط، بالعدل.

﴿وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَكِهَةٌ ﴿١١﴾ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِرِ ﴿١٢﴾  
وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٣﴾﴾ [الرحمن: ١٠-١٣].

ثم استقبلهم يقول: ﴿فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٣]!؟

ولم يصبر القوم أكثر من هذا، وصرخوا به يريدون أن يسكت،  
ولكن مضى يقرأ ويتحدّى، ويواجه قريشاً في أنديتها: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿١٥﴾  
مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٦﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٧﴾﴾ فِي آيِ  
آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾﴾ [الرحمن: ١٤-١٦]!؟ فقاموا إليه، وركضوا  
وراءه وهو يقرأ، ثم انهالوا عليه ضرباً، وهو لا يكفّ عن  
القراءة: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٩﴾ فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٠﴾ مَرَجَ  
الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿٢١﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ﴿٢٢﴾ فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾  
[الرحمن: ١٧-٢١].

واجتمع النَّاسُ الَّذِينَ كَانُوا يَطُوفُونَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ، يَنْظُرُونَ إِلَى  
الشَّابِّ وَهُوَ يُضْرَبُ، وَلَا يَكْفُ عَنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْزُ  
وَالْمَرَجَاتُ ﴿٢٤﴾ فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ  
كُلًّا لَاعْلَمُ ﴿٢٦﴾ فِي آيِ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٧﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٨﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو

الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آيَاتِنَا نُنذِرُكُمْ تَكْذِبَانِ ﴿٢٨﴾ [الرَّحْمَنُ: ٢٢-٢٨]؟!

كان النَّاسُ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْمَعُوا السُّورَةَ إِلَى نَهَائِهَا، وَقَرِيشٌ تُرِيدُ أَنْ يَسْكُتَ، وَتَشْتَدُّ بِالضَّرْبِ عَلَيْهِ حَتَّى أَدْمَوْهُ، ثُمَّ سَكَتَ وَعَادَ إِلَى أَصْحَابِهِ وَقَدْ تَشَوَّهَ وَجْهَهُ مِنْ كَثْرَةِ الضَّرْبِ!! فَتَأَلَّمَ أَصْحَابُهُ، وَقَالُوا:

- هذا الذي خشينا عليك!

فقال بثقة وعزيمة صادقة:

- ما كان أعداء الله أهونَ عليَّ منهم الآن، ولكن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً.

قالوا:

- لا؛ حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون!

هذا الشاب الصغير النحيف الذي كان يرعى الغنم لعقبة بن أبي معيط لم يكن بطلاً من أبطال الحروب، ولكن في موقفه هذا كان بطلاً وأي بطل!! أرادت هذه المجموعة المباركة أن تسمع قريش القرآن من أحد الذين آمنوا لمحمد ﷺ، وإلا فإنَّ النبي ﷺ كان يقرأ عليهم القرآن جهاراً، فكانوا يتشاغلون عنه، ويمنعون النَّاسَ مِنْ سَمَاعِهِ.

٩- إلى الحبشة:

كان يسود المجتمع الجاهلي في مكة نوع من الاحترام المتبادل بين أفرادها، لا سيَّما بين الأسر الكبيرة فيه، وكل الأسر في مكة تعتبر كبيرةً، أليست من قريش؟ وقريش سادة العرب بلا منازع، وقد

أكسبتهم ثقة بأنفسهم، فكان احترامهم لبعضهم عظيمًا! وأي نَيْلٍ من هذا الاحترام دونه القتلُ، وسَلُّ السيوف، وإضرارُ نار الحرب!! وكانت القبيلة تحمي أفرادها من المسلمين من اعتداء أفراد قبيلة أخرى عليهم، ولكن القبيلة نفسها تستطيع أن تنال من بعض أفرادها، والبيت الواحد يستطيع أن ينال من أبنائه!! ولم يكن يتجاوز هذا النَيْلُ في أشد حالاته السبَّ والشتم، والسخرية والإيذاء بالكلام القارص، أو الإعراض والمقاطعة! وحالات قليلة شاذة استعملت بعض الأسر الضرب ضد أحد أبنائها؛ كما فعل أبو أُحَيْحَةَ مع ابنه سعيد.

أما حالات التعذيب الجسدي<sup>(١)</sup> فكانت قليلة جدًا ومحدودة، وهي قد تتجاوز في أكثر حالاتها عدد أصابع اليدين الاثنتين، وإلا فإنها لم تتجاوز ذلك كما روت كتب السيرة!

وقد انصبَّت على الأرقاء منهم فقط، وقد اشتراهم أبو بكر الصِّدِّيق الواحد بعد الآخر وأطلقهم؛ فنَجَّوا من أيدي معذِّبهم، ولعل ما نال صهيبيًا والمقداد لم يكن سوى التعذيب النفسي الشديد، وليس التعذيب الجسدي لأنَّ صهيبيًا كان تاجرًا، واكتسب مكانة في مكَّة عندما حالف عبد الله بن جدعان قبل أن يتوفَّى، وأمَّا المقداد فلم يكن عبدًا؛ تبنَّاه الأسود الكندي، ثم لما توفِّي أبوه تزوَّج الأسود الكندي أمه، وقد تزوَّج المقداد سيده من سيِّدات المجتمع المكي؛ ضُبَاعَةَ بنت الزبير بن عبد المطلب؛ فمن المستحيل أن تمتدَّ إليه يد بسوء وهو الشابُّ القويُّ، الفارسُ البطلُ!

(١) لم يكن تعذيبًا منظمًا مدروسًا كالذي تمارسه الجاهلية الحديثة - جاهليَّة القرن العشرين - كانت العائلة تعذب العبد الذي تملكه حسب مزاجها.

انصبَّ التعذيب الجسدي على بلال، وأمه حَمَامَة، وعلى عَمَّار، وأبيه ياسر، وأمه سميَّة، وعلى خَبَّاب، وزَيْنيرة الروميَّة، وعلى أمِّ عُبَيْس، والنَهديَّة وابنتها، ولبيبة جارية بني المؤمل، وعامر بن فُهيرة، هؤلاء الذين وصلت إلينا أخبارهم، ولا بد من وجود عدد غيرهم لم تذكرهم كتب السيرة، وكلها حالات قليلة مفردة، وقد أجابهم عَمَّار إلى ما أرادوا وقلبه مطمئن بالإيمان، فرُفِع عنه العذاب، وذهب أبواه إلى ربَّهما شهيدين، وأطلق أبو بكر البقيَّة؛ الواحد بعد الآخر، اشتراهم وأعتقهم، فرفع عنهم العذاب!

أما الذي ضاق به المسلمون، ولاقوا من جرَّائه مشقةً وأذىً عظيمين فهو الإزعاج والمضايقة، والسخرية والاستهزاء، والقطيعة، وربما المقاطعة، وهذه الأمور لم يألُفوها، ولم تعود نفوسهم الكبيرة عليها؛ عندئذٍ نزلت آيات القرآن تحثُّهم على الهجرة من مكَّة، فالوطن الذي لا أستطيع أن أتنسَّم فيه ريح الحرية ليس وطني، والأرض التي لا يسمح لي بعبادة الله فيها ليست أرضي، والبلد الذي يضطهد إسلامي ليس بلدي؛ فأرض الله كلها أرضي، وبلاد الله كلها بلادي:

﴿قُلْ يٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

هؤلاء الذين لم يستطيعوا أن يتحمَّلوا الجوّ المشحون بالعداوة والكراهية والاضطهاد في مكَّة أمرهم النبي ﷺ بأن ينطلقوا إلى أرض النجاشي<sup>(١)</sup>؛ قال لهم:

(١) رواه أبو داود (٣/٢٨٧/حديث رقم ٣٢٠٥) عن أبي بردة عن أبيه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نطلق إلى أرض النجاشي».

- لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإنَّ بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه<sup>(١)</sup>.  
وهكذا بدأ خروج المسلمين من مكَّة إلى أرض الحبشة، ولعلَّ هذا مما أثلج قلوب المشركين؛ حيث رأوا أنَّ المسلمين يقتلون من حول النبي ﷺ فلم يمنعوا أحدًا من الهجرة<sup>(٢)</sup>.

### ١٠- قتلناه بسيفه:

بدأ الرعيل الأول من المسلمين يستعدُّون للهجرة إلى الحبشة؛  
أولهم:

عثمان بن عفان مع زوجته رقيَّة بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة ابن عتبة، وزوجته سهلة بنت سُهيل، والزبير بن العوام بن خويلد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة؛ عبد الله بن عبد الأسد، وزوجته أمُّ سلمة، ومُصعب بن عمير؛ في عشرة رجال وأربع نسوة.

وكانت ليلى بنت حثمة القرشيَّة العدويَّة تستعدُّ للهجرة مع زوجها عامر بن ربيعة العنزي وقد ذهب عامر في بعض حاجاته؛ إذ أقبل عمر ابن الخطاب فوقف عليها، فقال:

- إِنَّهُ لَلانْطَاقُ يَا أُمَّ عَبْدِ اللَّهِ؟

(١) "ابن هشام" (١/٣٤٤).

(٢) "سيرة الرسول" لمحمَّد عزَّة دروزة (ص٢٣٩).

ومن النصوص العامة في الهجرة ما أورده ابن كثير مما رواه الإمام أحمد بسنده عن الزبير بن العوام؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «البلاد بلاد الله، والعباد عباد الله؛ فحيثما أصبت خيرًا فأقم» "تفسير ابن كثير" (٣/٤١٩).

فأجابته بشدة:

- نعم والله، لنخرجنَّ في أرض الله، أذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجًا!

فقال:

- صَحِبِكُمُ اللهُ<sup>(١)</sup>!

لقد شعرت ليلي - وشعور المرأة لا يكذب أحيانًا - في كلامه رقة لم تعهدها في عمر من قبل، وشعرت أيضًا كأنَّ خروجهم أحزنه!!

فلَمَّا جاء زوجها عامر لحاجته قالت له:

- يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر أنفًا ورقته وحزنه علينا!

فنظر إليها عامر وقال:

- أطمعت في إسلامه؟

قالت:

- نعم.

قال:

- فلا يُسلم الذي رأيت حتى يُسلم حمار الخُطَّاب!!

قال ذلك يأسًا منه؛ لِمَا كان يرى من شدة عمر وقسوته على

الإسلام!

مضى الرعيل الأول في طريقه إلى الحبشة، وعاد عمر بن

(١) "ابن هشام" (١/٣٦٧).

الخطاب ليسمع أن رجلاً من بني مخزوم قد أسلم، وربما كان صديقاً حميماً لعمر، فذهب إليه عمر، فقال له:

- أرغبت عن دين آبائك إلى دين محمّد؟!!

فأجابه الرجل بلا تردّد:

- قد فعل ذلك من هو أعظم عليك حقاً مني.

قال:

- ومن هو؟!!

قال:

- أختك وختك<sup>(١)</sup>.

أخته: فاطمة بنت الخطاب، وزوجها: سعيد بن زيد بن عمرو.

توشّح عمر بن الخطّاب سيفه، وخرج يريد رسول الله ﷺ، فلقيه

نُعَيْم بن عبد الله النّحام، وكان يكتّم إسلامه، فسأله:

- أين تريد يا عمر؟

فقال:

- أريد محمّداً؛ هذا الصّابئ الذي فرّق أمر قريش، وسفّه

أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فأقتله!

فقال له نُعَيْم:

- والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر؛ أترى بني عبد مناف

(١) "الإصابة" (٤/٣٨١/٤) تسلسل (٨٣٧) ترجمة فاطمة بنت الخطاب.

تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال:

- وأي أهل بيتي؟

قال:

- ختنك وابن عمك: سعيد بن زيد، وأختك: فاطمة بنت الخطاب؛ فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه؛ فعليك بهما.

كان النبي ﷺ يأمر بكتابة القرآن أولاً بأول، ثم تؤخذ النسخة فتقرأ على الذين لا يستطيعون الاتصال المباشر بالنبي ﷺ، وكان خباب بن الأرت مكلّفاً بالاتصال بسعيد بن زيد وزوجه، وقد ذهب إليهما ذلك اليوم حاملاً إليهما صحيفة فيها من «سورة طه» يقرئهما إيّاها، فلما سمعوا حسّ عمر تغيب خباب في مخدع لهم في البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة فأخفتها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل سألهما غاضباً:

- ما هذه الهيئمة التي سمعتُ؟!!

فأجابه سعيد وزوجه:

- ما سمعت شيئاً.

قال:

- بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه.

وضرب سعيداً، فقامت فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجّها؛



فصاح سعيد:

- نعم؛ قد أسلمنا وآمنَّا بالله ورسوله؛ فاصنع ما بدا لك<sup>(١)</sup>!

ونَهَضت أخته كاللبؤة، وصرخت والدم يسيل على وجهها:

- قد كان ذلك على رغم أنفك.

فاستحييتُ حين رأيتُ الدم، وقلتُ<sup>(٢)</sup>:

- أروني الكتاب!

وعاد إلى أخته، فقال لها بصوت فيه شيء من الرقة:

- أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون أنفاً أنظر ما هذا

الذي جاء به محمد!

قالت أخته وقد طمعت في إسلامه:

- إنَّا نخشاك عليها!

قال:

- لا تخافي.

وحلف لها بآلته ليردَّتها إذا قرأها إليها.

قالت:

- يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسه إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل؛ فأعطته الصحيفة، فراح يقرأ:

(١) "ابن هشام" (١/٣٦٩).

(٢) "الإصابة" (٤/٣٨١/تسلسل ٨٣٧).

﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ نَزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ [طه: ١ - ٨].

ورفع عمر رأسه ينظر إلى أخته التي طمعت أكثر وأكثر في إسلام أخيها، وطمع سعيد بن زيد في ذلك أيضاً، ومضى عمر يقرأ: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿... لِنُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى ﴿١٥﴾﴾ [طه: ٩-١٥]

ورفع عمر رأسه، وتمتم بصوت خفيض:

- ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمَه! (١)

ثم رفع صوته مردداً:

- ما أطيبَ هذا الكلام وأحسنَه!

فلما سمع خباب ذلك قفز من مخبئه وهو يقول:

- يا عمر، والله إنني لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيه؛

فإنني سمعته أمس وهو يقول:

اللهمَّ أيد الإسلام بأبي الحكم ابن هشام، أو بعمر بن الخطاب (٢)!

(١) "ابن هشام" (١/٣٧٠) والعبارة الثانية في هامش الصفحة نفسها.

(٢) في "الإصابة": «اللهمَّ أعزَّ الإسلام بأحبَّ الرُّجُلين إليك؛ بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل ابن هشام».

فالله الله يا عمر!

قال عمر:

- فدلّني يا خبّاب على محمّد حتى آتته فأسلم.

قال خبّاب:

- هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه.

ذهب عمر بن الخطّاب إلى بيت الأرقم بن أبي الأرقم الذي عند الصفا، والذي كان فيه النبي ﷺ، وحمزة، وعدد من المسلمين، وطرق الباب - وكان عمر ما يزال متوشّحاً سيفه - وسمعوا صوته، فقام رجل ونظر من خلل الباب؛ فراه متوشّحاً السيف، فعاد إلى رسول الله ﷺ فزعاً، وقال:

- يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشّحاً السيف!

فقال حمزة بن عبد المطلب:

- فائذن له؛ فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً

قتلناه بسيفه!

هكذا يكون جواب الأبطال؛ إذا جاء يُريد خيراً بذلناه له، وإذا جاء

يُريد شراً قتلناه بسيفه؛ قتلناه بسيفه لا بسيفنا!! وفي سكوت النبي ﷺ

تأييد لجواب عمّه حمزة بن عبد المطلب.

فقال رسول الله ﷺ:

- ائذن له.

فأذِنَ له الرجل، ونهض النبي ﷺ فأخذ بمجمع رِدائه، وجَبَدَه<sup>(١)</sup> جَبْدَةً شديدة، وقال:

- ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعةً!

فقال عمر:

- يا رسول الله، جئتُك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله!

لقد بدأ إيمان عمر بن الخطاب يتزعزع بألته يوم استمع إلى النبي ﷺ وهو يقرأ «سورة الحاقة» في المسجد.

ثم يوم رأى ليلى العدوية تهاجر من مكّة مع زوجها حفاظًا على دينها، وأخيرًا عندما واجهته أخته صارخةً في وجهه:

- قد كان ذلك على رَغم أنفك!!

ثم تساقطت جميع القيود التي كانت تشدّه إلى الأوثان عندما تناول الصحيفة المباركة وقرأ فيها صدرًا من «سورة طه»، ولم ينتظر إلى اليوم التالي، أو الذي بعده، أو الذي بعده؛ بل ذهب فورًا، وبلا تردد ليعلن:

- يا رسول الله، جئتُك لأؤمن بالله ورسوله!

(١) جذب بمعنى جذب، ولكن يبدو أنها تستعمل إذا كانت الجذبة شديدة، والقصة في "سيرة ابن هشام" و"الإصابة" (٢/٥١٨/تسلسل ٥٧٣٦) ولكن في "ابن هشام" أتم.

- الله أكبر!

هتف النبي ﷺ؛ فعلم أهل الدار أن عمرَ قد أسلم، وأنَّ الإسلام قد ضمَّ إليه أشجعَ رجلين؛ حمزة وعمر، أنَّ الإسلام سيظهر، ورايته ستعلو، وأنَّ الكافرين في هزيمة ولا بد، والله غالب على أمره!!

انضمَّ إلى القافلة الناجية: نافع بن بُدَيْل بن وَرَقَاء، وهشام بن العاص؛ أخو: عمرو بن العاص، والحارث بن مَعْمَر بن حبيب الجُمحي، وبهذا يكون ثلاثة قد انضمُّوا إلى نور الإسلام؛ أبُّ وابنُ وجدُّ، الحارث بن حاطب، وحاطب بن الحارث بن مَعْمَر، والحارث ابن مَعْمَر بن حبيب!! وقد ذكرنا الابن والأب في الصفحات الماضية.

كما أسلم عبد الله بن عمر بن الخطاب، وكان صغيرًا، ربما في السادسة من عمره، وأسلمت أمُّه: زينب بنت مضعون؛ أخت عثمان ابن مضعون.

### ١١- يصلي عند الكعبة:

كان عمر في الثالثة والثلاثين من عمره يوم أسلم، وكان طويلًا جسيمًا أبيض، ذهب في صباح اليوم التالي إلى بيت خاله أبي جهل وطرق عليه الباب، فخرج أبو جهل فقال:

- مرحبًا وأهلاً بابن أختي، ما جاء بك؟

قال:

- جئت لأخبرك أنني قد آمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما

جاء به!

فضرب أبو جهل الباب في وجهه، وقال:

- قَبَّحَكَ اللهُ، وَقَبَّحَ مَا جِئْتَ بِهِ!

لم يكتف عمر بن الخطاب بهذا، بل ذهب إلى جميل بن مَعْمَر

الجمحي، فقال له:

- أَعَلِمْتَ يَا جَمِيلَ أَنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ وَدَخَلْتُ فِي دِينِ مُحَمَّدٍ؟!

فما أجابه جميل بكلمة، وإنما نهض مسرعاً حتى قام على باب

المسجد، وصرخ بأعلى صوته:

- يَا مَعْشَرَ قَرَيْشَ، أَلَا إِنَّ عَمْرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَدْ صَبَأَ!

فصاح عمر من خلفه:

- كَذِبٌ، وَلَكِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ، وَشَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ

مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ!

وثاروا إليه من أنديتهم التي حول الكعبة، وراح يضربهم

ويضربونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم<sup>(١)</sup>، وتعب فقعد، وقاموا

على رأسه، وهو يقول:

- افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو قد كنَّا ثلاثمئة رجل لقد

تركناها لكم أو تركتموها لنا.

فبينما هم كذلك إذ أقبل العاص بن وائل في حُلَّةِ حَبْرَةَ، وقميص

موشى حتى وقف عليهم، فقال:

(١) أي: إلى وقت الظهر.

والقصة والتي قبلها في "ابن هشام" (١/٣٧٤، ٣٧٥).

- ما شأنكم؟!؟

قالوا:

- صبأ عمر!

قال:

- فَمَه؛ رجل اختار لنفسه أمرًا فماذا تريدون؟! أترون بني عدي

ابن كعب يُسلمون لكم صاحبهم هكذا؟!؟

خلُّوا عن الرجل.

لم يكتف عمر بهذا؛ بل صار يأتي كلَّ يوم إلى الكعبة، ويقا تل

المشركين، حتى استطاع أن يصلِّي عند الكعبة، وصلَّى المسلمون معه<sup>(١)</sup>.

قال عبد الله بن مسعود:

- ما زلنا أعرَّة منذ أسلم عمر<sup>(٢)</sup>.

والإسلام في كل زمان، يحتاج إلى رجال من هذا النوع، ومن

كلِّ نوع جيد.

## ١٢- الوفد المبارك:

بلغ عدد المهاجرين إلى الحبشة أكثر من ثمانين رجلًا وعشرين

امرأة، وقد أرسلت قريش وراءهم عمرو بن العاص وعُمارة بن الوليد

ليُظَلِّعوا على وضعهم؛ لعلَّهم ظنُّوا أنهم سيثيرون النجاشي ضدَّهم،

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (٣٢/٢).

(٢) "البخاري" (١٤/٥).

وقد عاد عمرو بن العاص وعُمارة بما يرضي قريش ويطمئننها!  
وبالمقابل أرسلت الحبشة عشرين رجلاً<sup>(١)</sup> من النصارى حين  
بلغهم خبر النبي ﷺ من المسلمين الذين هاجروا إلى هناك، فوجدوه  
في المسجد، فجلسوا إليه، وكلموه، وسألوه، ورجال من قريش في  
أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا  
دعاهم إلى الله ﷻ وقرأ عليهم سورة ﴿يَس﴾ ﴿١﴾ و﴿الْحَكِيمِ﴾ ﴿٢﴾  
[يس: ١-٢] حتى ختمها، فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من  
الدمع فجعلوا يبكون، ثم استجابوا لله، وآمنوا به وصدَّقوه، وعرفوا  
منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره.

قام الوفد المبارك الذي آمن بالله ورسوله فاعترضهم أبو جهل ابن  
هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم:

- خيبيكم الله من ركب! بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون  
لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم  
دينكم وصدَّقتموه بما قال! ما نعلم ركباً أحق منكم.

فقالوا لهم:

- سلام عليكم، لا نُجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم  
عليه، لم نأل أنفسنا خيراً<sup>(٣)</sup>!

سلام عليكم، لا نقابل جهلكم بجهل مثله!

(١) في "تفسير ابن كثير" (ص ٣٩٣) عن سعيد بن جبير: سبعين رجلاً.

(٢) "تفسير ابن كثير" (ص ٣٩٣).

(٣) "ابن هشام" (٣٢/٢)، قيل إنَّ الوفد كان من أهل نجران.



لنا ديننا، ولكم دينكم، لم نطلب لأنفسنا إلا الخير!

وراح الوفد الكريم، وقد كُتبت له من صحبة نبينا ﷺ بقدر مُكثه معه وإيمانه به؛ فهم أصحاب النبي ﷺ بهذا المعنى! وبئس الموقف كان موقف الكافر الجاهل المغرور أبي جهل؛ لقد جاء الوفد بنفوس صافية، راضية متطلّعة للحقّ، لا تريد غير الحقّ، وصفة النبي ﷺ موجودة بين أيديهم، في كتبهم، فلمّا رأوه، وسمعوا كلامه وسمعوا القرآن، آمنوا فوراً بلا تردّد، ولماذا يتردّدون وقد رأوا الحقّ الأبلج أمام أعينهم؟! وقد استكثرت قريش هذا، وغازها ما رأت من سرعة إجابة الوفد وإيمانه، وهي لا تعلم، وأنى لها أن تعلم أنّ الإيمان قد لا يحتاج إلا إلى قِدْحَةٍ صغيرة فيلتهب!!

لعلّ الوفد كان مكوّناً من سبعين رجلاً - كما ذكر سعيد بن جبير، رحمه الله - ولكن الذين قابلوا النبي ﷺ كانوا عشرين رجلاً، وقد نابوا عن إخوانهم.

في هؤلاء، وفي غيرهم على طول الدهر نزلت هذه الآيات من «سورة القصص»: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ ؕ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْنِئُ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٢-٥٥].

وفي الحبشة حدث ما لم يكن في الحساب!!

فقد تنصّر عبيد الله بن جحش؛ أحد الأربعة الذين رفضوا دين

المشركين من العرب قبل الإسلام، وكان قد أسلم في مكة، هو وزوجته رَمْلَة بنت أبي سفيان، وأخوه عبد الله، وأخوه أبو أحمد الضير، وهو ابن عمّة النبي ﷺ، وفي الحبشة رُزق بنت أسماها حبيبة.

ارتدّ هذا الرجل عن الإسلام، وراح يسخر من المسلمين، ولكنه لم يعد إلى مكة بل بقي في أرض الحبشة حتى مات فيها!!  
كيف حدث هذا؟!

لقد كان من السابقين إلى الإسلام، وتحمّل في سبيله الإهانة والأذى والسخرية، وتحمّل مشاقّ الهجرة والسفر، حتى إذا استقر به المقام في أرض الحبشة ارتدّ!!

لم تكن شجرة الإيمان راسخة في أعماق نفسه رسوخًا يصمد أمام ما كان يُغريه ويفتنه في بلاد الكفر، وهذا يعطينا درسًا وعبرة بليغة؛ في أن الإيمان، وهو الشيء الثمين الذي يظفر به المسلم، يحتاج إلى تعهد مستمر وعناية دائمة؛ لئلاّ يذبل ويذوب كما تذبل النبتة إذا انقطعت عنها عوامل البقاء والنماء والإزهار.

هل تستطيع الوردة الغضة الطرية أن تعيش إذا انقطع عنها الماء والضياء؟!

هل تستطيع السمكة أن تعيش خارج الماء؟! (١)



(١) الرواية الواردة في تنصّر عبيد الله بن جحش لم تصحّ. (الألوكة).

(٧)

الصَّحِيفَةُ الظَّالِمَةُ

«والله لو وضعوا الشَّمْسَ في يميني والقمرَ في يساري،  
على أن أترك هذا الأمرَ حتى يظهره الله،  
أو أهلك فيه: ما تركته!»

## ١- الشَّمْسُ والقَمَرُ:

قَرَّرَتِ الأصْنَامُ الحَيَّةَ التي نَصَبَتْ نَفْسَهَا للدِّفَاعِ عَنِ الأصْنَامِ المَيِّتَةِ  
أَنْ تَذْهَبَ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى أَبِي طَالِبٍ؛ لَا بَدَّ أَنْ يَكْفَى ابْنَ أَخِيهِ عَنِ  
سَبِّ آلِهِتِهِمْ، هَذِهِ الْأَحْجَارُ الصَّمَاءُ البَلِيدَةُ التي لَا تَدْرِي لِمَاذَا تُقَامُ  
كُلُّ هَذِهِ الضَّجَّةِ مِنْ أَجْلِهَا!!

- يَا أَبَا طَالِبٍ، إِنَّ لَكَ سَنًا وَشَرْفًا وَمَنْزِلَةً فِينَا، وَإِنَّا قَدْ اسْتَنْهَيْنَاكَ  
مِنْ ابْنِ أَخِيكَ فَلَمْ تَنْهَ عَنَا، وَإِنَّا وَاللَّهِ لَا نَصْبِرُ عَلَى هَذَا؛ مِنْ شَتْمِ  
آبَائِنَا، وَتَسْفِيهِ أَحْلَامِنَا، وَعَيْبِ آلِهِتِنَا حَتَّى تَكْفَهُ عَنَا، أَوْ نَنْزِلَهُ وَإِيَّاكَ  
فِي ذَلِكَ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ!!

لَمْ يَسْتَطِعْ أَبُو طَالِبٍ أَنْ يَجِيبَهُمْ بِشَيْءٍ، وَبِمَاذَا يَجِيبُ؟! فَبَعَثَ إِلَى  
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ لَهُ:

- يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّ قَوْمَكَ قَدْ جَاؤُونِي، فَقَالُوا لِي؛ فَأَبْقِ عَلَيَّ  
وَعَلَى نَفْسِكَ، وَلَا تَحْمِلْنِي مِنَ الْأَمْرِ مَا لَا أُطِيقُ!

فَظَنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَدْ ضَعُفَ عَنِ نَصْرَتِهِ، وَهُوَ قَدْ  
ضَعُفَ فَعَلًا، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ كَلِمَتَهُ المَشْهُورَةَ التي سَجَّلَتْ بِمَدَادِ  
مِنْ نُورٍ:

- يَا عَمَّ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسُ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي  
عَلَى أَنْ أَتْرِكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ، أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ: مَا تَرَكْتَهُ!

وَاسْتَمَدَّ أَبُو طَالِبٍ - الَّذِي تَجَاوَزَ السَّبْعِينَ مِنَ العَمْرِ - مِنْ عَزِيمَةِ  
النَّبِيِّ ﷺ عَزِيمَةً، وَمِنْ ثَبَاتِهِ ثَبَاتًا، فَقَالَ لَهُ:

- اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت؛ فوالله لا أسلمك لشيء أبداً<sup>(١)</sup>.  
 من أين للجاهلية أن تفهم، من أين لذلك الوفد الأثول الذي  
 ذهب إلى أبي طالب ليطلبوا إليه أن يكفّ ابن أخيه عن الدعوة إلى الله  
 فتعود الحالة إلى مجراها الطبيعي، من أين لهم أن يعلموا أو يفهموا  
 أن دعوة الله غالية فوق المساومات والمناورات والأعيب القوم!!  
 الجاهلية المتمرّغة في الأوحال، الساقطة في حمأة الرذيلة والشهوات  
 لا تستطيع أن ترتفع إلى الأفق العالي الذي دعاهم إليه ربهم، رب  
 السماوات والأرض وما بينهما!

إنما الرسل سفراء الله إلى خلقه؛ فهل يستطيع السفير أن يعدّل أو  
 يبذل، أو يزيد أو ينقص شيئاً مما يريد الله تعالى؟! إنه لا يستطيع،  
 لا يستطيع أن يتوانى عن الدعوة إلى الله، ولا يستطيع إلا أن يبلغ ما  
 يريد الله تعالى وليكن ما يكون!! الجاهلية في كل عصورها قاصرة  
 عن إدراك هذه الحقيقة لأنها التصقت بالأرض، وتمرّغت في الطين،  
 فتفكيرها لا يتعدّى شهوة، أو نزوة، أو مالا يُغتصب، أو منصباً، أو  
 مظهرًا من مظاهر الحياة الدنيا، وكلها أشياء تافهة لا ترفع صاحبها  
 إلى مصافّ المقبولين من عباد الله الصالحين!!

## ٢- ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾:

يحرص النبي ﷺ أشدّ الحرص على هداية قومه، لا سيّما هؤلاء  
 النفر الذين وقفوا سداً منيعاً دون وصول الخير إلى عامّة الناس من  
 قريش، وقد أخذ النبي ﷺ بتوجيه القرآن: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ

(١) "سيرة ابن هشام" (١/٢٨٤، ٢٨٥).

وَأَهْجُرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ [المزمل: ١٠]؛ والهجر الجميل: الذي لا عتاب فيه، ولا خصام، ولا مُفاصلة!

كان النبي ﷺ جالسًا مع الوليد بن المغيرة في المسجد، وفي المجلس عدد من رجال قريش، فجاء النضر بن الحارث، فكلّمه النبي ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليهم من سورة الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَتُولَاءَ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٨-١٠٠].

ونهض النبي ﷺ فتركهم وانصرف، وبعد قليل أقبل عبد الله بن الزبّعري السهمي<sup>(١)</sup> حتى جلس معهم، فقال الوليد: والله ما قام النضر ابن الحارث لابن عبد المطلب أنفًا وما قعد؛ لقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم.

فقال عبد الله بن الزبّعري:

- أما والله لو وجدته لخصمته؛ فسلوا محمدًا: أكل ما يُعبد من دون الله في جهنم مع من عبده؟ فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عُزيرًا، والنصارى تعبد المسيح عيسى بن مريم!

فعجب الوليد بن المغيرة ومن كان حاضرًا في المجلس من قول ابن الزبّعري، ورأوا أنه قد احتجّ وخاصم، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ؛ فقال:

(١) الشاعر، والقصة في "ابن هشام" (١/٣٨٤، ٣٨٥)، و"تفسير ابن كثير" (٣/١٩٨، ١٩٩).

- كل من أحبَّ أن يُعبَدَ من دون الله فهو مع من عبده؛ إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته!

فأنزل الله تبارك وتعالى من سورة الأنبياء: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١١١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١١٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَاقَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣].

قال ابن كثير في "التفسير":

- وهذا الذي قاله ابن الزبير خطأ كبير لأن الآية إنما نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جماد لا تعقل؛ ليكون ذلك تقريراً وتوبيخاً لعبديها، فكيف يورد هذا على المسيح والعزير، ونحوهما ممن له عمل صالح، ولم يرضَ بعبادة من عبده؟!

كانت قريش ترى أن اليهود والنصارى ليسوا على شيء لأنهم يعبدون عزيراً والمسيح، أما هم - قريش - فإنهم يعبدون الملائكة، ويقولون: إنهم بنات الله؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وكانوا يظنون أنهم على أفضل الدين، ولو أرسل الله إليهم رسولاً لكانوا أهدى من إحدى الأمم؛ أهدى من اليهود والنصارى وغيرهم وغيرهم!

ولكن؛ ما صفة النذير، أو الرسول الذي أرادوه؟ إنَّ الرسول الذي أرسله الله لهم تجتمع فيه كلُّ الفضائل الإنسانية، جميع الأخلاق العالية، كل الصفات الطيبة المرضية، وهم يعرفون سيرته وصدقته، وأمانته وعقله، وكرمه وشجاعته، فماذا يريدون؟!

يريدون أحد أعمدة الكفر والخسة والضلالة، يريدون أحد هذه



الأصنام الحيَّة التي تستهين بالنَّاس، وحياة النَّاس وكرامة النَّاس!!  
وهذا الداء - داء الكِبْرِ، والخِسَّة، والضَّعَّة - هو الذي أخرج إبليس  
من زُمرَةِ الملائكة؛ تاه على آدم في سجدة، وصار قَوَادًا لذريَّته! انحطَّ  
انحطاطًا وضيعةً ما بعده انحطاط!

المسيح وعُزير، والأخبار والرهبان، ومن جاء بعدهم من المشايخ  
من عباد الله الصالحين لا يرضون بعبادة النَّاس لهم، ولكنَّ الكهنة  
والسَّدنة والمنتفعين في كل عصر ممن باعوا دينهم بعرض من الدنيا  
التافهة؛ هؤلاء سيكونون حصبَ جهنم!!

انتقل إلى دار السعادة: مَحَجَن بن الأدرع الأسلمي، ومُهَجَع  
العَكِّي؛ وكان من عَكَّة، فأصابه سِبَاءٌ، وقدموا به إلى مكَّة، وكان  
مولى لعمر بن الخطاب فأعتقه عمر.

### ٣- ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾:

أسرع النبي ﷺ إلى الجماعة من قريش الذين اجتمعوا بعد غروب  
الشمس عند ظهر الكعبة..

فأرسلوا في طلبه قائلين:

- إِنَّ أَشْرَافَ قَوْمِكَ قَدْ اجْتَمَعُوا لَكَ لِيَكَلِّمُوكَ.

كان النبي ﷺ يحبُّ رشدَهم ويعزُّزُ عليه عنَّتهم، لذلك جاءهم  
سريعًا وهو يرجو الخير لهم!

كان فيهم أبو سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة، وزمعة بن  
الأسود، والعاص بن وائل، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعبد الله بن أبي

أمية؛ ابن عمّة النبي ﷺ: عاتكة بنت عبد المطلب، فقالوا:

- يا محمّد، إنّنا قد بعثنا إليك لنُعذر فيك، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك؛ لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وسفّته الأحلام، وشتمت الآلهة، وفرقت الجماعة، فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك! فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سوّدناك علينا، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رئيّاً تراه قد غلب عليك<sup>(١)</sup> - فربما كان ذلك - بذلنا أموالنا في طلب الطّب حتى نُبرئك منه أو نُعذر فيك.

فقال رسول الله ﷺ:

- ما بي ما تقولون؛ ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً نذيراً، فبلغتكم رسالات ربّي، ونصحت لكم؛ فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

فقالوا:

- يا محمّد، فإن كنت غير قابل منّا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق منّا بلاداً ولا أقلّ مالاً، ولا أشدّ عيشاً

(١) كانوا يسمون التابع من الجن: الرئيّ.

مَنَّا؛ فاسأل لنا ربَّكَ الذي بعثك بما بعثك به فليسيرَ عَنَّا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر فيها أنهارًا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قُصي بن كلاب؛ فإنه كان شيخًا صدوقًا، فنسألهم عمَّا تقول: حق هو أم باطل؟ فإن صنعت ما سألتناك وصدَّقوك صدَّقناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وأنه بعثك رسولًا كما تقول.

فقال لهم رسول الله ﷺ:

- ما بهذا بُعثت؛ إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به، فقد بلَّغْتُكم ما أرسلت به إليكم؛ فإن تقبلوه فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبرُ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.  
قالوا:

- فإن لم تفعل لنا هذا فخذ لنفسك؛ فسل ربَّكَ أن يبعث ملكًا يصدِّقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وتسأله فيجعل لك جنات وكنوزًا وقصورًا من فضة وذهب، ويغنيك بها عمَّا نراك تبتغي؛ فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه؛ حتى نعرف فضل منزلتك من ربِّكَ إن كنت رسولًا كما تزعم!

فقال لهم رسول الله ﷺ:

- ما أنا بفاعل؛ ما أنا بالذي يسأل ربَّه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيرًا ونذيرًا؛ فإن قبلوا ما جئتكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة، وإن تردُّوه عليَّ أصبرُ لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم.

قالوا:

- فأسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ذلك؛ فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال لهم رسول الله ﷺ:

- ذلك إلى الله؛ إن شاء فعل بكم ذلك.

وقال أحدهم:

- نحن نعبد الملائكة؛ وهي بنات الله.

وقال آخر:

- لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً.

فلما قالوا ذلك قام رسول الله ﷺ عنهم، وقام معه عبد الله بن أبي أمية؛ ابن عمته عاتكة، فقال:

- يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله فلم تفعل ذلك، ثم سألوك أن تعجل لهم ما تخوفهم به من العذاب؛ فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بصحيفة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول وايم الله لو فعلت ذاك لظننت أنني لا أصدقك!!

وانصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزناً أسفاً لما فاته مما كان طمع فيه من قومه حين دَعَوه، ولما رأى من مباعدهم إياه، ونزل القرآن الكريم من سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا

مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ  
الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقَطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ  
تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي  
السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى تُنزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي  
هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٣] (١)؟!

لقد تكررت عروض المال، والسيادة، والشرف والملك على  
النبي ﷺ أكثر من مرة، ولكن هل كان القوم جادّين في عروضهم؟ إن  
كل واحد منهم كان يطمع في السيادة والملك والثروة، بل كان يطمع  
في النبوة!!

لذلك ناصبه هؤلاء العداء حسداً من عند أنفسهم! طلبوا إليه أن  
يسير الجبال ويجري الأنهار حتى تعود مكة جنة خضراء، هل بيده  
شيء من هذا؟

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

وماذا في يد البشر الرسول إلا أن يبلغ رسالات ربه، وينذر ويبشّر  
وينصح؛ فإن قبلوا منه ما جاءهم به فهو حظهم في الدنيا والآخرة، وإن  
يردّوه يصرّ لأمر الله، ويمضي في دعوته حتى يحكم الله بينه وبينهم!!

وعبد الله بن أبي أمية؛ ابن عمته الذي كان المفروض أن يقف  
إلى جانبه، أو أن يسكت = طلب إليه أن يرقى في السماء، ويأتي  
بصحيفة منشورة، وأربعة من الملائكة يشهدون له، ومع كل ذلك قال:

- وايم الله لو فعلت ذلك لظننتُ أنني لا أصدقك!

فهم لا يريدون الحق، ولا يريدون أن يصدقوا ابتداءً، فلم إذن كل هذه الأسئلة؟!

إنها الجاهلية الثولاء الرعناء التي لا تكف عن مضايقة الدعاة إلى الله! إنه الباطل يريد أن يتكلم، ويتكلم، وهو يظن أن لا حسيب ولا رقيب على كلامه! ولكن الله تبارك وتعالى سجّل عليهم ذلك كله، ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الإسراء: ٩٤-٩٦].

#### ٤- التوبة والرحمة:

سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحى عنهم الجبال فيزرعوا... ف قيل له:

- إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا؛ فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم الأمم! قال:

- لا، بل أستأني بهم<sup>(١)</sup>.

قالت قريش للنبي ﷺ:

- ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبًا، ونؤمن بك.

قال:

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (٤٨٢/١)، والحديث رواه الإمام أحمد، ورواه النسائي من حديث جرير.

- وتفعلوا؟

قالوا:

- نعم.

فدعا.

فأتاه جبريل، فقال:

- إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ، وَيَقُولُ لَكَ:

- إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ الصِّفَا لَهُمْ ذَهَبًا؛ فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَعَذَّبَهُ  
عَذَابًا لَا أَعَذَّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ الرَّحْمَةِ  
وَالْتُوبَةِ.

قال:

- بَلِ التُّوبَةُ وَالرَّحْمَةُ (١)!

لعلَّ مما حدا بأهل مَكَّةَ، أو بزعمائها خاصة إلى طلب الآيات =  
ما تلاه القرآن عليهم من أخبار الأنبياء والأمم السابقة، وظنُّوا أنه  
مجرد طلب؛ إذا تحقَّق أو لم يتحقَّق فهم ماضون على كفرهم وعنادهم  
وإصرارهم!! ولعل مثل هذا الأمر محتمل الوقوع إذا كان مع البشر،  
أما إذا كان مع الله تبارك وتعالى الذي له الكبرياء في السماوات  
والأرض، فالأمر يختلف تمامًا:

- إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ الصِّفَا لَهُمْ ذَهَبًا؛ فَمَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ أَعَذَّبَهُ

عَذَابًا لَا أَعَذَّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ!؟

(١) نفس المصدر السابق (ص ٤٨٢، ٤٨٣)، رواه الإمام أحمد.

إن الأمر جدُّ كلِّ الجدِّ، وليس هزلاً، ولكن النبي ﷺ الذي وصفه ربُّه بالرؤوف الرحيم أراد التوبة والرحمة لقومه، إنه أعلم بالله من أي أحد، إنه يعلم أن الله قادر على أن يبطش بأهل مكَّة وغير أهل مكَّة فيجعلهم أثراً بعد عين!! ولكن لم يُرد ذلك، إنه سيصبر، وسيستمر في دعوته، والله غالبٌ على أمره.

لقد جاءتهم آية باهرة على غير طلبٍ منهم، ولو كانت على طلبٍ منهم ولم يؤمنوا لأصابهم العذاب الشديد، فما هذه الآية؟!

### ٥- ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾:

كان ذلك ليلة أربع عشرة، وكان النبي ﷺ بمنى مع عدد من أصحابه؛ فيهم عبد الله بن مسعود، ربما لأنه لم يكن يستطيع أن يجتمع بهم في مكَّة، فاجتمع بهم خارجها، فانشقَّ القمر فلقتين، فلقه وراء الجبل، وفلقه دونه!! فقال رسول الله ﷺ:

- اشهدوا<sup>(١)</sup>.

ونظر أهل مكَّة إلى القمر - بعضُ أهل مكَّة - فأروه نصفين؛ نصفاً على الصفا، ونصفاً على المروة! فمسحوا أبصارهم، ثم أعادوا النظر، ثم مسحوا أعينهم، فقالوا: ما هذا إلا سِحْرُ راهبٍ<sup>(٢)</sup>.

وقال آخرون:

(١) "البخاري" (٢٥١/٤)، و"مسلم" حديث (٢٨٠٠)، (٤٣)، و"الترمذي" (٣٢٨٥/٥) حديث (٣٢٨٥).

(٢) "السيرة النبوية" لابن كثير (١١٦/٢، ١١٧).



- هذا سِحْرُ ابنِ أَبِي كَبْشَةَ<sup>(١)</sup>.

ولكن بعض العقلاء استدرکوا فقالوا:

- انظروا ما يأتينا به السُّفَّار؛ فإن محمَّدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا ما رأيتم فهو سِحْرٌ سَحَرَكُمْ به.

فلَمَّا كان اليوم التالي، وأقبل المسافرون من كل وجه، وسألوهم فقالوا:

- رأيناها<sup>(٢)</sup>.

فأنزل الله تبارك وتعالى من «سورة القمر»:

﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرَ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾ خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ يُخْرِجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَاتِبَهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ١ - ٨].

ويمضي القرآن فيعرض عليهم بصورة سريعة وقوية وخاطفة قصص الأقسام التي كذبت أنبياءها، فأصابها العذاب الواحدة بعد الأخرى.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر: ٩].

(١) "شمائل الرسول" لابن كثير (ص ١٤٢).

(٢) "شمائل الرسول" لابن كثير (ص ١٤٢).

ثم يأتي على قوم عاد، والعذاب هنا من نوع آخر:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ  
أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٩-٢٠].

وقوم ثمود؛ وكأنهم يحكون مقالة قريش وسخرتهم من النبي ﷺ:

﴿فَقَالُوا أَشْرًا مِّمَّا وَجَدُوا نَبْعَهُمْ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُغْرٍ ﴿٢٤﴾ أَلْفَى الذِّكْرُ  
عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر: ٢٤-٢٥].

وكان عذابهم من نوع آخر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا

كَهَشِيرِ الْمُحْطَرِّ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٣١].

ثم يأتي ذكر القوم الذين هم من أقدر خلق الله، والذين وصفوا

أنفسهم بالنجاسة ورضوا بها، وكان العذاب صاعقًا مباغتًا: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ

لُوطٍ بِالنَّذْرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسِحْرِ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةٍ مِنْ

عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْزَى مَنْ شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنَّذْرِ ﴿٣٦﴾

وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ

بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرِ ﴿٣٩﴾﴾ [القمر: ٣٣-٣٩].

ثم يأتي آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

كُلَّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤١-٤٢].

ثم يلتفت إلى أهل مكة: ﴿أَكْفَارَكُمْ حَزَبٌ مِنْ أَوْلَادِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي

الرُّبُوبِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرُونَ ﴿٤٤﴾ سَيَرْجِعُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرَ ﴿٤٥﴾

بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُغْرٍ ﴿٤٧﴾

يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٣-٤٨].

وبعد كلِّ هذه الصواعق المحرقة للكافرين المكذِّبين الضالِّين يلتفت القرآن إلى الجماعة المؤمنة المتوارية عن أنظار المعاندين والساخرين والمستهزئين، يلتفت إليهم فيقول: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدِّرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القَمَر: ٥٤-٥٥].

٦- ﴿وَنُفِثَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾:

﴿طَسَّوْا ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ [القَصص: ١ - ٢].

هكذا بدأ النبي ﷺ يتلو آيات ربِّه من «سورة القصص»، يتلوها على قومه بلا خوف ولا تردُّد ولا وَجَل، إنه شديد الامتثال لأوامر ربِّه، فلا يتخلف أبداً عن تبليغ ما يؤمر به!! وفي قصص القرآن العبرة والحكمة والعظة، والترغيب بما عند الله والترهيب من عذاب الله: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القَصص: ٣ - ٤].

هكذا مرة واحدة: إنه كان من المفسدين!!

لم يُسبغ عليه صفات العظمة والهيبة والجلالة كما تفعل الجاهليات في كل عصر؛ بل دمغه دمغةً في جبينه:

﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القَصص: ٤].

ليكن عند أهل الأرض المنقطعين عن مدد السماء ما يكون، ولكنه عند الله من المفسدين، ومن الساقطين، ومن المتمرِّغين في الأوحال، ويوم القيامة: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

ثم ينتقل القرآن نقلة سريعة، يطوي ما عمل فرعون وما أفسد، وما طغى وما بغى، وما شاء له جبروته وطيشه وغروره، ينتقل بسرعة إلى المستضعفين الذين أنزل بهم فرعون قتلاً وبطشاً: ﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥-٦].

هل يشك عاقلٌ وهو يسمع القرآن يتلى من فم الرسول ﷺ، هل يشك في أن هذه الآية تتضمن الإشارة إلى عاقبة المؤمنين المستضعفين في مكة؟ وأنهم منصورون لا محالة بإذن الله، وأن عاقبتهم السيادة في الأرض؟! لا يشك أحد في ذلك أبداً، حتى إن المشركين عندما سمعوا مثل هذه الآيات كانوا يقولون عندما يرون بلاً وعماراً وصهيياً، يقولون:

- جاءكم ملوك الأرض! استهزاءً وسخريةً بهم!

ويمضي القرآن الكريم بأسلوبه المعجز، وبصوت النبي الكريم: ﴿وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]!!

عندما كان النبي ﷺ يجلس فيتلو على قومه قصص القرآن التي تأخذ بالألباب، ثم ينهض = يُسرع النضر بن الحارث بن علقمة؛ ابن عبد الدار، فيجلس مكانه، فيحدثهم عن ملوك فارس، عن رستم السنديد<sup>(١)</sup>، واسفنديار، وغيرهم، ثم يقول:

(١) السنديد بلغة فارس: طلوع الشمس، وهم ينسبون إليه كلَّ جميل. هوامش "السيرة النبوية" لابن هشام.

- والله ما محمّد بأحسن حديثاً مني، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتبتها كما اكتبتها!

هذا السفية الكريه الجاهل المستهزئ كان قد ذهب إلى بلاد فارس، وسمع قصصاً عن ملوكهم، كُتِبَتْ بعضها له، ثم جاء بها إلى مكّة وهي لا تتعدّى الإشادة بقوّتهم وعظمتهم وجبروتهم، إنها من النوع الذي تمكن للحاكم الظالم من إحكام سيطرته على شعبه وكنم أنفاسه، وخنوع حرّيته!! إنها من القصص الميت الذي لا يغني من الحق شيئاً!!

- والله ما محمّد بأحسن حديثاً مني.

بلى والله؛ إنه لأحسن حديثاً منك ومن أبيك وأمك، وكلّ من على الأرض إلى أن تقوم الساعة!

ونزل القرآن الكريم يردُّ على هذا السفية الكريه الذي كُتِبَ عليه الشقاء إلى أبد الأبدین: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا اسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَبَهَا فِيهِ نُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦﴾﴾ [الفرقان: ٤ - ٦]!!<sup>(١)</sup>.

(١) انظر كيف يدعوهم إلى التوبة والمغفرة والرحمة!! والقصة في "ابن هشام" (٣٨٣/١، ٣٨٤).

يؤكد محمّد عزة دروزة في كتابه "سيرة الرسول" (٤٥/١) على أن هاتين الآيتين هما اللتان تفيدان أن النبي لم يكن يقرأ أو يكتب. لا كلمة (الأمي) التي وصف بها في آيتي «الأعراف» (١٥٧، ١٥٨)، وقال: «﴿أَكْتَبَهَا﴾» بمعنى: استكتبها، و«﴿نُمَلَّى عَلَيْهِ﴾» بمعنى: تتلى عليه.

## ٧- المفاوضة قبل الأخيرة:

تمخّض عقل الجاهلية المتردّي عن فكرة جديدة لا تخطر على بال! وذلك عندما فشلت مفاوضاتهم مع أبي طالب فلم يكفّ ابن أخيه محمّد عن الدعوة إلى الله وحده لا شريك له، ذهب نفس الوفد إلى أبي طالب للمرّة الرابعة، وقد أخذ معه هذه المرّة عمارة بن الوليد بن المغيرة، ونظر إليهم أبو طالب؛ ماذا يريدون؟!

قالوا:

- يا أبا طالب، هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى<sup>(١)</sup> في قريش وأجمله؛ فخذهُ!

لماذا يأخذهُ؟!

قال الوفد:

- فلك عقْلُهُ ونصرُهُ، واتَّخِذُهُ ولدًا، فهو لك.

ما هذا السخاء؟!

لماذا كل هذا؟!

قالوا؛ وقد أظهروا نواياهم:

- وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك، وفرّق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم..

فنقّطْهُ!!

(١) أنهد فتى: أشد وأقوى فتى؛ "ابن هشام" (١/٢٨٥).

هَبَّ أَبُو طَالِبٍ ثَائِرًا غَاظِبًا مَذْعُورًا، مَاذَا تَقُولُونَ؟

قَالُوا:

- فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ بِرَجُلٍ!

فَصَرَخَ أَبُو طَالِبٍ غَاظِبًا:

- وَاللَّهِ لَبِئْسَ مَا تَسُومُونَنِي؛ أَتُعْطُونَنِي ابْنَكُمْ أَغْذُوهُ لَكُمْ،

وَأَعْطَيْكُمْ ابْنِي تَقْتُلُونَهُ؟!

ثُمَّ قَطَعَ عَلَيْهِمْ طَرِيقَ الرَّجْعَةِ بِوَقْفَةٍ حَازِمَةٍ:

- هَذَا وَاللَّهِ لَا يَكُونُ أَبَدًا!! أَرَأَيْتُمْ نَاقَةَ تَحَنُّ إِلَى غَيْرِ فَصِيلِهَا<sup>(١)</sup>؟!

وَتَلَقَّتِ الْقَوْمَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ فِي وَجْهِهِ بَعْضٌ، وَكَأَنَّ صَاعِقَةً انْحَطَّتْ

عَلَى رُؤُوسِهِمْ، ثُمَّ تَقَدَّمَ الْمَطْعِمُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ نَوْفَلٍ فَقَالَ:

- وَاللَّهِ يَا أَبَا طَالِبٍ لَقَدْ أَنْصَفَكَ قَوْمُكَ، وَجَهَدُوا عَلَى التَّخْلُصِ

مِمَّا تَكَرَّهَهُ، فَمَا أَرَاكَ تَرِيدُ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهُمْ شَيْئًا!

فَرَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ بَعْنَفٍ:

- وَاللَّهِ مَا أَنْصَفُونِي، وَلَكِنَّكَ أَجْمَعْتَ خِذْلَانِي وَمُظَاهَرَةَ الْقَوْمِ

عَلَيَّ؛ فَاصْنَعْ مَا بَدَأَ لَكَ<sup>(٢)</sup>!

انظُرْ إِلَى هَذَا الْقَرِيبِ الْبَعِيدِ الَّذِي ظَاهَرَ الْوَفْدَ الظَّالِمِ عَلَى ابْنِ عَمِّهِ

وَأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ جَدَّهُ نَوْفَلَ بْنَ قَصِيٍّ أَخُو هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ

قَصِيٍّ، لَقَدْ كَانَ الْأَوْلَى بِهِ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَقِفَ إِلَى جَانِبِ ابْنِ عَمِّهِ أَنْ

(١) "السِّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ" لابْنِ دِحْلَانَ (١/٢٠١).

(٢) الْقِصَّةُ فِي "ابْنِ هِشَامٍ" (١/٢٨٥، ٢٨٦).

يسكت، ويدع وفد الضلالة يعود بإثمه وسواد وجهه، ثم انظر إلى الجاهلية الثوّلاء كيف راحت تتعثّر في ضلالها، كيف راحت تتخبّط فلا تعرف كيف تتصرّف؟! وهذا ديدن الجاهليّات في كل عصر!!

خرج وفد الضلالة من عند أبي طالب غاضبًا، وقد عزم على قطع كلّ أصرة بينه وبين بني هاشم، أو يُسلموا لهم محمّدًا يقتلونه!! في هذه المدّة انضم إلى موكب النور: أربد بن حُمير، وجابر بن سمرة بن جنادة؛ أمه: خالدة بنت أبي وقاص؛ أخت سعد بن أبي وقاص، وثقف بن عمرو العدواني.

وهكذا، وعلى الرغم من العراقيل التي وضعتها وتضعها قريش في طريق الإسلام، فإنّ سفينته، سفينة النجاة كانت تستقبل بين يوم وآخر متحرّرين جديدين من ربقة العبوديّة للأوثان والجاهليّة البغيضة إلى محراب الإيمان والدعوة إلى الله!

#### ٨- صحيفة العدوان:

خرج وفد الضلالة من عند أبي طالب غاضبًا، وقد أجمعوا على قتل رسول الله ﷺ علانية، فلمّا رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب وأمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شِعْبهم وأمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله؛ فاستجاب لأمره مسلمهم وكافرهم؛ المسلم إيمانًا واحتسابًا، والكافر حميّة<sup>(١)</sup>.

وذهب الغضب بكفّار قريش كلّ مذهب، فقرروا أن يكتبوا

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/٤٣، ٤٤).



صحيفة<sup>(١)</sup> ويسطّروا عليها سمومهم:

١- ألا يبيعوا بني هاشم ولا بني عبد المطلب شيئاً، ولا يتاعوا

منهم.

٢- ألا يزوّجوهم، ولا يتزوّجوا منهم.

٣- ألا يجالسوهم، ولا يجلسوا إليهم، ولا يدخلوا بيوتهم.

٤- ألا يقبلوا منهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رافة!

وطبّقوا هذه البنود تطبيقاً صارماً، وقطعوا عن بني هاشم الأسواق والأرزاق، واشتدّ ضغطهم بشكل لم يسبق له مثل حتى بات الأطفال يتضاغون من الجوع، ولا يجد الرجل من بني هاشم ما يُطعم أهله وولده إلا أوراق الشجر؛ وهل يوجد في مكّة شجر؟!

#### ٩- عائدون من الحبشة:

في هذه المدّة التي اشتدّ فيها ضغط المشركين على المسلمين وهياجهم وشغبهم وأذاهم = قدم من الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلاً وستّ نسوة ممن كانوا قد هاجروا إليها!! فاشتدّ غضب المشركين،

(١) "فقه السيرة" للغزالي (ص ١٢٣) والبند الثالث والرابع من "ابن كثير" (ص ٤٤)، ويعتبر هذا إعلاناً أو بياناً في لغة عصرنا، وليست معاهدة كما جاء في "فقه السيرة"، وهذا ما يدعى بالحرب الاقتصادية أو بالحصار الاقتصادي.

تولّى كتابة الصحيفة منذر بن عكرمة وكان هذا منه مساهمة ظاهرة وعوناً ظاهراً للمشركين في تسطير هذا الاتفاق الشرير؛ مما استوجب أن يدعو عليه رسول الله ﷺ بما يستحقّ فشلت يده؛ والعبرة في ذلك ألا يتورّط الإنسان في المعاونة على الشرّ بأي نوع من أنواع المعاونة.

ورأوا قدوم هؤلاء قوّة للمسلمين داخل مكّة، فقابلوهم أقبح مقابلة، فلم يستطع أحد منهم أن يدخل مكّة إلا خائفاً أو مستخفياً، أو بجوار أحد من المشركين<sup>(١)</sup>! وكان ممن عاد من أرض الحبشة:

عثمان بن عفان، وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة ابن عتبة، وزوجته سهلة بنت سهيل، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، وزوجته أم سلمة، والسكران بن عمرو، وزوجته سودة بنت زمعة، وعثمان، وقدامة، وعبد الله؛ بنو مظعون، والسائب بن عثمان بن مظعون.

دخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة، ودخل أبو سلمة بجوار خاله أبي طالب ابن عبد المطلب<sup>(٢)</sup>.

وكان أبو لهب البليد الشريد الطريد قد ظاهر الكفار من قريش على أهله وعشيرته، فلم ينضم إليهم، بل صار أشدّ من عدوّهم عليهم!

### ١٠- ﴿سَأْصِلِيهِ سَقَرًا﴾:

بدأ وفد الحجيج إلى مكّة من كل مكان من الجزيرة، وكان النبي ﷺ ينتهز موسم الحج للاتصال بقبائل العرب، ودعوتهم إلى الله وقراءة القرآن عليهم، لقد بُعث إلى الناس كافة في مشارق الأرض ومغاربها، وليس إلى قريش وحدهم، ولا إلى العرب، ولكن نقطة الانطلاق بدأت من مكّة!!

(١) "ابن هشام" (٣/٢).

(٢) نفس المصدر السابق (ص ٨).

اجتمع نفر من الأصنام الحيَّة من قريش إلى الوليد بن المغيرة،  
وكان ذا سن فيهم، فقال لهم:

- يا معشر قريش، إنَّه قد حضر هذا الموسم، وإنَّ وفود العرب  
ستقدِّم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا..

فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً،  
ويرد قولكم بعضه بعضاً.

قالوا:

- فأنت يا أبا عبد شمس؛ فقل، وأقم لنا رأياً نقول به!

قال:

- بل أنتم فقولوا أسمع.

قالوا:

- نقول: كاهن!

قال:

- لا والله، ما هو بكاهن؛ لقد رأينا الكهَّان، فما هو بزَمْرمة  
الكاهن، ولا سَجْعِهِ.

قالوا:

- فنقول: مجنون!

قال:

- ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون وعرفناه؛ فما هو بخنِيقِهِ ولا

تخالجه، ولا وسوسته.

قالوا:

- فنقول: شاعر!

قال:

- ما هو بشاعر؛ لقد عرفنا الشعر كله؛ رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه؛ فما هو بالشعر.

قالوا:

- فنقول: ساحر!

قال:

- ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحار وسحرهم؛ فما هو بنفثهم، ولا عقدهم.

فنظر إليه القوم متحيرين، وقالوا:

- فما نقول يا أبا عبد شمس؟! (١)

كل هذا والوليد يفكر فيما يقول فيه، ففكر وقدر، ونظر وعبس وبسر (٢)، ثم قال وهو يقبض ما بين عينيه:

- والله إن لقوله الذي يقوله لَحلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه

ليعلو وما يُعلى (٣)!

(١) إلى هنا من "ابن هشام" (١/٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) "تفسير ابن كثير" (٤/٤٤٣).

(٣) "ابن كثير" (٤/٤٤٣).

ثم قال:

- وإنَّ أقربَ القولِ فيه لأنَّ تقولوا: ساحر؛ جاء بقول هو سحر يفرِّقُ به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته.

فأخذوا ذلك منه، وتفرَّقوا بذلك عنه، وجلسوا بطريق النَّاس حين قدموا المَوْسَم؛ لا يمرُّ أحدٌ إلا حذَّروه إيَّاه، وذكروا له أمره<sup>(١)</sup>.

في هذا الرجل العنيد البليد، الأبق من دعوة الله ورحمته ورضوانه، في هذا الرجل الذي عرف عظمة القرآن وحلاوته وعلوّه، ولكنه أراد أن تبقى له هيبتة في كفَّار قريش، في هذا الرجل وفي غيره ممن نصب نفسه لحرب الإسلام = نزلت آيات القرآن من «سورة المدثر» قويّة، صارخة، ضاربة: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِإِيْتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهُقُهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ١١-٣٠].

انتهى هذا المجرم؛ انتهى من المال فلا زيادة، ومن الولد فلا مزيد!! ولينتظر؛ إنما هي أنفاس ثم تتناوله ملائكة العذاب الغلاظ الشداد، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون!!

(١) "ابن هشام" (١/٢٨٩).

﴿سَأْصَلِيهِ سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]؛ هذا مصيره إلى أبد الآبدين؛ فلا ينفعه ماله، ولا ولده، ولا عشيرته؛ إنها سقر، لا تُبقى ولا تذر، فماذا سيفعل هذا الخسيس التعيس الدنس؟! هل سيطلب الرجعة ليعمل صالحًا؟!!

﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

[المؤمنون: ١٠٠].

ماذا يريد، ماذا يريد هذا الرجل العنيد البليد؟!!

إنه يريد أن تكون الرسالة له، دون سواه:

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنشَرَةً﴾ (٥٢) ﴿كَلَّا بَلْ لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ (٥٣) ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ (٥٤) ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ (٥٥) ﴿

[المدثر: ٥٢-٥٥].

### ١١- في الموسم:

قال أبو لهب حين فارق أهله وعشيرته وظاهر عليهم، وقد رأى هند بنت عتبة بن ربيعة:

- يا بنت عتبة، هل نصرت اللات والعزى، وفارقت من فارقهما وظهرت عليها؟!!

قالت راضية ومشجعة:

- نعم؛ فجزاك الله خيرًا يا أبا عتبة!

ولكن ما جزاه الله خيرًا، بل لم يزد بعد نزول «سورة اللهب» إلا خسارًا؛ حتى كان يقول:

- يعدني محمّد أشياء لا أراها؛ يزعم أنها كائنة بعد الموت،  
فماذا وضع في يديّ بعد ذلك؟  
ثم ينفخ في يديه ويقول:

- تَبًّا لكما، ما أرى فيكما شيئًا مما يقول محمّد<sup>(١)</sup>!

مع أبي لهب كانت زوجته الثّوّلاء العوراء التي كانت تُوّزّه  
وتحرّضه على عداوة النبي ﷺ، وكان معه ابنه البغيض عتبة الذي كان  
يشارك أباه في عدائه ومحاربه للنبي ﷺ حتى نال جزاءه العادل بعد  
ذلك<sup>(٢)</sup>.

في النهار كان النبي ﷺ يتبع قبائل العرب في منازلهم يدعوهم  
إلى الله تعالى يقول لهم:

- يا أيها النّاس، قولوا: (لا إله إلا الله) تَفْلِحُوا!<sup>(٣)</sup>

وأبو لهب، الرجل الذي صار مطيّةً لزوجته الثّوّلاء يسير وراءه  
ويقول:

- أيها النّاس، إن هذا قد غوى؛ فلا يُغوينّكم عن آلهة آبائكم<sup>(٤)</sup>.

قال ربيعة بن عباد الدّيلي<sup>(٥)</sup>: ورسول الله ﷺ يفرّ منه وهو على  
أثره، ونحن نتبعه ونحن غلمان!

(١) "ابن هشام" (١/٣٧٦).

(٢) ستأتي قصّته.

(٣) "السّيرة النّبويّة" لابن كثير (٢/١٥٦)، والحديث رواه الإمام أحمد.

(٤) "أسد الغابة" (٣/١٩٤/٣) تسلسل (١٦٩).

(٥) راوي الحديث ويقال: الدّولي أيضًا.

ويمضي النبي ﷺ يدعو إلى الله :

- يا أيها الناس ، قولوا : (لا إله إلا الله) تفلحوا!

وأبو لهب يقول :

- إنه صابئ، كاذب<sup>(١)</sup>.

وربما تبعه أبو جهل فقال :

- يا أيها الناس ، لا يغرنكم هذا عن دينكم ؛ فإنما يريد أن تتركوا

اللات والعزى<sup>(٢)</sup>.

هكذا نذر هذا العم الطريد البليد نفسه لمحاربة دعوة الله ، والسير

وراء النبي ﷺ يصدُّ عنه وينفّر منه ، ويكذّبه علانية ، وكان أبو لهب رجلاً جميلاً تقدّ وجتاه احمراراً ، أحول<sup>(٣)</sup> ذا غديرتين.

ومضى النبي ﷺ يدعو إلى الله بلا كَلَل ولا مَلَل ليلاً ونهاراً ، سرّاً

وجهاراً!!

## ١٢- خدعة تجارية:

استغلّت قريش حادثة الفيل أسوأ استغلال لتثيت هيتها ومكانتها

عند العرب ؛ فأطلقت على نفسها كلمة: الحُمس ؛ أي المتحمّسين

لدينهم أكثر من غيرهم ، ورأت نفسها أكبر من أن تقف مع الحجيج

في عرفة ؛ فكانت تقف في مُزدلفة ، وسائر العرب يقفون في عرفة ، ثم

(١) "ابن كثير" (١٥٦/٢).

(٢) "ابن كثير" (١٥٧/٢).

(٣) الحول من علامات الحُسن عند العرب.



تمادت أكثر من ذلك؛ لترويج تجارتها ربما، فطلبت من سائر العرب إلقاء ثيابهم التي عصوا الله فيها، فلا يطوفون بالبيت إلا بثياب جديدة طاهرة، فإن لم يجدوا ثيابًا جديدة طافوا بالبيت عراة!! يُستثنى من ذلك من أعاره أحمس ثوبًا؛ فله أن يطوف به! فكان الرجال يطوفون بالنهار عراة، وكان النساء يطفن بالليل<sup>(١)</sup>، والثياب التي تُلقى لا يستعملها أحد، ولا يمسها!

وانظر إلى هذه الخدعة البارعة التي جعلت العرب تُقبل بعد ذلك على أسواق مكة تشتري منها الثياب! والثياب المستعملة ملقاةً مكدسةً لا يقربها أحد!!

وفي هذا أنزل الله في «سورة الأعراف»: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ الْفَحْشَاءَ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَنْبَغِي عَادِمَ خَذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

[الأعراف: ٢٨-٣٢].

وقد أحل الله تبارك وتعالى لنا الأكل والشرب واللبس ما لم يكن

(١) "تفسير ابن كثير" (٢/٢٠٨)، و"ابن هشام" (١/٢١٤، ٢١٥).

سرفاً أو مخيلة؛ كما قال النبي ﷺ:

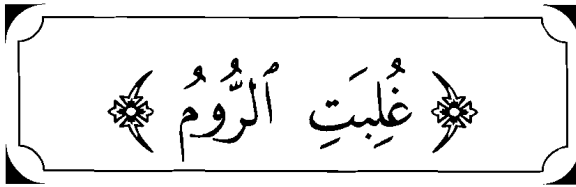
- كُلُوا واشْرَبُوا، والبَسُوا وَتَصَدَّقُوا من غير مَخِيلَةٍ ولا سَرْفٍ؛  
فإنَّ اللهَ يُحِبُّ أن يَرى نِعْمَتَهُ على عَبْدِهِ<sup>(١)</sup>.

التحق بالموكب المبارك: عبد الله بن سعيد بن العاص، وعمير  
ابن أبي وقاص؛ أخو سعد بن أبي وقاص، وكان صغيراً.



(١) "تفسير ابن كثير" (٢/٢١٠)، والحديث رواه الإمام أحمد.

(٨)



﴿الْم ١﴾ غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدِنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ  
﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ  
الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾  
وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴿

١- لا أستجير بغير الله:

كان كلُّ من أصحاب النبي ﷺ يتحرَّك في محيط؛ بين أهله، معارفه، أقاربه، وكانت آيات القرآن تعمل عملها القوي الفعَّال في نفوسهم؛ تأخذ بأيديهم وتشدُّ أزرهم، وتقصُّ عليهم أخبار الدعوة إلى الله وصبرهم وتحملهم في سبيل الله، وكان النبي ﷺ قدوتهم في الصبر، والثبات، والاستمرار في الدعوة، وعلى كاهله ﷺ يقع العبء الأكبر!

دخل عثمان بن مظعون مَكَّةَ عندما عاد من أرض الحبشة بجوار الوليد بن المغيرة، ولكنه رأى أصحابه يتعرَّضون للأذى والسخرية، وكان المشركون يقولون عندما يرون أصحاب النبي ﷺ:

- قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصراً! (١)

رأى عثمان بن مظعون نفسه يروح ويجيء دون أن يتعرَّض له أحد بسوء، وأصحابه يتعرَّضون للأذى والسخرية والاستهزاء؛ فألمه ذلك، وقال:

- والله إنَّ غُدُوِّي ورواحي آمنَّا بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني = لَنَقْصُ كَبِيرٌ فِي نَفْسِي.

فذهب إلى الوليد بن المغيرة، فقال له:

- يا أبا عبد شمس، وَفَتَ ذَمَّتْكَ؛ قد رددت إليك جوارك.

(١) "السيرة النبوية" لابن دحلان (١/٢٣٠)، والقصة بكاملها في "ابن هشام" (١٠، ٩/٢).

فقال له :

- لم يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحد من قومي؟

قال عثمان :

- لا ، ولكنني أرضى بجوار الله ، ولا أريد أن أستجير بغيره .

قال الوليد :

- فانطلق إلى المسجد ، فاردد عليّ جوازي علانيةً كما أجرتك علانيةً .

فانطلقا حتى أتيا المسجد ، فقال الوليد :

- هذا عثمان قد جاء يردّ عليّ جوازي .

قال عثمان :

- صدق ، قد وجدته وفيًا كريم الجوار ، ولكنني قد أحببت ألا أستجير بغير الله ، فقد رددت عليه جواره .

وكان الشاعر لبيد بن ربيعة في مجلس قریش ينشدهم من شعره ، فجاء عثمان فجلس معهم .

قال لبيد :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَّا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

فأجابه عثمان :

- صدقت .

قال لبيد ، وهو يكمل البيت من الشعر :

وكلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائلٌ

قال عثمان:

- كذبت، نعيم الجنة لا يزول!

فغضب لبيد وقال:

- يا معشر قريش، والله ما كان يُؤذى جليسُكم؛ فمتى حدثَ هذا

فيكم؟

فقال رجل من القوم:

- إن هذا سفيهٌ في سفهاء معه؛ قد فارقوا ديننا فلا تجدنَّ في

نفسك من قوله.

فردَّ عليه عثمان، وعظَّم الأمر بينهما، حتى قام ذلك الرجل فلطم

عثمان على عينه فخصَّرها! وكان الوليد بن المغيرة قريباً، فرأى ما بلغ

من عثمان، فقال له:

- أما والله يا ابن أخي، إن كانت عينك عمماً أصابها لغنيَّة، لقد

كنت في ذمَّة مَنيعة!

قال عثمان:

- بل والله إنَّ عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في

الله، وإنِّي لفي جوارٍ مَنْ هو أعزُّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس!

قال الوليد:

- هلمَّ يا ابن أخي، إن شئتَ فعدَّ إلى جوارك.

قال:

- لا!

موقف رائع، موقف القوة والجرأة والردّ الصريح على الشعر من قبل عثمان بن مظعون، ولكن لا مانع من استفادة المؤمن من عادات المجتمع الجاهلي إن كانت في صالحه، ولا يقدر ذلك في إيمانه ولا في إخلاصه، بل يعطيه حرية الحركة والدعوة إلى الله من دون أن يتعرّض له أحد بسوء، ودون أن يُمسَّ بأذى!

## ٢- الهجرة الثانية:

كان بيت النبي ﷺ يقع بين شرّ جارين! بين بيت عمه أبي لهب، وبيت عقبة بن أبي معيط! وكانا يأتیان بكُناسة داريهما ويطرحانها على باب بيت النبي ﷺ<sup>(١)</sup>، وفي ذات يوم خرج أبو لهب يحمل القدر، وأراد أن يطرحه على باب بيت النبي ﷺ، فرآه حمزة بن عبد المطلب، فأخذه منه وألقاه على رأسه فرجع مذعورًا ينفض عن نفسه الأوساخ، وهو يصيح:

- صابئ! أحمق<sup>(٢)</sup>!

انظر إلى حماقة الجاهلية ورعونتها!! لقد أحسن حمزة صنعًا عندما أخذ الأوساخ وألقاها على رأس أخيه الطريد البليد، الذي صار عبدًا لزوجته القبيحة السليطة الثؤلاء!

(١) "السيرة النبوية" لابن دحلان (١/٢٢٦ و ٢٣٢).

(٢) نفس المصدر السابق.



وأمام شدة قريش وتعنتها ومقاومتها للمسلمين أذن النبي ﷺ بالهجرة إلى الحبشة لمن لم يكن قد هاجر منهم، وبالعودة إليها لمن عاد منها! وفي هذه المدة توفي السكران بن عمرو في مكة، وبقيت زوجته سودة بنت زمعة فلم تهجر الهجرة الثانية، ومات عمرو بن سعيد بن العاص في أرض الحبشة، وكذلك هشام بن العاص؛ أخو عمرو بن العاص؛ رضي الله عنهم جميعاً.

### ٣- على أبواب القسطنطينية:

جاءت الرُكبان من كلِّ مكان تحمل أنباء انتصار الفرس انتصاراً كاسحاً مذهلاً على الروم؛ فعمّت الفرحة أهل الشرك، ورأوا في انتصار الفرس عبدة النيران انتصاراً لعقيدة الشرك التي يدين بها كفّار قريش! وآلم ذلك أهل الإيمان أشدَّ الإيلام! فقد كانوا يرغبون في انتصار الروم أهل الكتاب على الفرس المجوس عبدة النيران! فعقيدة الإيمان لا يحدّها مكان ولا زمان، وهذا يدل على عالمية الدعوة إلى الإسلام وشمولها!!

في هذا الجوّ المشحون بفرحة المشركين وانتصار الفرس في سوريّة، ومصر، والأناضول حتى وقفت جيوشهم على أبواب القسطنطينية تطرّفها بلا هوادة، في هذا الجوّ الذي فقد فيه القيصر كلّ أمل في النصر تنزل آيات القرآن الكريم تبشّر المؤمنين بانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، لا أكثر:

﴿الْم ١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ

يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ [الروم: ١ - ٧].

وقرأ النبي ﷺ على أصحابه، وعلى المشركين ما أنزل عليه من «سورة الروم»، وفرح المؤمنون كلَّ الفرح، وكذب المشركون الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا؛ ينظرون إلى الأمور بظواهرها وهم عن الآخرة هم غافلون!! وراح المؤمنون يؤكدون بيقين، كل اليقين أن النصر سيكون للروم في بضع سنين، بل ذهب أبو بكر فراهن المشركين على هذا!

هذا الإيمان العظيم بوعد الله لم يكن لدى الروم أية ذرة منه، بل لو أن أحداً قال للقصور: إنك ستنتصر على الفرس بعد بضع سنين لظن أن القائل يسخر منه، أو يواسيه!! ولكن المؤمنين في مكة كانوا يقولونها بكل ثقة وإيمان ويقين، ما بعده يقين!

﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٦﴾

[الروم: ٦].

ولكن كيف حدث هذا؟ لماذا قامت الحرب بين الدولتين؟

كان الإمبراطور موريس قد تحالف مع كسرى برويز؛ شاه إيران، ثم حدث انقلاب في القسطنطينية أطاح بالإمبراطور موريس، وهرب ابنه فالتجأ إلى كسرى، وتولى السلطة بعد موريس: فوكاس؛ ولم يدم هذا في حكمه طويلاً، حيث حدثت ثورة أطاحت به، وجاءت بهيراكليوس الأول الذي اعتلى عرش الدولة البيزنطية سنة ٦١٠م.

انتَهز كسرى برؤيز وضع الروم المضطرب فجَهَّز ثلاثة جيوش؛ اتَّجه الجيش الأول نحو القسطنطينية، يدمِّر كلَّ ما يمرُّ به!! واتَّجه الثاني نحو الشام وبيت المقدس، فأحرق الكنائس، واستولى على الصليب الأعظم، وساق الأساقفة والقسيسين والنصارى وبعث بهم إلى المدائن! وكان ذلك سنة ٦١٤ للميلاد، وامتلاً كسرى غروراً لهذا الانتصار الهائل فكتب إلى هرقل يقول:

«من كسرى؛ أعظم الآلهة، وسيِّد الأرض كلِّها إلى عبده الغبي الذليل هرقل؛ إنَّك تقول إنَّك تعتمد على إلهك، فلمَ إذن لم ينقذ أورشليم من يدي؟».

وتوجَّه الجيش الثالث نحو مصر، فاستولى على الإسكندرية سنة ٦١٦م. أما الجيش الأول فقد مضى في زحفه يطارد جيش الروم حتى ركز أعلامه على أبواب القسطنطينية فحاصرها، وكان بقيادة شهربرا يعاونه فرخان، ولم يبق لقيصر أيُّ أمل في النصر، ولا لأيِّ رومي على وجه الأرض!<sup>(١)</sup>

ولكن المسلمين في مكَّة كانوا يؤكِّدون بكلِّ ثقة، بكلِّ إيمان أنَّ الروم سيغلبون، سينتصرون، سيستعيدون ما أخذ منهم! أما المجوس فقد ظنُّوا أنَّ ما أحرزوه سيبقى في أيديهم إلى الأبد، فكتب كسرى تلك الرسالة الحمقاء التي وصف فيها نفسه بأنَّه أعظم الآلهة وسيِّد الأرض كلِّها!! وهذا الغرور الذي ينتاب الزعماء الحمقى عندما

(١) "مجلة العربي" العدد ٢٦٢ شوال ١٤٠٠هـ - أيلول ١٩٨٠م مقال بعنوان: "هرقل في مواجهة عمر" لأحمد عادل كمال، وانظر القصة في: "تفسير ابن كثير" (٤٢٤/٣) تفسير «سورة الروم».

ينتصرون هو الذي يؤدّي بهم إلى الهزيمة والاندحار، والتخلي عن كل ما كسبه في ساعة الانتصار!!

﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾

[الروم: ٧]

#### ٤- ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُ﴾:

ظلَّ الجدل محتدمًا بين المسلمين والمشركين من أهل مكة؛ المشركون يرون أنَّ دولة الروم قد انتهت إلى الأبد، وأنَّ الفرس قد سيطروا نهائيًّا على أراضيهم!! والمسلمون يؤكِّدون أنَّ الروم سيستعيدون كلَّ ما فقدوه في بضع سنين، لقد أخبر الله نبيّه بهذا، ونزل به القرآن يتلى، يبقى إلى أبد الدهر، إنه ليس من قبيل التكهّنات ولا التقديرات التي قد تخطئ ألف مرة وتصيب مرة، لا، إنه شيء سيتحقّق ولا بد؛ لأن الله - ربَّ النَّاسِ ومَلِكِهِمْ وخَالِقِهِمْ - قال هذا ولا بد أن يكون، لا بد أن يتحقّق ما أخبر به كما أخبر به! كان القرآن يملأ قلوب المؤمنين، يغذيهم، يربّيهم التربية الربانية التي يريدتها الإسلام، يبني كيانهم على أساس متين من العلم والإيمان والتقوى حتى يخرجهم إخراجًا جديدًا متميزًا، في أخلاقهم، في تصرفاتهم، في أفكارهم، في آمالهم وآلامهم، في نظرتهن إلى الكون والحياة والنَّاس، إنها التربية الربانية الفدّة على أكرم يد، على أظهر يد؛ يد النبي الكريم ﷺ.

جاء العاص بن وائل السهمي يحمل بيده عظمًا، جاء إلى النبي

ﷺ، ففتّه بيده، ثم قال:

- أَيْحِييَ اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَى؟

فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

- نَعَمْ؛ يُمِيتُكَ اللهُ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ<sup>(١)</sup>.

وَأَبِيٌّ بْنُ خَلْفٍ أَيْضًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَفِي يَدِهِ عَظْمٌ رَمِيمٌ وَهُوَ

يَفْتَهُ وَيَذَرُوهُ فِي الْهَوَاءِ وَيَقُولُ:

- يَا مُحَمَّدُ، أَتَزْعَمُ أَنَّ اللَّهَ يَبِيعُ هَذَا؟

فَأَجَابَهُ النَّبِيُّ ﷺ:

- نَعَمْ، يُمِيتُكَ اللهُ تَعَالَى ثُمَّ يَبِيعُكَ، ثُمَّ يَحْشُرُكَ إِلَى النَّارِ<sup>(٢)</sup>.

وَنَزَلَ الْقُرْآنُ، مِنْ «سُورَةِ يَسَ» يَبَيِّنُ لِهَذَا الْجَاهِلِ، وَلِغَيْرِهِ،

وَلَأَمْثَالِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ

مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ

﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي

جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ

الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ

الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ

فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

[يس: ٧٧-٨٣].

(١) "تفسير ابن كثير" (٣/٥٨١).

(٢) "تفسير ابن كثير" (٣/٥٨١).

## ٥- ثبات المؤمنين:

مضت السنة الثامنة والمقاطعة الظالمة مستمرة، وقد نال من المسلمين وغير المسلمين من بني هاشم وبني عبد المطلب ممن انضم معهم إلى الشَّعب = نال منهم الجوع والجهد حتى بلغ الحال ببعضهم إلى أن تمضي عليه الليالي ذوات العدد ولم يدخل جوفه طعامٌ يُذكر! وقريش ماضية في عدوانها، متشددة في تطبيق ما جاء في صحيفتها الظالمة؛ مما أثار روح النخوة والمروءة عند بعضهم؛ فكان هشام بن عمرو العامري يبعث بالطعام خلسة، حتى أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أحمالٍ طعاماً؛ فلما علمت قريش بذلك مشوا إليه فكلموه، فقال:

- إنني غير عائد لشيء خالفتكم فيه.

فانصرفوا.

ولكنه لم يتحمّل رؤية النساء والأطفال وقد نال منهم الجوع، فأرسل إليهم حملاً أو حَمَلين من الطعام، وعلم كفّار قريش بالأمر؛ فأقبلوا إليه وأغلظوا له القول، وهدّدوه بالقتل، فقال لهم أبو سفيان بن حرب:

- دعوه؛ رجل وصل أهله ورجمه، أما إنني أحلف بالله: لو فعلنا

مثل ما فعل لكان أحسن بنا<sup>(١)</sup>.

وحكيم بن حزام، ابن أخي خديجة رضي الله عنها، وكان في الثانية والستين من العمر، كان صديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان يحبه، فكان يصل عمته بالطعام<sup>(٢)</sup>، ولا بدّ من وجود غير هذين الرجلين ممن يتبرّع

(١) "السيرة النبوية" لابن دحلان (١/٢٦٤).

(٢) المصدر السابق.

لأهل الشعب بالطعام، أو يبيعه لهم خفية! ومهما يكن من شيء فقد ثبت الجميع أمام هذه الحرب التي لا ترحم، واستمر النبي ﷺ يدعو إلى الله تعالى في المواسم وغير المواسم، وآيات القرآن توجه خطى المؤمنين وتسندهم، وتزيدهم إيماناً و يقيناً.

وكانت نظرة الجاهلية القاصرة، التي كانت تنظر إلى المال والثراء، والنفخة الكاذبة، والمظاهر الخادعة = كانت هذه النظرة ترى أن لو نُزل القرآن على الوليد بن المغيرة، أو على عروة بن مسعود سيّد ثقيف، أو على أحد البارزين كأبي سفيان بن حرب أو غيره<sup>(١)</sup>.

ونزل القرآن الكريم من «سورة الزخرف»: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَبِيِّينَ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهْمٌ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحِمْتَ رَبِّكَ حَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٠-٣٢].

إن الله تبارك وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته، إنه لا ينزلها إلا على أركى الخلق قلباً ونفساً، وأشرفهم بيتاً وأطهرهم أصلاً<sup>(٢)</sup>، ﴿فَأَسْمِسْكَ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الزخرف: ٤٣].

(١) "ابن دحلان" (١/٢٢٢)، وكان أيضاً يحتال لمعاونة المسلمين، وخرق هذا الحصار الظالم عليهم بطريقة تحقق مقصوده وتدفع الشبهة عنه؛ فكان إذا جاءته العير من الشام محملة بالطعام يوجهها نحو الشعب، ثم يضرب أعجازها، فتدخل عليهم فيأخذون ما عليها من طعام. "إمتاع الأسماع" (١/٢٥-٢٦).

(٢) "تفسير ابن كثير" (٤/١٢٧).

## ٦- ﴿لِسَانٌ عَكْرِيٌّ مُبِينٌ﴾:

لم تحدّ المقاطعة الظالمة من حركة النبي ﷺ، فكان يتّصل بمن يعرف ومن لا يعرف، وعُدّته القرآن؛ يتلوه عليهم، فيأخذ بمجامع القلوب، وكان المشركون يهربون منه لكي لا يسمعه، وإذا أراد النبي ﷺ أن يقرأه على جماعة منهم رفعوا أصواتهم، أو أخذوا بالتصفيق لكي لا يسمعو منه شيئاً: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْتَةٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥].

ثم ذهبوا فقالوا: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وردّهم القرآن فقال: ﴿لِسَانٌ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَكْرِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وهذا الرّد يكفي ولا شك؛ فإن كان الذي يميلون إليه أعجمي اللسان لا يستطيع أداء الكلام العربي فكيف يستطيع أن يأتي بما أعجز أعظم البلغاء فيهم؟! وإذا صحّ أن هذا الرجل الأعجمي الذي يعرفونه حقّ المعرفة يعلمه فما الذي منع العدو حينئذ - على كثرة عدّده، ودؤوب طلبه، وقوّة حسده - أن يجلس إلى هذا (الأعجمي) فيأخذ عنه ما يعارض به؟! (١)

وإذا لم يكن هذا ولا ذاك فلمّ لم يُخرجوا (الأعجمي) من أرضهم، ويطردوه من بلدهم؟!

كان القرآن يأخذهم بروعة بيانه، فلا يملكون أنفسهم عن سماعه؛ لذلك حاولوا أن يحولوا بين القرآن وأسماع الناس، حاولوا ألا يصل

(١) "إعجاز القرآن" للرافعي (ص ١٧٤) هامش (١).



إلى آذان النَّاسِ لَأَنَّ مَجْرَدَ وصوله إلى السمع يحدث في النفس دويًّا هائلًا، وهزَّةً عنيفة! وحكى الله عنهم هذا الأسلوب فقال تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ (٢٦) [فصلت: ٢٦].

وهكذا كانت الحرب الأولى؛ أن يحولوا بين القرآن وأسماع النَّاسِ، ولكن أتى لهم هذا؟! فقد كان القرآن يستهوي الأسماع، ويأخذ باللب على رغم التحذيرات، بل ربما كانت التحذيرات داعيًا قويًّا إلى سماعه<sup>(١)</sup>!!

وراح القرآن بأسلوبه القوي الجميل المعجز يبطل دعاوهم الواحدة بعد الأخرى، وهو يعلو عليهم، وهم دائمًا في خذلان وهزيمة منكرة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقَوْلَهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صدِّيقين ﴿٢٤﴾ [الطور: ٣٣-٣٤].

فإن لم يستطيعوا هذا، ولن يستطيعوا:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مَفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِيْنَ﴾ [هود: ١٣].

تحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات؛ والافتراء سهلٌ ولا يضيعون به، ولكن أين لهم مثل النظم والأسلوب؟!<sup>(٢)</sup>

(١) للدكتور فاضل صالح السامرائي: "نبوة محمد من الشك إلى اليقين" (ص ٧٢).

(٢) "إعجاز القرآن" للرافعي (ص ١٧٤) هامش (١). نقول: والروح؛ فروح القرآن هي التي أبقت حيا وسيبقى إلى أن تقوم الساعة! ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكَلِمَةُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ =

فلما لم يستطيعوا أن يأتوا بمثل القرآن بعدد السور التي نزلت إلى ذلك التاريخ، ولا بعشر سور مفتريات = تحداهم بسورة واحدة، آية سورة؛ قصيرة أو طويلة:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَعْظَمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ

صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

ادعوا أي واحد ممن يشاركون التكذيب والإنكار، من كل العرب، من أقصى جزيرة العرب إلى أقصاها؛ أي شاعر، أي كاتب، أي أديب، أي خطيب!

ادعوا من استطعتم!

لا تترددوا!

فالتحدي قائم اليوم، وغداً، وبعد غد، وإلى أن تقوم الساعة!!

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩].

كذبوا بما لم يعرفوا، ولم يدركوا، ولم يفهموا!!

تحداهم جميعاً، كل العرب، وإذا عجز العرب فالعجم أعجز، وإذا عجز العرب والعجم فأهل الأرض جميعاً عاجزون عن الإتيان بسورة من مثله!!

وبقي القرآن الكريم عاليًا شامخًا، لا تصل إليه همم الرجال مهما حاولوا وبذلوا، واجتهدوا وتعنتوا.

= عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ [الشورى: ٥٢-٥٣].

إِنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْقَوِيِّ الْعَزِيزِ: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

### ٧- قاموس البحر:

عاد ضِمَاد بن ثعلبة الأَزْدِي؛ من أزدِ شَنْوَةَ، عاد إلى مَكَّة بعد أن غادرها قبل بعثة النبي ﷺ يطلب علم الطب وكان يرقى من الجنون، كان ضِمَاد صديقًا للنبي ﷺ<sup>(١)</sup>، فلَمَّا عاد إلى مَكَّة سمع بعض السفهاء يقولون:

- إن محمَّدًا مجنون!

فقال ضِمَاد:

- لو أَنِّي رأيت هذا الرجل لعلَّ الله يشفيه على يدي<sup>(٢)</sup>!

ثم التقى بالنبي ﷺ فقال:

- يا محمَّد، إِنِّي أرقى من هذه الريح، وإنَّ الله يشفي على يدي

من شاء؛ هل لك؟

فقال رسول الله ﷺ:

- إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن

يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ

(١) "الاستيعاب" على هامش "الإصابة" (٢/٢١٧).

(٢) "مختصر صحيح مسلم" (ص١١٢/ تسلسل ٤٠٩)، و"الإصابة" (٢/٢١٠/ تسلسل ٤١٧٧).

محمدًا عبده ورسوله؛ أما بعد.

فقال ضِمَاد:

- أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ!

فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

فَقَالَ ضِمَاد:

- لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكَاهِنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ؛ فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغَنِي قَامُوسُ الْبَحْرِ<sup>(١)</sup>، هَاتِ يَدَكَ أَبَايَعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

- وَعَلَى قَوْمِكَ؟

قَالَ:

- وَعَلَى قَوْمِي.

مَا أَسْرَعَ مَا تَسْتَجِيبُ الْفِطْرَةَ السَّلِيمَةَ وَالْقَلْبَ الْحَيَّ لِنِدَاءِ السَّمَاءِ؟!

لَمْ يَقْرَأِ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى ضِمَادِ آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لَمْ يُلْقَ عَلَيْهِ خُطْبَةٌ طَوِيلَةٌ، لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُ فِي نِقَاشٍ أَوْ حِوَارٍ طَوِيلٍ، إِنَّهَا كَلِمَاتٌ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ ضِمَادُ: بَلَغَنِي قَامُوسُ الْبَحْرِ!!

ثُمَّ مَدَّ يَدَهُ بِلَا تَرَدُّدٍ؛ هَاتِ يَدَكَ أَبَايَعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ!

(١) قعر البحر؛ وقد وردت في بعض ألفاظ الحديث: «ناعوس البحر»، و«ناقوس البحر». والقصة بكاملها في "مختصر صحيح مسلم" (ص ١١٢) حديث رقم (٤٠٩) والاختلاف في لفظ الكلمة يدلُّ على اختلاف لغة الراوي للحديث، لا سيما والكلمة من لفظ الصحابي.

قال النبي ﷺ: وعلى قومك؛ لعلَّه ﷻ أراد وعلى دعوة قومك إلى الإسلام.

فأجاب الرجل فوراً:

- وعلى قومي!

فهو على ثقة تامّة أن قومه لا يخالفون له رأياً، أو دعوة، ولذلك أجاب بلا تردّد: وعلى قومي!

انضمَّ إلى القافلة الناجية أيضاً: ضَمْرَة بن العَيْص بن ضَمْرَة؛ وكان مصابَّ البصر، وكان موسراً، والطُّفيل بن سَخْبَرَة؛ أخو عائشة لأمها، وهو أكبر منها ومن أخيها عبد الرحمن.

#### ٨- الاستعانة باليهود:

- يا معشر قريش، إنَّه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتم له بحيلة بعد؛ قد كان محمَّد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر!

لا والله ما هو بساحر؛ لقد رأينا السَّحرة ونفَّتهم وعقدتهم!

وقلتم: كاهن!

لا والله ما هو بكاهن؛ قد رأينا الكهنة وتخالَّجهم، وسمعنا

سجعتهم!

وقلتم: شاعر!

لا والله ما هو بشاعر؛ قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلَّها؛  
هَزَجَه وَرَجَزَه.

وقلتم: مجنون!

لا والله ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون؛ فما هو بِخَنِقِه، ولا  
وسوسته، ولا تخليطه.

يا معشر قريش، فانظروا في شأنكم؛ فإنه والله لقد نزل بكم أمر  
عظيم<sup>(١)</sup>!

كان هذا المتحدث أحد أساطين الكفر؛ الذي قال عن القرآن:  
﴿أَسْطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ [القلم: ١٥]<sup>(٢)</sup>، وقال: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾  
[الأنعام: ٩٣]، وراح يتحدث عن ملوك الفرس؛ رستم واسفنديار  
وما جرى بينهما، وكانت أخباره من التفاهة بحيث لم يُعِن  
المؤرخون بتدوين شيء منها<sup>(٣)</sup>!!

إنه: النضر بن الحارث!

فلما قال ذلك بعثوه إلى يثرب، إلى أحبار يهود، وبعثوا معه عقبة  
بن أبي مُعَيْط، وقالوا لهما:

- سَلَاهُمْ عَنْ مُحَمَّدٍ، وَصِفَا لَهُمْ صِفَتَهُ، وَأَخْبِرَاهُمْ بِقَوْلِهِ؛ فَإِنَّهُمْ  
أَهْلُ الْكِتَابِ الْأَوَّلِ، وَعِنْدَهُمْ عِلْمٌ مَا لَيْسَ عِنْدَنَا مِنْ عِلْمِ الْأَنْبِيَاءِ!

انطلق الرجلان مسرعين حتى وصلا إلى يثرب، فسألوا أحبار

(١) "ابن هشام" (١/٣٢٠).

(٢) نفس المصدر (ص ٣٢١).

(٣) "إعجاز القرآن" للرافعي.

اليهود عن رسول الله ﷺ، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالوا لهم:

- إنكم أهل التوراة، ولقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

قال أحبار يهود:

- سألوه عن ثلاث نأمركم بهنّ؛ فإن أخبركم بهنّ فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فرّوا فيه رأيكم؛ سألوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول: ما كان أمرهم؛ فإنه قد كان لهم حديث عجب؟!!

وسألوه عن رجل طوّاف، قد بلغ مشارق الأرض ومغاريها؛ ما كان نبؤه؟!!

وسألوه عن قصة يوسف<sup>(١)</sup>!

فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه؛ فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل متقوّل؛ فاصنعوا في أمره ما بدا لكم<sup>(٢)</sup>.

## ٩- دليل جديد:

عاد وفد الضلالة إلى مكّة؛ عادوا فرحين وهم يحملون ثلاثة أسئلة<sup>(٣)</sup> أوصاهم بها أحبار اليهود، وهم يظنون أن النبي ﷺ سيعجز

(١) "الجواب الصحيح" (٤/ ٧٣، ٧٤) لابن تيميّة عن كتاب: "نبوة محمّد من الشكّ إلى اليقين" (ص ٧٢).

(٢) "ابن هشام" (١/ ٣٢١، ٣٢٢) وجاء فيها: «وسلوه عن الروح، بدلاً من قصة يوسف»، والقصة بكاملها في "ابن هشام".

(٣) أو أربعة إذا كان السؤال عن الروح من ضمنها، ونرجح أن السؤال عن الروح جاء بعد الإسراء والمعراج. والله أعلم.

عن الإجابة عنها! وذهبت المجموعة التي نصبت نفسها لمحاربة دين الله إلى النبي ﷺ، وسألوه عنها، وكان النبي ﷺ حريصًا جدًا جدًا على هدايتهم، وانتظر أن يأتيه الوحي بالجواب بسرعة، فقال لهم: - غدا.

ولكن الوحي لم يأت في اليوم التالي، ولا في الذي بعده، ولا في الذي بعده!

ووجد كفار قريش في تأخر الجواب مادةً للنبيل من النبي ﷺ، ولم يعلموا أنها كانت دليلًا له لا عليه!

كانت دليلًا قاطعًا على أن النبي ﷺ لا يتكلم من عند نفسه، ولا يملك أن يتكلم بغير ما يؤمر، أو بغير ما يوحى إليه!!

وكانت دليلًا أيضًا على أنه لا يعلمه بشر، ولا جن، ولا ما يظنون!!

إن الله تبارك وتعالى يعلم أن نية قريش لم تكن من أجل الهداية والإيمان بالدين الحق، ولكن غرضهم الأول: تعجيز النبي ﷺ، ثم جاء الجواب وفيه عتاب لطيف حبيب: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِعُّ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وأجاب القرآن الكريم عن السؤال الأول، في «سورة الكهف»:

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾

[الكهف: ٩]؛ فإن الآيات التي تنتشر في هذا الكون؛ في الأرض والسماء، في خلق الناس، في الدواب، في النبات، في البحار



والأنهار، في كلِّ ما يحيط بالنَّاس، وفي النَّاس أنفسهم؛ آيات  
وآيات وأدلة قاطعة دامغة على وجود الله وعظمته، وعلمه، وقدرته،  
وتفردّه، وقهره، وسلطانه!!

ثم يدخل في صلب القصة بدون مقدمات:

﴿إِذْ أَوْىءَ الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ  
لَنَا مِن أَمْرِنَا رَشَدًا﴾<sup>(١)</sup> ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَيْهِمُ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ  
عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾  
[الكهف: ١٠-١٢]؛ كل هذا، والقرآن يجعلك تسأل وتساءل: لماذا؟  
لماذا؟ لماذا؟

ويأتيك الجواب في غاية البيان والروعة:

﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ  
هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
لَن نَدْعُو مِن دُونِهِ ءِإِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾<sup>(٤)</sup> [الكهف: ١٣-١٤].

وانظر كيف تحوّلت القصة إلى الردِّ على كفَّار قريش الذين يعبدون  
الأوثان والأصنام التي تحيط بالبيت الحرام: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا  
مِن دُونِهِ ءِإِلَٰهَةً لَّوَلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمُ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن  
أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾<sup>(٥)</sup> [الكهف: ١٥].

(١) وفي هذه القصة - قصة أصحاب الكهف - توجيه لكل جماعة مؤمنة تجد  
نفسها في ظرف لا يساعدها على الظهور والدعوة إلى الله؛ أن تختفي وتستتر  
وتغيب نفسها عن أنظار الكفَّار الطغاة حتى يأذن الله بما يشاء، وليس عليها  
أن تواجههم وهي بهذا القدر من الضعف وهم بهذا القدر من العنف! ويؤيد  
ذلك هجرة المسلمين إلى الحبشة، وهجرة الرسول والمؤمنين إلى المدينة.

لقد ردَّ القرآن كيد الكفار في نحورهم، وأقام عليهم من أسئلتهم دليلاً على ظلمهم، وطالبهم بالدليل الواضح البين على اتخاذهم آلهة من دونه! ثم يتحوّل الخطاب إلى الفتية المؤمنين، وكأنهم أمامك تراهم رأي العين:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١١٦﴾﴾ [الكهف: ١١٦].

ولكن: هل الخطاب إلى الفتية، أم إلى النبي ﷺ وإلى المؤمنين من أصحابه؟ إن الله سينصركم ويهيئ لكم المكان الآمن والمرفق المريح! وتمضي القصة بأسلوب جميل، وعرض جديد يأخذ بمجامع القلوب، ويدخل إلى النفوس الحية من كلِّ جانب!!

وبعد سبع صفحات من «سورة الكهف» يأتي الجواب عن السؤال الثاني:

﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ قَالُوا سَأَتُلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾﴾ [الكهف: ٨٣]؛ إذن فهذا الرجل الطواف الذي لم يفصح عنه أخبار اليهود هو: ذو القرنين، ولعلهم لم يعرفوا اسمه!!

وعلى طريقة القرآن الفذة، وأسلوبه المعجز يدخل إلى قلب القصة:

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾

[الكهف: ٨٤-٨٥].

(١) يخطئ كثير من المسلمين ممن لم يواظبوا على قراءة القرآن، فيقولون في موضع الاستشهاد: إن الله يقول: وجعلنا لكلِّ شيء سبباً، والصواب كما جاء في الآية المشار إليها.

فإذا انتهى القرآن العظيم من عرض القصّة الثانية عاد بالخطاب على كفّار قريش، عاد عليهم بالتأنيب والتقريع والتوبيخ:

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْفِ أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْنَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٢-١٠٥].

لماذا؟ لماذا لا يقام لهؤلاء الكبار الذين يتصدّرون النَّاسَ وزنٌ؟

لماذا؟

﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾

[الكهف: ١٠٦].

ثم يلتفت السياق إلى المؤمنين الذين يعانون الأمرين في الشَّعب، وغير الشَّعب:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨].

لا والله؛ إن الذي يرْفُلُ في النعيم المقيم لا يبتغي أن يتحوّل عنه

أبدًا! أبدًا!

في هذه السنة وُلد عبد الله بن عباس<sup>(١)</sup> في شِعب أبي طالب.

(١) حبر الأمة، والذي دعا له النبي ﷺ بقوله: «اللهم فقّههُ في الدين، وعلمهُ التأويل».

## ١٠- قصة للحياة:

أجاب الوحي الكريم عن سؤالين من الأسئلة التي طرحها المشركون، والتي جاؤوا بها من أحبار اليهود، فماذا عن السؤال الثالث؟ أفرد القرآن للجواب عن السؤال الثالث سورة بكاملها، سورة تتكون من خمس عشرة صفحة بكاملها، وهو ما لم تتضمنه سورة من سور القرآن عن نبي من الأنبياء! ولم يتكرر ذكره في سورة أخرى إلا في آية واحدة؛ وهي الآية رقم (٣٤) من سورة المؤمن «غافر». لماذا؟

لأنها تبحث في الصراع الداخلي بين أفراد الأسرة الواحدة، والذي يتكرر كل يوم، وفي كل مكان ما دار الزمان! لأنها تعالج الصراع الذي يحدث بين الإخوة إذا كان أحدهم أثيراً عند أبيهم أكثر منهم!

إنها تعالج مشكلات البيوت المترفة التي لا تقوم على أسس متينة من الدين والأخلاق.

إنها تعالج أموراً اقتصادية واجتماعية وسياسية.

إنها قصة الحياة على مدة الزمان.

وقد تضمنت في طياتها إحياءً واضحاً بأن النبي ﷺ سيخرج من بلده، وسيذهب إلى مكان آخر يعاني فيه بعض المشقة، ثم يُمكن له في الأرض، وتدين له مكة وغير مكة بالطاعة والولاء!!

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ

وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفْلِينَ ﴿٣﴾ [يوسف: ٣].

فالنبي ﷺ لم يكن يعلم شيئاً عن قصص الأنبياء المذكورة في القرآن، ولكن الله تعالى قصّها عليه للعبرة والعظة، والتسديد والتأييد، والأخذ بيده في طريق الدعوة إلى الله.

على طريقة القرآن؛ يدخل مباشرة إلى صلب القصة مع الإثارة، وترك النفوس تتطلّع متلهّفة لمعرفة المزيد، والمزيد:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [يوسف: ٤].

أحد عشر كوكبًا، والشمس والقمر يسجدون للصبي الصغير الذكي الجميل يوسف! لماذا؟

أدرك الوالد مغزى الرؤيا، ولكنه لا يعبرها له، وإنما يوصيه ويحذره:

﴿قَالَ يَبْنَئِي لَأَلْقَى لَكَ لُحْيَةً فَإِنِّي أَخَافُ أَن يُسَلِّطَ عَلَيَّ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: ٥].

معنى ذلك أن الإخوة يستطيعون أن يدركوا معنى الرؤيا، وعلى أساسها سيكيدون له، ويُعادونه!

ولكنهم كانوا يُعادونه فعلاً، ونار الحقد، والغيرة والحسد، والكراهية تأكل قلوبهم!

وتمضي الأحداث، والقارئ والسامع يريدان أن يعرفا سرّ الرؤيا التي يكشف عنها القرآن، ويكيد الإخوة للأخ الصغير، ويُلقى في

الجبّ، ثم يُباع بثمان بخس، ويخرج مع القافلة الذاهبة إلى مصر، ويُباع هناك كما يُباع الرقيق، ويستقرُّ به المقام في أحد البيوت الكبيرة، وهناك نرى من تصرفات الطبقة الراقية ما يجعلها واطية!! حتى يتمنى لكي يتخلّص منها أن يُلقى في السجن!

وفي السجن أخذ يدعو من معه إلى عبادة الله وحده:

﴿يَصَلِحِي السِّجْنَ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠].

وفي هذا الجواب صفة أخرى إلى كفار قريش الذين فرحوا بالأسئلة التي جاؤوا بها من يثرب!

يوسف؛ الذي قال عنه النبي ﷺ:

- الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب ابن إسحاق بن إبراهيم<sup>(١)</sup>.

يوسف الصديق، وهو في السجن لا ينسى دعوته، لا ينسى أن يدعو من معه إلى الله؛ فالدعوة إلى الله لا تختص بفرد ولا قوم ولا جنس، إنها توجّه إلى النَّاسِ كافة؛ من كل لون، من كل لبس، من كل جنس، من كل لسان!

ثم يأتي اعتراف النسوة، وامرأة العزيز:

(١) "تفسير ابن كثير" (٢/٤٦٨)، والحديث رواه البخاري.

﴿قَالَتْ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ الْكَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١].

فينال إعجاب الملك، ثم يدعو، ويكلِّمه: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُونِي بِهِزَ اسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ﴾ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٦) وَلَا جُرْ الْأَخِرَةَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُوتُونَ﴾ (٥٧) [يُوسُفَ: ٥٤-٥٧].

ومن خلال مركزه استطاع أن ينشر دعوته...

ولكن الرؤيا بقيت لغزاً إلى هذه الساعة؛ فمتى يأتي الحل؟!

تدهورت الحالة الاقتصادية في البلاد، وامتدَّت إلى البلاد المجاورة، وجاء إخوة يوسف يطلبون الميرة، واستطاع أن يأتي بأخيه، ويحتفظ به ثم يكشف لهم عن نفسه بعد ذلك، ويدعو أهله إلى القدوم إلى مصر:

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠].

١١- ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾:

كان كفَّار قريش حريصين كلَّ الحرص على تكذيب النبي ﷺ، وكانوا يحاولون مُستَيْثِسين كالغريق أن يتمسَّكوا ولو بخيط واهٍ يؤيِّد باطلهم! وكان النبي ﷺ أحرص النَّاس على هدايتهم؛ كالوالد الرحيم

الذي يرى أبناءه يتساقطون في النار، فيبذل كل ما في وسعه لإنقاذهم!  
عبر عن ذلك القرآن الكريم بقوله في «سورة الشعراء»:

﴿لَعَلَّكَ بَلِغٌ نَفْسِكَ إِلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وفي «سورة الكهف»:

﴿فَلَعَلَّكَ بَلِغٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

﴿١﴾ [الكهف: ٦].

وفي «سورة يوسف»:

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

انتهت قصة يوسف عليه السلام بتفسير الرؤيا التي رآها عندما كان صغيراً، تمكن في مصر وراح ينشر دعوته؛ الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له من موضع القوة والسلطة، وتلبية حاجة الناس إلى الطعام في السنوات العجاف!

وتنتهي القصة، ويلتفت القرآن إلى أهل مكة:

﴿وَكَايِنٍ مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا

مُعْرِضُونَ﴾ [١٠٥] ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

[١٠٥-١٠٦].

ثم يوجه الخطاب إلى النبي ﷺ فيقول:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ

اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].



وكان في سورتَي «الكهف» و«يوسف» توجيهٌ وتسديدٌ، وتثبيتٌ وتربيةٌ، وإعدادٌ للنبي ﷺ ولأصحابه المؤمنين الصابرين الصادقين، الذين كانوا يعانون من اضطهاد المشركين، ومقاطعتهم، وحصرهم في شِعب أبي طالب!

وقد تَضَمَّنَت «سورة الكهف» شيئاً آخر غير أصحاب الكهف وذي القرنين؛ تَضَمَّنَت قصة موسى ﷺ مع الخضر؛ فقد أصرَّ موسى على صحبته، فقال:

﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾

[الكهف: ٦٧-٦٩].

فاشترط عليه ألا يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يحدثه! ولكنّه لم يصبر، فتسرَّع في الإنكار والاعتراض والاقتراح، وقطع على نفسه خط الرجعة عندما قال:

﴿إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦].

ولكنّه سأله، فقطع سير الصحبة...

فهل كانت هذه القصة توطئة للحدث العظيم الذي سيأتي بعد حين؟!.

في الرحلة العظيمة التي صحب فيها النبي ﷺ جبريل ﷺ.

## ١٢- خمسة رجال:

ثلاث سنوات مضت والمسلمون محاصرون في شعب أبي طالب.

ثلاث سنوات وبنو هاشم وبنو عبد المطلب مؤمنهم وكافرهم مضيق عليهم في الشعب.

ثلاث سنوات والمقاطعة مستمرة؛ لا يبيعونهم ولا يشترون منهم، لا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم، لا يجالسونهم ولا يجلسون إليهم، ولا يدخلون بيوتهم، ولا تأخذهم بهم رافة!!

هل هذه أخلاق العرب؟!

هل يتركون أهلهم وأقرب الناس إليهم يموتون جوعاً؟!

أين ذهبت المروءة والشهامة وإكرام الضيف ولو كان عدواً؟ أين؟ لماذا يتخلون عن صفاتهم ومروءتهم؟

لماذا؟ من أجل من؟

من أجل عدد من الحاقدين لا يزيدون على أصابع اليدين؟!

من أجل الجاهل الغادر المجنون أبي جهل ابن هشام؟!

من أجل الأصنام الحيّة المستميتة في الدفاع عن الأصنام الميّنة؟!

من أجل الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، وعتبة، وشيبة،

والنضر بن الحارث الذي كان يقول: سأُنزل مثل ما أنزل الله؟!

من أجل هذه الحفنة الحقيرة يعاني المسلمون وغير المسلمين من

بني هاشم ألمّ الجوع والفاقة والعوز!

ولكنَّ الأمر لا بد أن ينتهي، وإنَّ مع العسر يسراً!  
 وحدث استياء عامُّ بين أهل مكَّة؛ بدأ النَّاس يهمسون أولاً، ثم  
 تحوَّل الهمس إلى حديثٍ في البيوت، ثم خرج إلى المجالس، ولكن  
 لا أحد يستطيع أن يرفع صوته عاليًا، إنَّ الأمر يحتاج إلى رجل لديه  
 الجرأة الكافية لكي يُقدم على تمزيق صحيفة العدوان، أو مهاجمتها،  
 أو المطالبة بإنهائها..

كانوا يخشون اللوم الشديد، والتقريع والتوبيخ من قِبَل أئمة الكفر  
 القائمين على حراسة الحجارة المعبودة من دون الله!  
 ولكن رهطًا من قريش نهضوا لذلك الأمر؛ خمسة رجال تعاقدوا  
 على نقضها:

هشام بن عمرو، وزُهَيْر بن أَبِي أميَّة، والمُطْعِم بن عدي، وأبو  
 البُخْتَرِي ابن هشام، وزَمْعَة بن الأسود بن المطلب..

فكيف حدث ذلك!؟





(٩)

بماذا أمرَ مَلَكَ الجِبَالِ؟!!

«بل أرجو أن يُخرجَ اللهُ من أصلابهم  
من يعبدُ اللهُ وحده ولا يشركُ به شيئاً».

محمَّدُ رسولُ اللهِ ﷺ

### ١- الخبر اليقين:

ارتفعت الشمس على مكة، وكفار قريش في مجالسهم حول البيت، وعدد غير قليل من الرجال يطوفون حول الكعبة = عندما دخل من باب المسجد أبو طالب يحيط به عدد من أصحابه؛ كان الرجل قد جاوز الثمانين من العمر، طويلاً، أبيض، مهيب الطلعة، بلحية بيضاء أكسبته هيبة وجمالاً! فنهض المشركون لاستقباله وقد أيقنوا أنه إنما جاء لأمر ذي بال!

وكان مجيئه على تلك الحالة قد لفت أنظار الطائفين حول الكعبة؛ فأقبل بعضهم ليرى ماذا يكون؟! وقف أبو طالب بعد أن سلم عليهم، وقال:

- قد حدثت أمور لم نذكرها لكم، فأتتوا بصحيفتكم التي تعاهدتكم عليها؛ فلعن الله أن يكون بيننا وبينكم صلح.

أسرع القوم فرحين، فجاؤوا بالصحيفة، وهم لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم، فوضعوها بينهم، وقالوا:

- قد آن لكم أن تقبلوا أو ترجعوا إلى أمر يجمع قومكم؛ فإنما قطع بيننا وبينكم رجلاً واحداً، جعلتموه خطراً لهلكة قومكم وعشيرتكم وفسادهم.

قال أبو طالب وهو ينظر إلى الصحيفة ثم إليهم:

- إنما أتيتكم لأعطيكم أمراً لكم فيه نصف؛ إن ابن أخي أخبرني

- ولم يكذبني - أن الله بريء من صحيفتكم التي في أيديكم، ومحا

كلَّ اسم هو له فيها، وترك فيها غدركم، وقطيعتكم إيانا، وتظاهركم علينا بالظلم<sup>(١)</sup>!

فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا؛ فوالله لا نُسلمه أبدًا حتى يموت من عندنا آخرنا! وإن كان الذي قال باطلاً دفعناه إليكم فقتلتموه، أو استحييتم!

قالوا:

- قد رضينا بالذي تقول.

فأسرعوا فجاؤوا بالصحيفة، وكانت في جوف الكعبة، ثم فتحوها، ونظروا فيها.

ولم يرفعوا رؤوسهم عنها لحظات!!

والناس الذين تجمَّعوا ينظرون إليهم، وقد قطع بعضهم طوافه حول الكعبة، وخفَّ آخرون وقد أقبلوا من خارج المسجد، وأبو طالب والرَّهط ينظرون إلى المشركين الذين أحاطوا بالصحيفة ولم يرفعوا عنها رؤوسهم، بل راح بعضهم يُدْمِدِم مع نفسه، ثم رفع أحدهم رأسه وصاح:

- والله إن كان هذا قَطُّ إلا سحرًا من صاحبكم.

(١) وقد ورد عند أصحاب السيرة أيضًا أن الذي أكلته الأَرْضَة هو ما كتب فيها من قطعة وظلم وبهتان، وأبقت الأَرْضَة ما فيه اسم الله فلم تأكله. انظر في ذلك: "السيرة النبوية" لابن هشام (١٦/٢)، وابن كثير نقلًا عن "ابن هشام" (٢٨١/١ و ٢٨٢)، و"البداية والنهاية" لابن كثير (٨٤/٣) و (٨٥).



فقال أحد النفر من بني عبد المطلب:

- إن الأولى بالكذب والسحر غيرنا، فكيف ترون؟ وإنا نعلم أن ما اجتمعتم عليه من قطيعتنا أقرب إلى الجبت والسحر من أمرنا! ولولا أنكم اجتمعتم على السحر لم تفسد صحيفتكم وهي بين أيديكم؛ طمس الله ما كان فيها من اسمه، وما كان فيها من بغي تركه؛ أفنحن السحرة أم أنتم<sup>(١)</sup>؟!

وعاد أبو طالب ومن معه، وبقي كفار قريش يقبلون الصحيفة بين أيديهم، وانفض الناس وقد ازدادوا سخطاً على أولئك الظلمة الذين كانت تكفيهم هذه الحادثة على أن يرعوا، ويعودوا عن غيهم، ولكنه الظلم والبغي والحسد؛ طمس على أبصارهم وبصيرتهم!!

ولكن كيف علم النبي ﷺ بأمر الصحيفة، والناس الذين كانت بين أيديهم لم يعلموا، ولو علموا لأخفوها، أو كتبوا غيرها، أو كتبوا ما لحسته الأرضة منها؟!!

الله تبارك وتعالى أخبر نبيه<sup>(٢)</sup>، فأخبر النبي ﷺ عمه، فقال أبو طالب:

- لا والثواقب ما كذبتني!<sup>(٣)</sup>

أنقذ الله تعالى عبده: عمير بن عمرو بن نضلة الخزاعي، فوضعه على الطريق المستقيم؛ وكان أبوه عمرو قد قدم مكة فحالف الحارث

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/٤٥، ٤٦).

(٢) نفس المصدر السابق (ص ٤٤).

(٣) نفس المصدر السابق (ص ٤٥).

بن زهرة، فزوجه الحارث ابنته نعمة، فولدت له عميراً، وكان أضبط، يعمل بيديه جميعاً، فصار يدعى بذي الشمالين<sup>(١)</sup>.

انضم إلى القافلة الناجية أيضاً: مرثد ابن أبي مرثد الغنوي، وأبوه: كناز بن حصن الغنوي؛ وكانا حليفين لحمزة بن عبد المطلب.

## ٢- صرخة احتجاج:

أثار الموقف الغادر الذي وقفه أعمدة الكفر من بني هاشم موجة من السخط والتذمر لدى أهل مكة، ورأوا أنهم قد تجاوزوا الحد في تعنتهم، وعنادهم المقيت الذي لا معنى له! وأنهم قد قطعوا الرحم واستخفوا بالحق! وأظهروا كراهيتهم لصحيفتهم الظالمة<sup>(٢)</sup>.

فنهض لذلك هشام بن عمرو بن ربيعة، وهو الذي كان يرسل بالابل الموقرة بالطعام فيدفعها إلى الشعب، فمشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة؛ وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب، فقال له:

- يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟!!

أما إنني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم ابن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً!

قال وقد هزته المقالة:

(١) "الاستيعاب" على هامش "الإصابة" (١/٤٨٤).

(٢) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/٤٧).

- ويحك يا هشام، فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد؛ والله أن لو كان معي رجل آخر لَقُمْتُ في نقضها حتى أنقضها!

قال هشام:

- قد وجدت رجلاً.

قال:

- فمن هو؟

قال:

- أنا .

قال زهير:

- أبغنا رجلاً ثالثاً.

فذهب هشام إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف، فقال

له:

- أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهدٌ على ذلك مُوافق لقريش فيه؟! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً!

قال المُطعم وقد هاله الأمر:

- ويحك فماذا أصنع، إنما أنا رجل واحد؟!

قال:

- قد وجدت ثانياً.

- من هو؟!

- أنا.

- أبغنا ثالثًا.

- قد فعلت.

- من هو؟!

- زهير بن أبي أمية.

- أبغنا رابعًا.

لا بدّ أن هشامًا هذا قد عرف رجالًا على مثل رأيه قد ألمهم مما رأوا من شدّة قريش على بني هاشم، فذهب يكلمهم الواحد بعد الآخر.

كان الرجل الرابع هو أبو البَحْتَرِيِّ ابن هشام؛ فلمّا كلّمه قال:

- وهل من أحد يُعين على هذا؟

قال:

- نعم.

- من هو؟!

- زهير بن أبي أمية، والمُطعم بن عدي، وأنا معك.

- أبغنا خامسًا.

فذهب إلى زَمْعَةَ بن الأسود بن المَظَلْب بن أسد؛ فكلّمه وذكر له

قرابتهم وحقهم، فقال له:

- وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

قال:

- نعم.

وذكر له أسماء القوم.

فأتعدوا على اللقاء ليلاً بأعلى مكة<sup>(١)</sup>، فاجتمعوا هنالك، وتدارسوا الأمر، فأجمعوا أمرهم، وتعاهدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، ووضعوا لذلك خطة!

أقبل إلى رياض الجنة: حصين بن الحارث بن عبد المطلب؛ ابن عم النبي ﷺ، وربيع بن عباد الدؤلي.

### ٣- تمزيق الصحيفة:

أخذ الرجال الخمسة أماكنهم في المجلس الذي كان يجلس فيه أبو جهل ابن هشام؛ أما زهير بن أبي أمية فقد جاء وعليه حلة فطاف بالكعبة سبعاً، ثم أقبل قريباً من أبي جهل، ثم التفت إلى الناس وصاح:

- يا أهل مكة!

فأقبل الناس نحوه، وانتبه أبو جهل ومن في المجلس.

(١) القصة بكاملها في: "ابن هشام" (١٤/٢، ١٥، ١٦، ١٧)، و"السيرة النبوية" لابن كثير (٤٦/٢).

- يا أهل مكة، أتناكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكتي  
لا يُباع ولا يُبتاع منهم؟!!

والله لا أقعد حتى تُشقَّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة!

فنهض أبو جهل وصاح كالمجنون:

- كذبت والله لا تُشقُّ.

فجابهه زمعة بن الأسود:

- أنت والله أكذب، ما رضينا كتابها حيث كُتبت!

فأيده أبو البخترى وقال:

- صدق زمعة؛ لا نرضى ما كُتب فيها ولا نقرُّ به!

فنهض المطعم بن عدي وقال:

- صدقتما، وكذب من قال غير ذلك؛ نبرأ إلى الله منها ومما

كُتب فيها! (١)

وصاح هشام بن عمرو:

- نحن بُرَاءٌ مما في هذه الصحيفة! (٢)

قال أبو جهل وهو يتميِّز غيظًا:

- هذا أمر قضي بليل، تُشوورَ فيه بغير هذا المكان!

ومزقت الصحيفة رغم أنف أبي جهل، وخرج بنو هاشم مؤمنهم

(١) "سيرة ابن هشام" (١٦/٢).

(٢) "السيرة النبوية" لابن كثير (٤٦/٢).

وكافرهم من الشَّعب، أمَّا كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة فقد دعا عليه النبي ﷺ فَشَلَّتْ يده، فما كان ينتفع بها!

انضمَّ إلى القافلة الآمنة: مسطح بن أثاثة؛ ابن خالة أبي بكر وهو رجل فقير مُعَدِم، كان أبو بكر يُعينه ويتصدَّق عليه.

#### ٤- المفاوضة الأخيرة:

لم تمض مدَّة طويلة على إنهاء المقاطعة والخروج من الشَّعب حتى وقع أبو طالب طريح الفراش، وشعر من كان يعودُه بأنَّ الرجل راحل إلى قبره! فاجتمع نفر من أئمَّة الكفر فيهم: أبو جهل ابن هشام، والعاص بن وائل، والأسود بن المطَّلِب، والأسود بن عبد يغوث، وتداولوا أمرَ النبي ﷺ؛ قالوا:

- إنَّا نخاف أن يموت هذا الشيخ، فيكون منَّا إليه شيء؛ فتعيِّرنا به العرب؛ يقولون: تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه!

وقالوا:

- انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلِّمه فيه فليُنصفنا منه!

ودخلوا على أبي طالب فكلَّموه، فبعث إلى النبي ﷺ، وتكلَّم رسول الله ﷺ فقال:

- يا عمِّ، إنِّي أريدكم على كلمة واحدة يقولونها؛ تدين لهم بها العرب وتؤدِّي إليهم بها العجم الجزية.

فقال القوم بصوت واحد:

- كلمة واحدة؟! نعم وأبيك عشرًا، وما هي؟

قال أبو طالب:

- وأيُّ كلمة هي يا ابن أخي؟

قال ﷺ:

- لا إله إلا الله .

فنفروا وقالوا:

- سلنا غيرها.

قال النبي ﷺ:

- لو جئتموني بالشَّمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها<sup>(١)</sup>.

فقاموا ينفضون ثيابهم وهم يقولون:

- أجعل الآلهة إلهاً واحداً، إنَّ هذا لشيء عجاب!

فلما خرجوا طمع النبي ﷺ في إسلام عمه؛ فدعاه إلى قول: لا إله إلا الله.

فأبى، وقال:

- بل على دين الأشياخ!!<sup>(٢)</sup>

خرج وفد الضلالة غاضباً، مصراً على كفره وعناده، ماضياً في

(١) هذه صيغة رابعة؛ وكما قلت فإنَّ تعدُّد الصيغ إنما جاء بتعدُّد المقابلات، والله أعلم.

(٢) القصة بكاملها في "تفسير ابن كثير" (٤/٢٧، ٢٨) جمعاً بين ثلاث روايات.



الصدُّ عن دعوة الله، محاربًا لله ولرسوله ﷺ، نافضًا يديه مما كان يطمع فيه! في هذا الوفد الضال نزلت آيات من «سورة ص»:

﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَعَلَّاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَأَصْبَرُوا عَلَىٰ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ ﴿٧﴾ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوْقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ [ص: ١-١١].

ثم وجه الله تبارك وتعالى نبيه إلى الماضي والاستمرار في دعوته، والصبر على ما يقولون كما صبر الأنبياء قبله؛ فهم على نفس الدرب:

﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾ [ص: ١٧].

وبعد عرض جميل لقصص عدد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يعود السياق فيقول:

﴿هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مَفْتَحَةٌ لَهُمْ ﴿٥٠﴾﴾ [ص: ٤٩-٥٠].

أما عن الكفار الطغاة المعاندين فقال:

(١) وقد أثنى النبي ﷺ على نبيِّ الله داود ﷺ؛ فقال: «أحِبُّ الصَّلَاةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى: صَلَاةَ دَاوُدَ، وَأَحِبُّ الصِّيَامَ إِلَى اللَّهِ ﷻ صِيَامَ دَاوُدَ؛ كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثَلَاثَةَ، وَيَنَامُ سُدْسَهُ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلَا يَفْرُ إِذَا لَاقَى، وَإِنَّهُ كَانَ أَوْابًا».

﴿هَذَا وَاتَّكَ لِلطَّغِينِ لَشْرًا مَّابِ ۝٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصَلَوْنَهَا فِئْسَ الْمُهَادُ ﴿٥٦﴾

[ص: ٥٥-٥٦].

وبعد أن يعرض صورة لحالة الكفار وهم يتخاصمون مع بعضهم؛ كلُّ يلقي اللوم على الآخر بسبب عدم إيمانه بالله، ثم يتوجه بالخطاب إلى النبي ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَجْدُ الْفَهَارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِي مِن عِلْمٍ بِالْمَلَائِكَةِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾ [ص: ٦٥-٧٠].

وبعد عرض موجز لقصة آدم وإبليس يعود بالخطاب إلى نبيه ﷺ:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [ص: ٨٦-٨٨].

نبأ النصر الذي سيتحقق لهذا الدين العظيم، والذي سيعمُّ الأرض من مشرقها إلى مغربها، ونبأ اليوم الآخر؛ حيث ينقسم الناس إلى فريقين: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧] (١).

٥- اذهب فوار أباك:

لعلَّ النبي ﷺ قد عاد أباً طالب في مرضه الأخير أكثر من مرة، لقد وقف أبو طالب قبل البعثة وبعدها مع النبي ﷺ، ربما كان يحبه أكثر من أولاده جميعاً، كان صادقاً في حمايته والدفاع عنه؛ لذلك فقد كان

(١) اقرأ للتفصيل: "في ظلال القرآن" (٢٣/٧٦-١٧٧) تفسير «سورة ص».

النبي ﷺ حريصًا على هدايته أشدَّ الحرص . قال له النبي ﷺ :

- قل : لا إله إلا الله ؛ أشهد لك بها يوم القيامة !

قال أبو طالب :

- لولا أن تعيرني قريش ؛ يقولون : إنما حملة على ذلك الجزع =  
لأقررت بها عينك<sup>(١)</sup> .

لماذا لا يقولها ثم يطلب إلى النبي ﷺ ألا يحدث بها أحدًا من  
النَّاس إلا بعد موته؟! إذا كان يخشى أن تعيره قريش في حياته!  
سبحان الله ، إنَّه لا يعلم بأسرار النفوس وخباياها إلا الله!!

ثم عاد النبي ﷺ مرَّةً أخرى ، فوجد عنده أبا جهل ابن هشام ،  
وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال رسول الله ﷺ :

- يا عمِّ ، قل : لا إله إلا الله ؛ كلمة أشهد لك بها عند الله!

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية :

- يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب؟!!

فلم يزالا يكلمانه ، والنبي ﷺ يعرضها عليه ، حتى قال :

- على ملة عبد المطلب!

وأبى أن يقول : لا إله إلا الله! فقال رسول الله ﷺ :

- أما والله لأستغفرنَّ لك ما لم أنه عنك<sup>(٢)</sup> .

(١) " صحيح مسلم بشرح النووي " (١/٢١٦) .

(٢) رواه البخاري (٥/٦٥ ، ٦٦) ومسلم (١/٢١٤ ، ٢١٥) .

ولم تمض أيام قليلة بعد هذا حتى جاء علي بن أبي طالب فقال:  
قلت للنبي ﷺ:

- إنَّ عمَّك الشيخ الضالُّ قد مات!

قال:

- اذهب فوارِ أباك، ثم لا تُحدِثَنَّ شيئًا حتى تأتيني.

- فذهبتُ، فواريته وجئته، فأمرني فاغتسلت ودعا لي (١).

ولما مرَّت به جنازة أبي طالب قال: «وصلتكَ رَجْمٌ يا عمُّ» (٢).

ونزل في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي

مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [٥٦] [القصص: ٥٦].

وانظر إلى الطريقة اللطيفة التي أنهى بها علي ﷺ - وكان في

العشرين من عمره - خبر وفاة أبيه إلى النبي ﷺ:

- إنَّ عمَّك الشيخ الضالُّ قد مات.

كأنه أراد أن يقول: إنه كان أقرب إليك مني، وإنه كان يحبُّك

(١) "أبو داود" (٢٩٠/٣) حديث رقم (٣٢١٤).

(٢) ورواه ابن عدي في "الكامل" (٢٦٠/١) من طريق الفضل بن موسى، عن إبراهيم بن عبد الرحمن الخوارزمي - وهو ضعيف - عن ابن جريج بن عطاء، عن ابن عباس مرفوعًا ولفظه: «وصلتكَ رَجْمٌ وُجِزْتَ خيرًا يا عمُّ»، وإبراهيم بن عبد الرحمن قال ابن عدي: «أحاديثه عن كل من روى ليست بمستقيمة» ثم قال: «وعامة أحاديثه غير محفوظة».

انظر: "تفسير ابن كثير" في تفسيره لـ«سورة التوبة» الآية: ١١٣، وفي "سير أعلام النبلاء، السيرة النبوية" (١/١٩٣) بعد أن ذكر الحديث قال الذهبي: «تفرَّد به إبراهيم بن عبد الرحمن الخوارزمي وهو منكر الحديث».

ويحوطك ويرعاك، ومع ذلك... .

فقال رسول الله ﷺ:

- اذهب فوارِ أباك، ثم لا تُحدِثَنَّ شيئًا حتى تأتيني.

لم يقل: اذهب فوار عمِّي؛ كأنَّ النبي ﷺ أراد أن يذكره بأنَّه أبوه! ثم أمره بأن يأتي إليه حال ينتهي من دفنه، وقد فعل عليٌّ ما أمره النبي ﷺ، فلمَّا عاد أمره فاغتسل ودعا له.

#### ٦- عام الحزن:

بعد ثلاثة أيام من موت أبي طالب توفيت الزوجة الكريمة الصالحة الطيبة: خديجة بنت خويلد؛ التي بشرها النبي ﷺ ببيت من قَصَب لا صَحَب فيه ولا نَصَب<sup>(١)</sup> لأنها حازت قصب السبق إلى الإيمان، ولأنها لم ترفع صوتها على النبي ﷺ، ولم تُتعبه يومًا من الدهر، فلم تصخب عليه يومًا ولا آذته أبدًا<sup>(٢)</sup>، بل كانت نعم الزوجة الصالحة التقية الحنون! كانت ﷺ تخفف عنه كلَّ عناء وشدة يلقاها من قومه، وكانت تهوّن عليه الصُّعاب؛ فحزن عليها حزنًا عظيمًا، إضافة إلى حزنه على عمِّه الذي لم تمض على وفاته أكثر من ثلاثة أيام!

ودُفنت ﷺ بالحجون، ونزل النبي ﷺ في حفرتها حين دُفنها، وأدخلها القبر بيده ﷺ، ولما رأت خولة بنت حكيم - زوجة عثمان

(١) رواه البخاري، عن "السيرة النبوية" لابن كثير (١٣٣/٢).

(٢) نفس المصدر السابق، والكلام لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي في "الروض الأنف".

بن مظعون - شدة حزنه على خديجة قالت:

- يا رسول الله، كأنني أراك قد دخلتكَ خلةً لفقد خديجة رضي الله عنها؟

فقال:

- أجل، أم العيال وربّة البيت<sup>(١)</sup>.

الزوجة الصالحة المؤمنة بدعوة الله تذلُّ كثيراً من الصعاب لزوجها الداعية إذا شاركته همومه وآلامه، وفقد مثل هذه الزوجة في احتدام المعركة بين الكفر والإيمان مما يبعث على الأسى والحزن؛ ولذلك حزن الرسول ﷺ على فقدها.

والحزن على فقد القريب الحامي لدعوة الحق، غير المؤمن بها<sup>(٢)</sup>، وعلى فقد الزوجة المؤمنة المخلصة = حزن تقتضيه طبيعة الإخلاص للدعوة.

أسلم في هذه المدة: قدامة الكلابي، وخالد بن حزام بن خويلد، وامراته أميمة؛ وخالد بن حزام؛ عمته خديجة بنت خويلد رضي الله عنها.

(١) "السيرة النبوية" لابن دحلان (١/٢٦٧).

(٢) انظر: "السيرة النبوية"، دروس وعبر" للدكتور مصطفى السباعي (ص ٦٥-٦٦) ثم قال: ولذلك قال رسول الله ﷺ لما مات أبو طالب: «رحمك الله وغفر لك! لا أزال أستغفر لك حتى ينهاني الله»؛ فافتدى المسلمون برسولهم يستغفرون لموتاهم المشركين حتى نزل قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

٧- هذه امرأتك:

بعد مدة من وفاة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها رأى النبي صلى الله عليه وسلم ملكًا جاءه بسرقة<sup>(١)</sup> من حرير، فقال له:

- هذه امرأتك.

فكشف عن وجهها فإذا عائشة، فقال:

- إن يك هذا من عند الله يُمضه<sup>(٢)</sup>.

وتكررت الرؤيا ثلاث مرّات في ثلاث ليال.

لم تمض أيام حتى جاءت خولة بنت حكيم زوجة عثمان بن مظعون، فقالت له:

- يا رسول الله، ألا تزوج؟

قال:

- من؟

قالت:

- إن شئت بكرة، وإن شئت ثيبًا.

قال:

- فمن البكرة؟

قالت:

(١) قال الألباني: في قطعة من جيد الحرير.

(٢) "مختصر صحيح مسلم" للمنذري (ص ٤٤٠) حديث رقم: ١٦٥٨.

- بنت أحب خلق الله إليك؛ عائشة ابنة أبي بكر.

قال:

- ومن الثيب؟

قالت:

- سوذة بنت زمعة؛ وقد آمنت بك واتبعتك.

قال ﷺ:

- فاذهبي فاذكريهما علي.

أسرعت خولة إلى بيت أبي بكر، فدخلت على أم رومان<sup>(١)</sup>

تبشّرها، والسرور يكاد يستبدُّ بها:

- يا أم رومان، ما أدخل الله عليك من الخير والبركة!

قالت:

- وما ذلك؟!

قالت:

- أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قالت أم رومان:

- انتظري أبا بكر حتى يأتي!

(١) كان لأبي بكر ثلاث زوجات في مكة: أم بكر، وقتيلة بنت عبد العزى العامري؛ وهي أم عبد الله وأسماء، وأم رومان؛ زينب الفارسية؛ وهي أم عبد الرحمن وعائشة.



لم يطل بها الانتظار كثيرًا حتى جاء أبو بكر، فتلقته خولة مبشرة:

- يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة!

قال:

- وما ذاك؟!

قالت:

- أرسلني رسول الله ﷺ أخطب عليه عائشة.

قال:

- وهل تصلح له؟! إنما هي ابنة أخيه<sup>(١)</sup>.

عادت خولة سريعةً إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له.

فقال رسول الله ﷺ:

- ارجعي إليه فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام،

وابنتك تصلح لي.

فرجعت إلى أبي بكر فأخبرته، وكان المطعم بن عدي قد ذكرها

على ابنه جبير، ووعدته أبو بكر، فلما قالت خولة ذلك قال أبو بكر:

- انتظري.

وخرج سريعًا إلى بيت المطعم بن عدي.

قالت أم رومان:

(١) جرت مؤاخاة في مكة بين المسلمين، فكانت مؤاخاة بين النبي ﷺ وبين أبي بكر، فظن أبو بكر أن الأخوة في الدين كالأخوة في النسب.

- إنَّ مُطْعِمَ بنِ عدي قد ذكرها على ابنه، ووالله ما وعد أبو بكر وعدًا قطُّ فأخلفه!

دخل أبو بكر على المُطْعِمِ بنِ عدي، فبادرته امرأته فقالت:

- يا ابن أبي قحافة، لعلك مُصْبِيٌّ صاحبنا؛ تُدخله في دينك الذي أنت عليه إن تزوّج إليك؟!!

فالتفت أبو بكر إلى المُطْعِمِ بنِ عدي وسأله:

- أقولَ هذه تقول؟

قال مؤيِّدًا:

- إنها تقول ذلك.

فخرج من عنده وقد أذهب الله ما كان في نفسه من عدته التي وعده، ورجع إلى خوّلة فقال لها:

- ادعي لي رسول الله ﷺ.

فذهبت وهي تكاد تطير من شدة الفرح، فدعته، فزوّجها إيّاه<sup>(١)</sup>.

ثم مضت خوّلة بنت حكيم إلى سودة بنت زَمْعَةَ، فقالت:

- ما أدخل الله عليك من الخير والبركة!

قالت:

- وما ذاك؟

(١) القصة بكاملها في "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/١٤٢ - ١٤٥)، و"السيرة النبوية" لابن دحلان (١/٢٦٨، ٢٦٩)، والحديث رواه أحمد في مسند عائشة أم المؤمنين.

قالت :

- أرسلني رسول الله ﷺ أخطبك إليه.

قالت :

- وددتُ، ادخلي إلى أبي فاذكري ذلك له.

كان أبوها شيخًا كبيرًا قد أدركه السن، قد تخلّف عن الحج، دخلت عليه خوّلة، فحيّته بتحية الجاهلية، فقال:

- من هذه؟

قالت :

- خوّلة بنت حكيم.

قال :

- فما شأنك؟

قالت :

- أرسلني محمّد بن عبد الله أخطب عليه سودة.

فقال :

- كُفءٌ كريم، ما تقول صاحبك؟

قالت :

- تحبُّ ذلك.

قال :

- ادعيها إلي.

فلما جاءت سودة قال:

- أي بنيّة، إن هذه تزعم أن محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب

قد أرسل يخطبُك، وهو كفاء كريم؛ أتحيين أن أزوّجك به؟

قالت:

- نعم.

قال لخولة:

- ادعيه لي.

فجاء رسول الله ﷺ، فزوّجها إيّاه، وانتقلت إلى بيته، وكان ذلك

بعد ثلاثة أشهر من وفاة خديجة رضي الله عنها.

### ٨- جئتكم بالذبح:

لم تمض مدّة طويلة على وفاة أبي طالب حتى نالت قريش من

رسول الله ﷺ ما لم تنله في حياته! ولقد اجتمع بعض أشرافهم ذات

يوم في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا:

- ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قط؛ سفّه أحلامنا،

وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرّق جماعتنا، وسبّ آلهتنا، وصيرنا منه

على أمرٍ عظيم.

فبينما هم في ذلك طلع رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى استلم

الركن، ثم مرّ طائفاً بالبيت، فغمزوه ببعض القول، وأسمعوه ما يكره،

فَعُرِفَ ذلك في وجهِ رسولِ الله ﷺ، فمضى، فلمَّا مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فَعُرِفَ ذلك في وجهه، فمضى أيضًا، فمرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف عليهم فقال:

- أسمعون يا معشر قريش؟ أما والذي نفسي بيده قد جئتكم بالذبح!!

فأخذت القومَ كلمته، فرُعبوا، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر وقع!! حتى إن أشدهم عليه يَرَفُوهُ - يترضاه - ويقول:

- انصرف أبا القاسم راشدًا، فما كنتَ بجهول<sup>(١)</sup>!

فانصرف رسول الله ﷺ.

انظر كيف ألقى الله تعالى مهابته ﷺ على أولئك النفر الساخر الجاهل من كفار قريش! لقد قطعت كلمة النبي ﷺ ألسنتهم، وألقت عليهم رعبًا هائلًا، إنهم يعلمون أنه إذا قال صدق، وتحقق.

- أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح!

فلمَّا كان اليوم التالي اجتمعوا في الحجر كعادتهم، ونظر بعضهم إلى بعض، ثم تلاوموا:

- ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم منه؛ حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه؟!

فبينما هم على ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، فأحاطوا به يقولون:

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (١/٤٧١، ٤٧٢).

- أنت الذي تقول كذا وكذا؟!!

لما كان يبلغهم من عيب آلهتهم ودينهم، فيقول رسول الله ﷺ:

- نعم؛ أنا الذي أقول ذلك.

فأخذ رجل منهم بمجامع ثوبه، وأقبل أبو بكر فصار يضرب هذا، ويدفع هذا، وهو يقول:

- أتقتلون رجلاً أن يقول: ربي الله (١)، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟!!

فلهوا عن رسول الله ﷺ، وأقبلوا على أبي بكر يضربونه (٢) ضرباً شديداً، وجعل عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين؛ يحرفهما بوجهه حتى ما يُعرف وجهه من أنفه!!

وحملت بنو تميم أبا بكر وهم لا يشكُّون في موته، فلما أفاق آخر النهار وتكلم كانت أول كلمة نطق بها:

- ما فعل رسول الله ﷺ؟!!

فدنت منه أم جميل، فاطمة بنت الخطاب؛ أخت عمر بن الخطاب، فسألها عن رسول الله ﷺ فقالت:

- هذه أمك تسمع.

قال:

- فلا شيء عليك منها.

(١) "السيرة النبوية" لابن دحلان (١/٢٧٠) والحديث عن علي بن أبي طالب.

(٢) "الاستيعاب" (٢/٢٤٨).

قالت:

- سالمٌ صالحٌ.

قال:

- فَإِنَّ لِلَّهِ عَلِيًّا أَلَا أَذُوقُ طَعَامًا أَوْ أَشْرِبُ شَرَابًا أَوْ آتِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ! فأمهلنا حتى إذا هدأت الرِّجْل، وسكن النَّاسُ خرجتا به يتكئ عليهما حتى أدخلتاه بيتَ النبي ﷺ، فرقَّ له رسول الله ﷺ رَقَّةً شديدة، ودعا رسول الله ﷺ لأمِّه؛ أمَّ الخير، سلمى بنت صخر بن عامر<sup>(١)</sup>، ودعاها إلى الإسلام، فأسلمت<sup>(٢)</sup>.

لأوَّل مرَّة تنال قريش من أبي بكر، كان أبو بكر رجلًا محببًا سهلًا، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلمهم بما كان منها من خير أو شر، وكان تاجرًا ذا خلق معروف، وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه وحسن مجالسه<sup>(٣)</sup>، ولكنَّ الباطل أعمى أعينهم فنالوا منه حتى أدموه! وعندما أفاق لم يسأل عن نفسه، ولا عن شيء يخصه، وإنما قال:

- ما فعل رسول الله ﷺ؟!

وكانت فاطمة بنت الخطاب؛ زوجة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قد أسرعت إلى بيت أبي بكر، فدنَّت منه وقالت بصوت خفيض:

- هذه أمُّك تسمع.

(١) "الاستيعاب" (٤/٢٤٣).

(٢) "السيرة النبوية" للندوي (ص ١١٠) عن: "السيرة النبوية" لابن كثير (١/٤٣٩، ٤٤١).

(٣) "الإصابة" (٢/٣٤٢).

لأنها تعلم أن أمه لم تُسلم بعد، وهي لا تريد أن تتكلم بشيء أمامها، فلمّا أخبرها أن لا شيء عليها منها، قالت:  
- سالم صالح.

فأقسم ألا يأكل أو يشرب حتى يرى النبي ﷺ بعينه، ويطمئن عليه؛ انظر إلى هذا الحب العظيم للنبي ﷺ! وذهب إلى بيت النبي ﷺ، واطمأن عليه، وكانت النتيجة أن أسلمت أمه؛ أم الخير، سلمى بنت صخر بن عامر.

### ٩- ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾:

دخل حديث الإسلام إلى كل بيت في مكة، ونقله حجاج بيت الله الحرام إلى كل مكان في جزيرة العرب، وكانت النفوس في مكة تريد أن تسمع ما يقوله محمد ﷺ؛ تريد أن تسمع القرآن، تريد أن تسمع هذا الذي لا يريد زعماء مكة سماعه، ويصدّون عنه، وينفّرون منه!

وكانت في نفس عتبة بن أبي معيط هذه الرغبة الملحة التي لم يستطع السيطرة عليها، فانتهز غفلة الناس وجلس إلى النبي ﷺ يستمع إليه، وبلغ ذلك أبي بن خلف، وكان صديقاً له، فجاءه غاضباً، وقال له زاجراً ومعاتباً:

- ألم يبلغني أنك جالست محمدًا وسمعت عنه؟ وجهي من وجهك حرام إلا أن تتفل في وجهه<sup>(١)</sup>!

ف فعل عدو الله عتبة بن أبي معيط؛ فنزل القرآن من «سورة

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/٥٤)، و"ابن هشام" (١/٣٨٧).



الفرقان» فيه وفي أمثاله :

﴿وَيَوْمَ يَعْزُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَتَوَلَّى لَيْتِي لِمَ اتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

هذا رجل آخر كُتب عليه الشقاء إلى الأبد؛ بسبب جهله وظلمه، وطاعته لرجل سيكون من أبغض الخلق إليه بعد الموت: ﴿يَتَوَلَّى لَيْتِي لِمَ اتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان: ٢٨-٢٩]، ولكن هيهات؛ فإن وقت الندم قد فات.

بالأمس؛ في الحياة الدنيا: كان عمل ولا حساب، أما اليوم؛ في الدار الآخرة: فإنه حساب ولا عمل، ولا رجعة، فليذق صانع الشر ما عملت يده، فهذا أوان الحصاد!

هذا الرجل الطريد البليد الذي عرض القرآن حالته يوم القيامة وهو يعزُّ على يديه؛ أسفاً وندماً على ما فرط منه، هذا الشقي العنيد رأى النبي ﷺ يصلِّي عند الكعبة، فأقبل يحمل ثوباً، ولَفَّه حول عنقه، وراح يخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي وقال: ﴿أَفَقُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] (١)؟

عقبة بن أبي مُعيط هذا هو أحد المستهزئين السبعة الذين ستأتي نهايتهم عن قريب إن شاء الله.

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (١/٤٧٠، ٤٧١) وقال: انفرد البخاري به، والآية تكررت من أبي بكر في أكثر من موطن.

١٠- المستهزون السبعة:

كان النبي ﷺ يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم؛ فيهم: أبو جهل عمرو بن هشام، وعقبة بن ربيعة، وأخوه: شيبة، والوليد بن عتبة، وعمارة بن الوليد، وأمّية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، كانوا ينظرون إلى النبي ﷺ وهو يصلي، قال أحدهم:

- ألا تنظرون إلى هذا المرائي!

أيكم يقوم إلى جزور آل فلان؛ فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها<sup>(١)</sup> فيجيء به، ثم يمعله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاها، عقبة ابن أبي معيط فقال:

- أنا.

فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه، وثبت النبي ﷺ ساجداً. وراح السفهاء يضحكون حتى مال بعضهم إلى بعض من شدة الضحك، فانطلق منطلقاً إلى فاطمة، وكانت صغيرة، فأقبلت تسعى، وثبت النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، ثم أقبلت عليهم تسبهم، وهم يضحكون.

فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة رفع يديه يدعو عليهم:

- اللهم عليك بقريش! اللهم عليك بقريش! اللهم عليك بقريش!

ثم عين سبعة في دعائه:

(١) السلى: هو الذي يخرج مع ولد الناقة كالمشيمة لولد المرأة. ابن كثير في "السيرة النبوية" (٤٦٨/١)، أو هو ما طرحه المرأة مع الولادة.

اللهمَّ عليك بعمر بن هشام، وعُتْبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة،  
والوليد بن عُتْبة، وأمِّيَّة بن خلف، وعُقبَة بن أبي مُعيط، وعُمارَة بن  
الوليد<sup>(١)</sup>.

فسكت عنهم الضحك، ووجموا كأنما الموت قد نزل عليهم؛  
وهو نازلٌ بهم لا محالة.

الباطل خفيف سخيف أحمق، يتصرّف ولا يدري كيف يتصرّف،  
هذا شأنه في كل زمان، وكل مكان.

ألقوا على كتف النبي ﷺ الأذى وضحكوا، فلمّا دعا عليهم  
خافوا دعوته، وخوفهم هذا يدلُّ بما لا يقبل الشكَّ على علمهم  
بصدقه، وصدق ما جاء به من عند ربّه، وأنّ دعاءه عليهم نازلٌ بهم لا  
محالة، وما قيمة سنين قليلة بالنسبة ليوم واحد عند ربِّك الذي هو:  
﴿كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]!؟

## ١١- سفهاء الطائف:

ضاق صدر النبي ﷺ بالكافرين من أهل مكّة؛ فقد كان كلُّ من  
يريد الإسلام لا يستطيع الوصول إلى النبي ﷺ، لقد وقف أساطين  
الكفر حاجزًا منيعًا دون المنهل العذب، دون دعوة الله، فقرّر النبي  
ﷺ الذهاب إلى الطائف<sup>(٢)</sup>؛ يلتمس من ثقيف النُصرة والمنعة بهم من

(١) أصل الحديث في "البخاري" (١/١٣٨)، و"مختصر صحيح مسلم"  
للمنذري (ص ٣١٣، ٣١٤) رقم الحديث (١١٦٧)، و"السيرة النبويّة" لابن  
كثير (١/٤٦٨) وقال: «رواه أحمد».

(٢) تبعد حوالي ٧٥ كيلو مترًا عن مكّة، إلى الجنوب الشرقي منها.

قومه، ورجا أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله تبارك وتعالى<sup>(١)</sup>.

وأهل الطائف أهل ثراء ورخاء، وكان لبعض أثرياء مكة أملاك وبساتين فيها؛ منهم: الوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وأخوه: شيبه، وكان في الطائف صنم يُعبد ويحجُّ إليه؛ هو اللات<sup>(٢)</sup>!

وكان قد تصدَّر ثقيفًا ثلاثة إخوة، هم: عبد ياليل بن عبد كلال؛ وعبد كلال هو: عمرو بن عمير بن عوف الثقفي، ومسعود، وحبيب، فجلس إليهم رسول الله ﷺ، وكلمهم فيما جاءهم به من نصرته إلى الإسلام، والقيام معه على مَنْ خالفه من قومه، فأجابه أحدهم قائلاً:

- أمرط ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك.

وقال الثاني ساخرًا:

- أما وجد الله أحدًا يرسله غيرك!؟

وقال الثالث:

- والله لا أكلّمك أبدًا؛ لئن كنت رسولاً من عند الله كما تقول لأنت أعظم خطرًا من أن أردّ عليك، وإن كنت كاذبًا ما ينبغي لي أن أكلّمك.

فقام رسول الله ﷺ حزينًا من إعراضهم عن دعوته، وقال لهم وقد كره أن يبلغ قريشًا ذلك فيشتدّ أمرهم عليه:

- اكنموا عليّ.

فقالوا له:

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/١٤٩).

(٢) "السيرة النبوية" للندوي (ص ١٢٣).

- اخرج من بلدنا والحق بما شئت من الأرض.

وأغروا سفهاءهم وعبيدهم وغلمانهم، فراحوا يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس، ووقفوا له صفين على طريقه ورضخوه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء، وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فلمّا دخل الحائط (البستان) رجعوا عنه.

ماذا تنتظر إذا تسلط على الناس مثل هؤلاء السفهاء الذين أبطرتهم النعمة، وأفسدهم الثراء الفاحش، هؤلاء قد رانت على قلوبهم أكداس من الأقدار والمعاصي حالت بينهما وبين وصول النور إليها، فبقيت في ظلام دامس من أعمال الكفر والشهوات والشبهات! وكم يحز في النفس ويؤلمها إذا التمس الإنسان النصرة والعون من رجال، فإذا بهم ينقلبون عليه ويكونون أشدّ عليه من أعدى أعدائه!!

هكذا كانت تقيف بالنسبة للنبي ﷺ، وأكثر!

لجأ النبي ﷺ إلى بستان لعتبة وشيبة اللذين كانا قد سخرا وضحكا كثيراً عندما ألقى الفاسق الفاجر عقبة بن أبي معيط سلى الجزور على كتفه ﷺ، عمد النبي ﷺ إلى ظل حبلّة من عنب - شجرة عنب - فجلس فيه<sup>(١)</sup>، وبعد أن ارتاح قليلاً واطمأنّ راح يدعو الله تعالى:

- اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس!

يا أرحم الراحمين!

أنت ربّ المستضعفين وأنت ربّي!

(١) "السيرة النبوية" لابن دحلان (١/٢٧٠، ٢٧١)، و"ابن هشام" (٢/٦٠) وما بعدها.

إلى من تكلمني؟

إلى بعيدٍ يتجهمني؟ أم إلى عدوِّ ملكته أمري؟

إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي!

ولكن عافيتك أوسع لي!

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر

الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك!

لك العتبي حتى ترضى!

ولا حول ولا قوة إلا بك<sup>(١)</sup>!

اقرأ الدعاء مرّة ثانية، وثالثة، ورابعة، وأدره مع نفسك لنفسك

وتذوق حلاوته وعوديته، وما تضمّن من ألم وأمل، وثناء على الربِّ

حسن، وتجرّد وتبرؤ من الحول والقوة إلا به تبارك وتعالى، وصبر

جميل، وعهد على المضيّ في الدعوة مهما كان: «إن لم يكن بك

عليَّ غضبٌ فلا أبالي».

فلما رآه ابنا ربيعة: عتبة وشيبة، وكانا في البستان، تحرّكت له

رحمهما، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: عدّاس، فقالا له:

- خذ قطفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به

إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه.

ف فعل عدّاس، وكان شاباً نبيلاً مهذباً، فلما وضع الطبق بين يدي

رسول الله ﷺ مدّ يده وقال:

(١) "ابن هشام" (٢/٦١، ٦٢).

- بسم الله الرحمن الرحيم.

ثم أكل.

فنظر إليه عدّاس متعجبًا وقال:

- والله إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة!

فقال له النبي ﷺ:

- من أيّ البلاد أنت؟ وما دينك؟

قال:

- نصرانيّ؛ من نينوى.

فقال له ﷺ:

- من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟

قال عدّاس:

- وما يُدريك ما يونس بن متى؟!

والله لقد خرجتُ من نينوى وما فيها عشرة يعرفون ابن متى؛ فمن

أين عرفته؟!

قال رسول الله ﷺ:

- ذاك أخي، كان نبيًا وأنا نبيّ.

فأكبَّ عدّاس على رسول الله ﷺ يقبّل رأسه ويديه وقدميه<sup>(١)</sup>،

وأسلم، وقال:

(١) ابن دحلان (١/٢٧٢).

- أشهد أنك عبد الله ورسوله<sup>(١)</sup>.

فلما رأى ابنا ربيعة ذلك قال أحدهما لصاحبه:

- أما غلامك فقد أفسده عليك!

فلما جاءهما قالوا له:

- ويلك يا عدّاس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟!

قال:

- يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا؛ لقد أخبرني بأمر

لا يعلمه إلا نبي.

فصاحا به:

- ويحك يا عدّاس! لا يصرفنك عن دينك؛ فإنّ دينك خير من

دينه<sup>(٢)</sup>.

انظر كيف تستجيب النفوس الطيبة إلى الخير بلا عناء؛ محاوره

قصيرة بين عدّاس والنبي ﷺ جعلت عدّاسا يكب على رأس النبي ﷺ

ويديه وقدميه يقبلها، إنها شعلة الإيمان التهبت فوراً، فأضاءت روح

عداس ونفسه وجوانبه، فلم يملك نفسه إلا أن يكب على رأس النبي

ﷺ ويديه وقدميه يقبلها!

أما عتبة وشيبة؛ وهما ابنا ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف،

فقد كانا من أقرباء النبي ﷺ؛ يلتقيان معه في عبد مناف، ولكنهما

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) "ابن هشام" (٢/٦٣).



تظاهرا وكأنهما لا يعرفانه، ولا يعلمان من أمره شيئاً!!

ولعلَّ النبي ﷺ لم يقع نظره عليهما عندما دخل الحائط، ولم يدر بمكانهما.

كان إيمان عداس تعويضاً قليلاً عما لقيه النبي ﷺ من سفهاء الناس في الطائف، ولكنَّ الهدية الكبرى ستأتي، الهدية التي لم ينلها نبيٌّ ولا رسول من قبل..

اصبر قليلاً وستعلم أية هدية كانت!!

## ١٢- ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾

رجع النبي ﷺ من الطائف مهموماً؛ عاد متألماً حزيناً، فلم يستفق إلا بقرن الثعالب<sup>(١)</sup>، فرفع رأسه، فإذا هو بسحابة قد أظلمته، فنظر؛ فإذا فيها جبريل ﷺ، فناداه جبريل فقال:

إن الله ﷻ قد سمع قول قومك لك، وما ردُّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم.

فناداه ملك الجبال، وسلَّم عليه، ثم قال:

- يا محمد، إنَّ الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال؛ وقد بعثني ربُّك إليك لتأمرني بأمرِك، فما شئت؟ إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين<sup>(٢)</sup>؟

(١) قال النووي: «قرن الثعالب هو قرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد على مرحلتين من مكة؛ وأصل القرن كلُّ جبل صغير ينقطع من جبل كبير». "شرح النووي على صحيح مسلم" (١٢/١٥٥).

(٢) الأخشبان: الجبلان.

ماذا تظن أنه سيكون جواب النبي ﷺ؟

صَعَّ نفسك مكانه؛ تذهب إلى قوم تُريد خيرهم وسعادتهم وهدايتهم لينالوا أشرف منزلة، وأعظم مكانة في الدنيا والآخرة، وتكون حريصاً كلَّ الحرص على ذلك كأنهم إخوتك أو أولادك، وتكلّمهم بأحسن كلام وأجمله، ثم يكون ردُّهم عليك أقبح ردًّا، وتصرفهم أسوأ تصرف، ولم يكتفوا بسخريتهم منك واستهزائهم؛ بل أغروا سفهاءهم بمطاردتك وضربك والنيل منك!! وقد واتتك الآن فرصةٌ للانتقام منهم، بكلمة منك يصبحون كأمس الذاهب!! فماذا أنت فاعل؟

إنها فرصتك التي قد لا تتكرّر؟

بماذا تظنُّ أنّ النبي ﷺ قد أجاب المَلَك؟ بماذا أجاب القلبُ الكبيرُ الحليمُ الرحيمُ؟

قال لَمَلِكِ الجبال.. قال له ﷺ:

- بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبدُ الله ولا يشرك به شيئاً<sup>(١)</sup>!!

جَهَلت قَوْمُهُ عَلَيْهِ فَأَغَضَى

وَأَخُو الْحِلْمِ دَأْبُهُ الْإِغْضَاءُ

وَسِعَ الْعَالَمِينَ عِلْمًا وَحِلْمًا

فَهُوَ بَحْرٌ لَمْ تُعْيِهِ الْأَعْبَاءُ

(١) أصل الحديث في "صحيح مسلم" (١٢/١٥٤، ١٥٥)، وابن دحلان (١/٢٧١) والبيتان منه.

وفي طريق العودة هذا آمن به عدد من جنّ نصيبين<sup>(١)</sup>؛ جلس ﷺ من جوف الليل يقرأ القرآن، وأنصت لقراءته الجنّ من سكّان هذه الأرض، وهو يرتّل القرآن بأعذب صوت، وإذا بهم يلبّون النداء، وتنزل البشري إليه<sup>(٢)</sup>:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣١].



(١) شمال شرق سورية، تبعد عن الموصل بحوالي ١٨٠ كيلومتراً إلى الشمال الغربي منها، وعن الحدود العراقية الحالية بحوالي ٧٠ كيلومتراً إلى الغرب.  
(٢) "تذكرة الدعاة" (ص ٢٤٢).



(١٠)

الْحَدِيثُ الْعَظِيمُ

رُتِبْتُ تَسْقُطُ الْأَمَانِي حَسْرَى

دُونَهَا، مَا وَرَاءَهُنَّ وَرَاءُ

(ابن دحلان)

## ١- في جوار رجل كافر:

أجمع الكفار من قريش على عدم السماح للنبي ﷺ بدخول مكة بعد أن خرج منها؛ أرادوا أن يتخلّصوا منه نهائيًا! ولا بدّ أن تكون أخبار المقابلة القبيحة التي قابله بها أهل الطائف قد وصلت إليهم، ربّما عن طريق عتبة وشيبة ابني ربيعة اللذين أوى إلى حائطهما، فأرسلا إليه يقظف العنب!

عندما وصل النبي ﷺ إلى جبل حراء علم بما أجمعت عليه قريش، فأرسل عبد الله بن أريقط الدبلي إلى الأحنس بن شريق ليُجيره، فاعتذر قائلاً:

- إنني حليفٌ، والحليف لا يُجير.

«الأحنس بن شريق من بني زهرة؛ وبنو زهرة حلفاء بني هاشم وبني تميم في حلف الفضول، فلماذا تنصّل الأحنس من الإجارة بقوله: إنني حليف والحليف لا يُجير؟ لعلّ الأصل في الإجارة أن تكون من قبيلة لقبيلة ثانية، أما الحماية فهي التي تتّم من القبيلة لأبنائها؛ كما كانت حماية أبي طالب»<sup>(١)</sup>.

اعتذار الأحنس بن شريق مردودٌ لأنّ النبي ﷺ أعرف بقوانين أهل

(١) "المنهج الحركي للسيرة النبوية" (ص ١٣٨) منير محمّد غضبان، لو كان الأمر كذلك لأرسل إلى عمّه العباس بن عبد المطلب، ولكن يبدو أن الإجارة لأكثر رجل في البيت، قيل: أراد أبو لهب - وهو أكبر من العباس سنًا - أن يحلّ محل أبي طالب، ولكنّه نكص بعد أيام. لعل هذه الرواية بعيدة عن الصحّة لأنّ أبا لهب أضعف من أن يخالف زوجته العوراء التي كانت أشدّ النساء عداوة للنبي ﷺ.

مكة وأعرافهم وعاداتهم، ولو علم أنّ الحليف ليس من حقه أن يُجير  
لما أرسل إليه<sup>(١)</sup>!

ثم أرسل النبي ﷺ لسُهَيْل بن عمرو العامري؛ هو: أبو عبد الله  
ابن سهيل بن عمرو؛ الذي أسلم وهاجر إلى الحبشة، فلمّا عاد أخذه  
أبوه، فعذّبه حتى أظهر له أنه رجع عن دينه، وبقي يكتُم إيمانه<sup>(٢)</sup>،  
فلمّا أرسل إليه النبي ﷺ اعتذر أيضًا، وقال:

- إنّ بني عامر لا تُجير على بني كعب.

فأرسل النبي ﷺ إلى المُطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف،  
قائلًا:

- إنّني داخلُ مكة في جوارك.

فأجابه إلى ذلك، وقال لعبد الله بن أريقط:

- قل له: فليأت.

خرج المُطعم بن عديّ فلبس سلاحه، وأمر بنيه السبعة أن يفعلوا  
كذلك، وجعل أربعة منهم عند أركان البيت؛ كل واحد في ركن،  
واحتمى الثلاثة الآخرون بحمائل سيوفهم، ووقفوا في المطاف، ودخل  
النبي ﷺ فطاف بالبيت، فأقبل أبو سفيان مُسرعًا، وقال لمطعم:

- أمجير أم تابع؟!

قال:

(١) ابن دحلان (١/٢٧٣).

(٢) عبد الله هذا هو أكبر من أخيه أبي جندل، وستأتي قصته، بل قصتهما..



- بل مُجِيرٌ.

قال أبو سفيان:

- إِذْنٌ لَا تُخْفَرُ؛ قَدْ أَجْرْنَا مَنْ أَجْرْتَ.

فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه<sup>(١)</sup>.

وعاد النبي ﷺ إلى بيته، وكانت زوجته سودة بنت زمعة تسري عنه وتؤنسه وتسليه، وكانت ربما جاءت بالكلمة فتضحكه<sup>(٢)</sup> أحياناً! إنهنَّ سفيرات النبي ﷺ إلى النساء المؤمنات<sup>(٣)</sup>، إنهنَّ ما شئتَ خُلُقًا وأدبًا، وعِفَّةً، ونظافة يدٍ وقلبٍ، ونفسٍ ولسان!!

ورجالُ الإسلام في حاجة أكثر من غيرهم إلى الزوجة الصالحة التي تعرف مهمَّة زوجها، فتعينه وتؤيِّده وتسدِّده!!

ثم اشتدَّ أذى قومه له حتى صاروا أشدَّ عليه من السابق<sup>(٤)</sup>.

## ٢- العصا المضيئة:

- يا أبا الطُّفيل!

كنَّوهُ باسمه لأنَّه لم يكن له كنية، كنَّوهُ باسمه تعظيمًا له<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن دحلان (١/٢٧٦).

(٢) "الإصابة" (٤/٣٣٩/تسلسل ٦٠٦).

(٣) الدكتور عبد الكريم زيدان.

(٤) "ابن هشام" (٢/٦٣).

(٥) ابن دحلان (١/٢٧٥)، وانظر القصة في: "ابن هشام" (٢/٢٢، ٢٣)،

و"الاستيعاب" على هامش "الإصابة" (٢/٢٣٢، ٢٣٣)، و"الإصابة" (٢/

٢٢٥/تسلسل ٤٢٤٥).

- يا أبا الطفيل، إنك امرؤ شاعر، سيّد مطاع في قومك، وأنا خشينا أن يلقاك هذا الرجل فيصيبك ببعض حديثه!  
نظر إليهم الطفيل بن عمرو الدوسي الذي قدم لتوّه إلى مكّة، فمشى إليه رجال من قريش وراحوا يحذّرونه؛ كيف يصيبه ببعض حديثه؟!

قالوا:

- فإنما حديثه كالسحر؛ فاحذره أن يُدخل عليك وعلى قومك ما أدخل علينا وعلى قومنا!  
ماذا أدخل عليهم وعلى قومهم؟!

قالوا:

- فإنه يفرّق بين المرء وابنه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وأبيه!

فما زالوا يكلمونه، وينهونه أن يسمع منه حتى قال:

- والله لا أدخل المسجد إلا وأنا سادُّ أذني!

فلما أراد أن يذهب إلى المسجد حشا أذنيه كُرسفًا - قطنًا - لئلا يسمع شيئًا من النبي ﷺ، ومضى فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقامت في نفسه رغبة خفيّة في الاقتراب منه والاستماع إلى بعض قراءته، فسمع منه كلامًا حسنًا، فقال في نفسه:

- واثكل أمي! والله إنني لرجل لبيب شاعر، ما يخفي عليّ الحسن من القبيح؛ فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول! فإن كان

الذي يأتي حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته .

فنزح القطنَ من أذنيه وألقاه، ثم استمع له، فلم يسمع كلاماً قطُّ أحسن منه، فقال في نفسه:

- سبحان الله! ما سمعت كاليوم لفظاً أحسن منه ولا أجمل.

فمكثتُ حتى انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته، فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلتُ عليه، فقلت:

- يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا - للذي قالوا - فوالله ما برحوا يخوِّفونني أمرك حتى سددتُ أذني بكرسُفٍ لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك، فسمعتَه قولاً حسناً، فاعرض عليَّ أمرك!

فعرض عليَّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليَّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قطُّ أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه! فأسلمتُ، وشهدت شهادة الحق، وقلت:

- يا نبيَّ الله، إنني امرؤ مُطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آيةً تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه.

فقال رسول الله ﷺ:

- اللهم اجعل له آية!

عاد أبو عمرو<sup>(١)</sup> الطّفيّل بن عمرو الدّؤسي إلى قبيلته دّوس،  
وصل ليلاً، وقد أشرف عليهم من ثنية - فرجة بين جبلين - فلما  
ارتفع عليها وضع الله بين عينيه نوراً مثل المصباح!! فقال:

- اللهم في غير وجهي؛ فإني أخشى أن يظنّوا أنها مثلة لفراق  
دينهم!

فتحوّل النور إلى رأس سوطه، فانحدر إليهم على بعيده، وإنّ  
السّوط ليضيء كأنّه القنديل المعلّق<sup>(٢)</sup>، وقد أبصره جميع من كان  
حاضراً تلك الليلة!

فلما وصل إلى بيته أسرع إليه أبوه، فقال له:

إيّاك عنّي يا أبت، فلست منك ولست منّي!

فسأله أبوه وكان شيخاً كبيراً:

- ولم يا بنيّ؟!

فقال:

- أسلمت وتابعت دين محمد ﷺ<sup>(٣)</sup>.

قال أبوه:

- أيّ بنيّ، فديني دينك!

(١) للطّفيّل ولد اسمه عمرو لا يكنى به، ولكن صار يدعى: (ذو النور)، وسيأتي  
سبب ذلك بعد قليل.

(٢) أليس هذا هو المصباح اليدوي الكهربائي في عصرنا الحاضر؟! بل هو أفضل!

(٣) هذا يدلّ على أنهم قد سمعوا بالنبي ﷺ وبدعوته.

قال:

- فاذهب فاغتسل، وطهّر ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ما علّمتُ.

فذهب، فاغتسل وطهّر ثيابه، ثم جاء، فعرض عليه الإسلام فأسلم!

ثم جاءت زوجته، فقال لها:

- إليك عنّي؛ فلستُ منك ولستِ مني.

قالت:

- وما ذاك، بأبي أنت وأمي؟

قال:

- أسلمتُ وتابعت دين محمّد، قد فرّق بيني وبينك الإسلام.

قالت:

- فديني دينك!

قال:

- فاعمّدي إلى هذه المياه، فاغتسلي منها وتطهّري، وتعالِي.

ف فعلت ثم جاءت، فأسلمت، وحسُن إسلامها.

ثم راح يدعو قومه إلى الإسلام، فاستجاب أبو هريرة، وراح

الإسلام يسري في قومه بطيئًا؛ على غير ما كان يأمل.

### ٣- شق الصدر، مرّة ثانية:

وقعت حادثة شق الصدر عندما كان النبي ﷺ صغيراً في بني سعد؛ جاءه ملكان، فشق أحدهما بطنه، فأخرج قلبه، فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدم فطحهما، فقال أحدهما لصاحبه:

- اغسل بطنه، واغسل قلبه.

ثم قال أحدهما لصاحبه:

- خُط بطنه.

فخاط بطنه، وجعل الخاتم بين كتفيه<sup>(١)</sup>؛ فمن ذلك اليوم كان خاتم النبوة على نُغْض<sup>(٢)</sup> كتفه الأيسر ﷺ.

«الحكمة في ذلك أنه لما ملئ قلبه حكمةً و يقيناً خُتم عليه كما خُتم على الوعاء المملوء مسكاً أو درّاً، وأما وضعه عند نُغْض كتفه فلأنه معصوم من وسوسة الشيطان، وذلك الموضع منه يُوسوس الشيطان لابن آدم»<sup>(٣)</sup>.

واليوم عندما بلغ النبي ﷺ الخمسين من العمر شق صدره مرّة ثانية، رأى ذلك أولاً في المنام كما حدث في بدء الوحي؛ حيث كان يرى الرؤيا الصادقة في المنام، ثم يراها يقظة عياناً جهاًراً في ذهابه وإيابه، استمرت معه الحال ستّة أشهر، انتهت بنزول الوحي عليه في غار حراء!

(١) "الروض الأنف" (١/١٠٩).

(٢) نُغْض الكتف: غضروف الكتف.

(٣) الكلام للسهيلى في: "الروض الأنف" (١/١١١).

كان نائماً في المسجد الحرام، فجاءه ثلاثة نفر، فشُقَّ صدره إلى أسفل بطنه، فغُسل بماء زمزم، ثم جيء بطست<sup>(١)</sup> من ذهب ممتليء حكمة وإيماناً، فأفرغ في صدره، ثم أُطبق، وعُرج به إلى السماء، ورأى ما رأى من الآيات العجيبة، ثم استيقظ، فلم يحدث بذلك أحداً من كفار قريش في حينها.

هل انتهت قصة المعراج؟<sup>(٢)</sup>

لا..

إنها كانت توطئة، تهيئة، إعداداً للنبي ﷺ لكي لا يُفاجأ بها.

إنها الهدية العظيمة التي أعدها له الباري جلّ وعلا.

#### ٤- ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾

كانت القدس، وبلاد الشام كلها، ومصر تحت سيطرة الدولة الفارسية؛ انتزعتها من الروم بقوة السلاح، وطردتهم منها، ووقفت بجيوشها على أبواب عاصمتهم، القسطنطينية!! ولم تنته السنين البضع التي أشار إليها القرآن الكريم في «سورة الروم» بعد!

(١) في لغة أهل العراق يقال: طشت بالمعجمة. وانظر: "صحيح مسلم" (١/

٢١٧، ٢١٨) بشرح النووي، و"تفسير ابن كثير" (٣/ ٢، ٣) وما بعدهما.

(٢) أغار الرسام الإيطالي دانتي الليجيري على حادثة الإسراء والمعراج؛ فجعل

منها عملاً أدبياً أطلق عليه: «الكوميديا الإلهية» راح المهازيل من أدبائنا

ينظرون إليها بإعجاب ما بعده إعجاب!! وقد فضحه الراهب المستشرق

الإسباني مجيل أسين بلاثيوس في أوائل القرن العشرين، وأثبت بالدليل

القاطع أن الكوميديا الإلهية ما هي إلا ترجمة حرفية لحادثة الإسراء والمعراج

عند المسلمين. "مجلة العربي" العدد ١٤٢ أيلول ١٩٧٠م، (ص ٣٢-٤٠)

للدكتور حسين مؤنس.

كان عادة الطريق - بطريق المسجد الأقصى - ألا ينام حتى يغلق جميع أبواب المسجد، وفي تلك الليلة - ليلة الإسراء - أغلق جميع الأبواب إلا باباً واحداً؛ غلبه فلم يستطع غلقه، فتركه مفتوحاً على مصراعيه، فلما أصبح إذا الحجر الذي في زاوية المسجد مثقوب، وإذا فيه أثر مربوط الدابة، فقال لأصحابه:

- ما حُبس هذا الباب الليلة إلا على نبيي، وقد صلى الليلة في مسجدنا<sup>(١)</sup>!

كان النبي ﷺ في المسجد الحرام، في الحجر<sup>(٢)</sup> عندما جاءه جبريل فشق صدره إلى أسفل بطنه، فاستخرج قلبه، ثم جيء بطست من ذهب مملوءة إيماناً فغسل قلبه ثم حشي، ثم جيء بالبراق، دابة بيضاء جميلة مضيئة ناعمة، فحمل عليها إلى المسجد الأقصى.

وهناك ربطها عند الباب، ثم دخل فصلى في قبلته ركعتين<sup>(٣)</sup>، ثم خرج، فجاءه جبريل ﷺ بإناء من خمر وإناء من لبن، فاختار اللبن؛ فقال جبريل ﷺ:

- اخترت الفطرة.

ومن هناك عُرج به إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل:

- من هذا؟

قال:

(١) "تفسير ابن كثير" (٢٤/٣) وستأتي القصة بتمامها.

(٢) "البخاري" (٦٦/٥).

(٣) "ابن كثير" (٢٢/٣).



- جبريل.

قيل:

- ومن معك؟

قال:

- محمّد.

قيل:

- وقد أرسل إليه؟

قال:

- نعم.

قيل:

- مرحبًا به؛ فنعم المجيء جاء.

ففتح.

عندما استفتح جبريل عليه السلام فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، ولم يقل: أنا؛ وهذا من أدب الجواب عند الاستئذان، ولما أخبرهم أنّ محمّدًا معه قيل: وقد أرسل إليه؟ أي: أرسل إليه للصعود إلى السماوات؟ فقال: نعم.

في هذه السماء رأى آدم عليه السلام، فقال له جبريل:

- هذا أبوك آدم، فسلم عليه.

فسلم عليه، فردّ السلام، ثم قال:

- مرحبًا بالابن الصالح، والنبّي الصالح.

وفي السماء الثانية رأى يحيى وعيسى، وعرفه بهما، وسلم عليهما

فردًا، وقالوا:

- مرحبًا بالأخ الصالح، والنبّي الصالح.

وفي السماء الثالثة رأى يوسف؛ فسلم عليه، وأجاب نفس

الجواب.

وفي السماء الرابعة رأى إدريس؛ فسلم عليه، وأجاب نفس الجواب.

وفي السماء الخامسة رأى هارون؛ فسلم عليه، وأجاب نفس

الجواب.

وفي السماء السادسة رأى موسى؛ فسلم عليه، وأجاب نفس

الجواب.

فلما جاوزه بكى موسى، قيل له:

- ما يبكيك؟

قال:

- أبكي لأنّ غلامًا بعث بعدي؛ يدخل الجنة من أمته أكثر ممن

يدخلها من أمّتي!

وفي السماء السابعة رأى إبراهيم، قال جبريل:

- هذا أبوك فسلم عليه.

فسلّم عليه، فردّ السّلام، وقال:

- مرحبًا بالابن الصالح، والنبي الصالح<sup>(١)</sup>.

ثم جاوز ﷺ حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام؛ أي: أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سِدْرَةَ المنتهى، وغشيتها من أمر الله عظمة عظيمة، من فراش من ذهب وألوان متعدّدة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته، وله ستمئة جناح<sup>(٢)</sup>، ورأى رفرقًا أخضر قد سدّ الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسندًا ظهره إليه لأنّه الكعبة السماوية؛ يدخله كلّ يوم سبعون ألفًا من الملائكة يتعبّدون فيه، ثم لا يعودون إلى يوم القيامة<sup>(٣)</sup>.

ثم جيء بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل؛ فأخذ اللبن، فقال:

- هي الفطرة التي أنت عليها وأمّتك<sup>(٤)</sup>.

ورأى الجنة والنار<sup>(٥)</sup>، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خفّضها إلى خمس؛ رحمةً منه ولطفًا بعباده.

(١) "البخاري" (٦٧/٥، ٦٨). لاحظ أنّه بدأ بآدم الذي قال: «مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح».

وانتهى بإبراهيم الذي قال نفس العبارة.

(٢) "تفسير ابن كثير" (٢٢/٣)، وهذه المرة الثانية التي رأى فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها.

(٣) "تفسير ابن كثير" (٢٣/١).

(٤) "البخاري" (٦٨/٥).

(٥) "تفسير ابن كثير" (٢٣/٣).

ثم هبط إلى بيت المقدس، وهبط معه الأنبياء، فصلّى بهم لما حانت الصلاة، ثم خرج من بيت المقدس، فركب البراق وعاد إلى مكة بغلّس<sup>(١)</sup>.

لعلّ في شقّ صدره ﷺ عملية ربّانية عظيمة لإعداده ﷺ للصعود إلى السماوات العلى، ولكي يتحمّل جسمه شتى الأجواء التي سيمرّ بها وعليها<sup>(٢)</sup>.

من بين العبادات كلّها فرضت الصلاة مباشرة من أعلى مكان، ومن قبل الباري جل وعلا؛ فهي أقوى العبادات وأعظمها، فمن حافظ عليها وأداها بصورة صحيحة وخالصة نال منزلة عالية عند الله تبارك وتعالى.

ولا بد لقبول العبادات من شرطين أساسيين: أن تكون موافقةً لشريعته وخالصةً لوجهه تبارك وتعالى، وبدونهما تكون العبادة إمّا ناقصة أو مشوبة، أو مردودة مضروبة في وجه صاحبها!

## ٥- ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾:

صعد النبي ﷺ إلى السماء، وتجاوز مراتب الأنبياء جميعًا، صعد إلى مكان لم يبلغه بشر قبله ولا يبلغه بعده! ورأى من آيات ربّه ما لو رآها بعضنا لطاش عقله وذهبت نفسه!! ولكنه ﷺ كان هادئًا ثابتًا،

(١) عرض ابن كثير لعدة روايات عن الإسراء والمعراج ثم لخصها على الصفتين (٢٢، ٢٣) من تفسيره.

(٢) انظر: "شعاع من السيرة النبوية في العهد المكي" للدكتور راجح عبد الحميد الكردي (ص ١٨٢)؛ له نفس الرأي.

متمالكًا لنفسه وعقله وأعصابه، وكان في غاية الأدب، لا يتجاوز ببصره ما أبيع له النظرُ إليه، ولا يتلفت يمينًا وشمالًا، لا يسأل ولا يتعجّل، وعندما غادر الملاً الأعلى نزل الأنبياء قبله لاستقباله والترحيب به، فلمّا حانت الصّلاة - ولعلّها صلاة الصبح - قدّمه جبريل على الأنبياء، فأثمّمهم وصلّى بهم؛ وهذا دليل على أنه ﷺ إمامهم جميعًا!

عاد النبي ﷺ من رحلته السماوية العظيمة، وقد ازداد ثباتًا وإيمانًا ويقينًا، وعزماً على المضي في دعوته، غير هيّابٍ، ولا وِجِلٍ، ولا متردّدٍ لأنّه رأى رأيَ العين عظمة القوّة التي تسنده، وتمهّد سبيله، وترسم خطّوه؛ ما هذه الأرض، وما فيها، ومن عليها بالنسبة لما رآه ومرّ به في ليلته المباركة هذه؟! ما قيمة هذه الذرّة الصغيرة الصغيرة السابحة في هذا الكون الفسيح الهائل الذي لا يحيط به خيال الإنسان؟! ما قيمة هذه الأرض بالنسبة لما رآه من العظمة والكبرياء، والجبروت والملكوت؟! ما قيمة النّاس، كلّ النّاس؟!!

هل سيحدّثهم بما رأى؟! ماذا سيقول لهم؟!!

٦- إن قال ذلك فلقد صدق:

ذهب النبي ﷺ ذلك الصباح إلى المسجد الحرام فجلس فيه، وكان في غاية الثبات والسكينة والوقار، فجاء أبو جهل فقال له:

- هل من خبر؟

قال:

- نعم.

قال:

- وما هو؟

فقال رسول الله ﷺ:

- إنِّي أُسْرِي بِي اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدَسِ.

قال مستغرباً:

- إلى بيت المقدس؟!؟

قال:

- نعم.

قال أبو جهل:

- أرايت إن دعوت قومك لك لتخبرهم؛ أتخبرهم بما أخبرتني به؟

قال:

- نعم<sup>(١)</sup>.

لقد ظنَّ هذا الأحمق أنَّ النبي ﷺ سيتردَّد في إخبار قومه بما أخبره به، فأراد أن يجمع قريشاً ليسمعوا منه ذلك لكي يكذبوه!! فدعاهم من أنديةهم، فأقبلوا، فقال للنبي ﷺ:

- أخبر قومك بما أخبرتني به.

فقصَّ عليهم رسول الله ﷺ خبر ما رأى، وأنه جاء بيت المقدس هذه الليلة وصلَّى فيه.

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/١٠٢، ١٠٣).

فضجَّ القوم بين مصفِّقٍ ومُصَفَّرٍ؛ استهزاءً، وتكذيباً، واستبعاداً لخبره! وطار الخبر بمكَّة، وجاء النَّاسُ إلى أبي بكر فأخبروه أن محمَّداً يقول كذا وكذا، فقال:

- إنَّكم تكذبون عليه!

فقالوا:

- والله إنَّه ليقوله.

فقال أبو بكر:

- إن كان قاله فلقد صدَّق<sup>(١)</sup>.

هكذا يكون الإيمان!

قبل أن يرى النبي ﷺ أو يسمعَ منه، قال: إن كان قاله فلقد صدَّق.

إنَّه يعلم من حال النبي ﷺ أنه لا يكذب أبداً، إنَّه لم يكن ليكذب على النَّاسِ، فكيف يكذب على الله؟! هذا لا يكون أبداً.

وأسرع أبو بكر إلى المسجد، فسمع المطعم بن عديّ يقول له:

- إنَّ أمرَك قبَل الرُّومِ<sup>(٢)</sup> كان يسيراً، غير قولك اليوم، هو

يشهد<sup>(٣)</sup> إنَّك كاذب؛ نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس؛

(١) نفس المصدر السابق (ص ١٠٣).

(٢) عندما أخبرهم بأن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين.

(٣) انظر إلى أدب كتَّاب السيرة، لا يريد أن يأتي بصيغة المتكلم: أنا؛ لكي لا يشترك مع القائل في الكلام لذلك يأتي بصيغة الشخص الثالث: هو.

مُضْعِدًا شَهْرًا وَمُنْحَدِرًا شَهْرًا، تَزْعَمُ أَنَّكَ أَتَيْتَهُ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ؟  
واللات والعزى لا أصدّقك، وما كان هذا الذي تقول!  
فقال أبو بكر:

- يا مطعم، بئسما قلت لابن أخيك؛ جبهته بالمكروه وكذّبه، أنا  
أشهد أنه صادق.

فقال المطعم:

- صف لنا بيت المقدس.

فقال أبو بكر وقد أراد أن يُسمع المشركين، ويعلموا صدقته:

- صف يا رسول الله؛ فإنّي قد جئتُه<sup>(١)</sup>.

فجعل النبي ﷺ يخبرهم عن آياته، فالتبس عليه بعض الشيء،  
فجلى الله له بيت المقدس<sup>(٢)</sup>، ورفع له ينظر إليه، ما يسألوه عن شيء  
إلا أنبأهم به<sup>(٣)</sup>، وأبو بكر يؤيده في ذلك كلّ، ويقول:

- أشهد أنّك رسول الله<sup>(٤)</sup>!

فقالوا:

- أمّا الصفة فقد أصاب<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن دحلان (١/٢٧٩).

(٢) "ابن كثير" (٢/١٠٣).

(٣) "مختصر صحيح مسلم" (ص ٢٨) حديث رقم (٨٠).

(٤) ابن دحلان (١/٢٧٩)، وانظر: "ابن هشام" (٢/٤٠).

(٥) ابن كثير (٢/١٠٣)، وانظر: "تفسير ابن كثير" (٣/١٥) فقال القوم: =



هذا كان موقفهم وقد أخبرهم بالإسراء، فكيف إذا أخبرهم

بالمعراج!؟

٧- ﴿أَفْتُمِرُونَ، عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾

نزلت «سورة الإسراء» وقد تصدرتها آية تؤيد رسول الله ﷺ فيما قصه على قومه من إسرائه يقظة لا منامًا، بروحه وجسده، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

ونزلت «سورة النجم» تتحدث عن المعراج، وعن الوحي، وعن سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وعن الْجَنَّةِ، وعن آيات ربِّه الكبرى:

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَدَلَّكَ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفْتُمِرُونَ، عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١-١٨].

قرأ النبي ﷺ هذه السورة كلها على كفار قريش، على جمع

= أما النعت فوالله لقد أصاب فيه»، وفي هذا اليوم أيضًا جاءه جبريل ﷺ وصلى بالنبي عليه الصلاة والسلام إمامًا لتعليمه أوقات الصلوات الخمس؛ كما جاء ذلك في "الصحيحين" وغيرهما.

حاشد من الناس، معهم عدد من المسلمين، قرأ النبي ﷺ هذه السورة التي تتحدث في بدايتها عن شخصه ﷺ، ورحلته العظيمة إلى عالم السماوات؛ حيث شهد في تلك الليلة ما لم يشهده إنسان قبله ولا بعده! وحيث أقامه الله تعالى مقاماً من القرب منه سبق به الأولين والآخرين، وأراه من المشاهد ما يتعذر عليه أن يقدر على وصفها كما وصفها القرآن بأبلغ الإيجاز والإعجاز!!

رأى جبريل ﷺ على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمئة جناح وقد سدّ الأفق؛ لعله أكبر من الأرض كلها!  
رأى الجنة..

رأى النار..

رأى سِدْرَةَ الْمُنْتَهَى..

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾﴾

[النجم: ١٧-١٨].

وراح النبي ﷺ يقرأ وقد سيطر على نفوس الحاضرين وقلوبهم وعقولهم، فتحولوا إلى آذان صاغية:

﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَرَفَتِ الْأَرْفَةَ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِعْتُمْ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَعَبُدُوا ﴿٦٢﴾﴾ [النجم: ٥٦-٦٢].

وسجد النبي ﷺ، وسجد المسلمون معه، وسجد الكفار مبهورين

بما سمعوا!!

حياة للقلوب والأرواح؛ تنمو به وتقوى، وتسمع وتبصر<sup>(١)</sup>.  
والقرآن نور أيضًا.

قال تعالى في «سورة الشورى»: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

لأن القرآن من عند الله تبارك وتعالى، لأنه روح، ولأنه نور فلا يستطيع الجنُّ بما لديهم من طاقة خارقة، ولا الإنس بما لديهم من علم أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا.

﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨].

وهذا التحدي قائم إلى هذه الساعة، وإلى أن تقوم الساعة!

انضمَّ إلى سفينة النجاة: جُنْدُب بن ضَمْرَةَ الليثي .

#### ٨- بشائر النصر:

تضمَّنت «سورة الإسراء» شيئًا جديدًا لم تتضمنه السور السابقة؛ إنها تضمَّنت مبادئ أساسية لا يمكن تطبيقها إلا إذا ساد الإسلام وانتصر! فهي إذن إشارة واضحة؛ بل صريحة إلى أن الإسلام في طريقه إلى الامتداد، والانتشار والسيطرة، والنصر بإذن الله، وأن مبادئه ستطبق وتنفَّذ، وهذا ما لا يمكن حدوثه في المجتمع المكي

(١) انظر البحث القيم للأستاذ البهي الخولي في كتابه "تذكرة الدعاة" (ص ٢٥١)، وكتاب الدكتور فاضل صالح السامرائي "التعبير القرآني" (ص ٢٣).

الذي تترجّع على عرشه السلطة الكافرة!!

في «سورة الفرقان» التي بينها وبين «سورة الإسراء» سبع سور في تسلسل التنزيل، يذكر تبارك وتعالى الصفات التي يجب أن يتّصف بها عباده؛ عباد الرحمن:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسَقَّرًا وَمُقَامًا ٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ٦٧ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٦٨﴾ [الفرقان: ٦٣-٦٨].

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ٧٢﴾

[الفرقان: ٧٢].

وفي «سورة التكوير»؛ السادسة، أو السابعة في تسلسل النزول أشار إلى الموءودة دون أن يبيّن حكم الوائد أو الوائدة:

﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ٨﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُنِيتَ ٩﴾ [التكوير: ٨، ٩]؟!

أما في «سورة الإسراء» فقد جاءت على صورة أوامر وزواجر قوية صارخة.

إن في ارتفاعه ﷺ إلى السماوات العلى للدليلاً واضحاً على أنه سيرتفع على أهل الأرض كلهم إلى أبد الدهر.

وإليك ما جاء في «سورة الإسراء»:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ  
الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا  
قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ  
أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا  
صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ  
وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبْدِرْ تَبْدِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ  
الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ أِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ  
لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ  
الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنْ رَبُّكَ يَبْسُطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ  
كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ  
وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ  
فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ  
قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ  
مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ  
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتَمَ وَزِنُوا  
بِالْقِسْطِ السِّتْقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ  
عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ  
فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ  
ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ  
الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

ثم نزلت «سورة يوسف» بعد ذلك؛ إيداناً بأنه سيُخْرِجُ من مكَّة كما أخرج إخوة يوسف يوسف من بلدهم، ولكن سيُمكن له وسينتصر كما انتصر يوسف ﷺ وأكثر وأكثر، ومن هذا اليوم بدأ النبي ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب يطلب النصرة، ويحاول الهجرة إلى بلد لا يُضام فيه الإسلام والمسلمون!

إنَّ بلد المسلم في الحقيقة هو البلد الذي يستطيع فيه أن يقيم دين الله، وليس البلد الذي تُمتَّهن فيه عقيدته ويُعامل فيه كأنه عبد أو أسير! لا، ليس بلدي الذي يكتُم أنفاسي، ويُثبِّلُ حركتي، ويضعُ القيد في يدي ورجلي، والعصابة على عيني، والقطن في أذني؛ لكي لا أسمع ولا أبصر ولا أتكلَّم ولا أتحرِّك، ولا أصرخ متألِّماً أو محتجاً!!  
إنَّه ليس بلدي!

فمثل هذا البلد لا يستحقُّ أن أُقيم فيه وهو في هذه الحال وأنا عاجز عجزاً تاماً عن التغيير، وإنما يلزمني الخروج منه إلى مكان يمكنني الإسهام في إقامة دين الله فيه حتى يأذن الله فأعود إليه وأنا قادر على تغيير المنكر الذي كان فيه.

#### ١٠- أكله الكلب:

لأبي لهب ثلاثة أبناء؛ عتبة، وعتيبة، ومُعتب، أمَّا عتبة ومُعتب فإنهما كبقية المشركين من أهل مكَّة، وأمَّا عتيبة<sup>(١)</sup> فإنَّه كأبيه في السَّفه

(١) ورد في "تفسير ابن كثير" (٢٥١/٤)، و"ظلال القرآن" (٧٦/٢٧)، و"الإصابة" (٥٩٨/٣) أنه عتبة وليس عتيبة. والصحيح أنه عتيبة كما جاء في ابن دحلان (٢٠٥/١)، أما عتبة ومعتب فلهما قصة ستأتي إن شاء الله.

والعناد واللجاج والأذى لرسول الله ﷺ، وقد خرج أبو لهب في تجارة إلى الشام، وأخذ معه شرَّ أبنائه: عتيبة، وقبل أن تتحرك القافلة قال عتيبة لأبيه:

- لآتينَّ محمَّدًا فلاؤذيتَه في ربِّه.

ثم قال يخاطب أهل مكَّة:

\* إنِّي كافر بالذي دنا فتدلِّي.

لم يقف السفية البليه<sup>(١)</sup> عند هذا الحدِّ، بل ذهب إلى النبي ﷺ وقال له:

- (هو) كافر برَّبِّ النجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلِّي<sup>(٢)</sup>.

ثم عاد السفية وكأنَّه قد أدى واجبًا كان عليه أن يؤدِّيَه!! فقال النبي ﷺ:

- اللهم سلِّط عليه كلبًا من كلابك.

فلمَّا عاد إلى أبيه سأله:

- يا بُنيَّ ما قلتَ له؟

فأخبره، قال:

- فما قال لك؟

قال:

(١) من البليه.

(٢) "في ظلال القرآن" و"الإصابة" (٥٩٨/٣) ترجمة هبَّار بن الأسود، وكان مع القافلة.

- قال: اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك.

قال أبو لهب وقد تبدل لونه:

- يا بُنَيَّ، والله ما آمن عليك دعاءه!

ومضت القافلة وقد امتلأ قلب أبي لهب خوفًا على ولده، حتى

نزلوا إلى صومعة راهب، فأطلَّ الراهب عليهم من صومعته، فقال:

- يا معشر العرب، ما أنزلكم هذه البلاد؛ فإنها يسرح فيها الأسدُ

كما تسرح الغنم؟!!

كان القوم قد أنهكهم التعب، فلم يعد بإمكانهم مواصلة السفر،

فقرَّروا أن يناموا الليلة، ثم يرحلوا مع الفجر، وكان أبو لهب، وقد

بلغ السبعين من العمر، وقد بلغ من التعب كلَّ مبلغ، فقال لمن معه:

- إنَّكم قد عرفتم كبر سنِّي وحقِّي، إنَّ هذا الرجل قد دعا على

ابني دعوة، والله ما آمنها عليه!

قال وهو يتنفس بصعوبة:

- فاجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابني عليها، ثم

افرشوا لكم حوله!

فلما ذهب بعض الليل استيقظ هبَّار بن الأسود، شَعَر بشيء قريب

منه، ففتح عينيه، ماذا رأى؟

رأى أسدًا يَشُمُّ النيامَ واحدًا واحدًا، لم يتعرَّض لشيء من الجمال

أو المتاع والرجال، إنَّه يبحث عن صيد معيَّن، فما هذا الصيد؟



كان القوم قد جمعوا متاعهم فجعلوا منه كومة، ثم فرشوا لُعْتِيبة فوق المتاع، وأحاطوا به، وأحاطت الجمال بهم، ولكنَّ الأسد لم يتعرَّض لأحد منهم، ولا لجمل من جمالهم، بل وثب وثبةً فصار فوق عُتِيبة؛ فصرخ صرخة هائلة استيقظ لها الجميع مذعورين، وانهمزم الأسد.. وبقي أبو لهب في مكانه لا يستطيع أن يتكلَّم أو يتحرَّك، وقال عُتِيبة وهو يلفظ نفسه الأخير:

- ألم أقل لكم: إِنَّ مُحَمَّدًا أَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً؟! (١)

### ١١- أرضى بجوار الله ﷻ:

رأى المشركون من أهل مكَّة انتصار الروم في بضع سنين من المستحيلات؛ كيف وقد سيطر الفرس على مصر والشام وبلاد الأناضول، واندحرت جيوش الروم مذعورة، ولجأت إلى عاصمتها القسطنطينية؟! أما قضية الإسراء والمعراج فأمرٌ فوق ما يستطيع أن يتصوَّره العقل الجاهلي المحدودُ بالأرض والتراب! لذلك اشتدَّ ضغط المشركين على المسلمين، ونالوا منهم باليد واللسان، فاستأذن أبو بكر النبي ﷺ في الهجرة، فأذن له، فخرج أبو بكر مهاجرًا نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ بَرَكَ العِمَاد (٢) لقيه ابن الدُّعْنَةَ؛ وهو سيِّد القارَة؛ والقارَة قبيلة (٣)، وهم: عَضَل، والديش؛ ابنا الهون بن خزيمة، وكانوا قومًا رُماة، وفيهم يقول الشاعر:

(١) ابن دحلان (٢٠٥/١) والحديث والحادثة عن هبَّار بن الأسود الذي كان مع القافلة، وله قصة ستأتي إن شاء الله.  
 (٢) على بعد خمس ليالٍ من مكَّة باتجاه اليمن.  
 (٣) "ابن هشام" (٢٧٢/١، ٢٧٣).

نَرُدُّهَا دَامِيَةً كُلاهَا

قَدْ أَنْصَفَ الْقَارَةَ مَنْ رَامَاهَا

وابن الدُّعْنَةَ سَيِّدَ الْأَحَابِيشِ أَيضًا؛ وهم: بنو الحارث بن عبد مناة ابن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو الْمُصْطَلِقِ بن خُزَاعَةَ، وقد سَمُّوا الْأَحَابِيشِ لأنهم تحالفوا بواد يُقال له: الْأَحْبِشِ بِأَسْفَلِ مَكَّةَ<sup>(١)</sup>.

عندما لقي ابن الدُّعْنَةَ أبا بكر سأله:

- أين تُريد يا أبا بكر؟

فقال أبو بكر:

- أخرجني قومي؛ فأريد أن أسيح في الأرض، وأعبد ربِّي!

فقال ابن الدُّعْنَةَ:

- فَإِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ؛ إِنَّكَ تُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ

الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ<sup>(٢)</sup>.

فأنا لك جار؛ ارجع واعبد ربَّك ببلدك.

رجع أبو بكر إلى مَكَّةَ ومعه ابن الدُّعْنَةَ، فلمَّا وصلا طاف ابن

الدُّعْنَةَ فِي أَشْرَافِ قَرِيْشٍ، وَقَالَ لَهُمْ:

(١) نفس المصدر (١١/٢)، والقصة في "البخاري" (٧٣/٥، ٧٤)، و"ابن

هشام" (١١/٢، ١٢)، وابن دحلان (٢٤٦/١، ٢٤٧).

(٢) انظر كيف وصف ابن الدُّعْنَةَ أبا بكر الصديق بنفس الصفات التي وصفت بها

خديجة رضي الله عنها، رسول الله صلى الله عليه وسلم في بدء الوحي!

- إنَّ أبا بكر لا يخرُجُ مثله ولا يُخرج؛ أُتخرجون رجلاً يُكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكَلَّ، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق؟! نواب الحق؟!

فقالوا:

- مُرَّ أبا بكر فليعبُد ربَّه في داره؛ فليصلَّ فيها، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن به؛ فإنَّا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فأخبر بذلك ابن الدُّعْنَةَ أبا بكر.

لبث أبو بكر يعبد ربَّه في داره، ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم بدا له، فابتنى مسجداً بفناء داره؛ فكان يصلِّي فيه، ويقرأ القرآن، فيَنقَذُف<sup>(١)</sup> عليه نساء المشركين وأبناؤهم، وهم يعجبون منه وينظرون إليه! وكان أبو بكر رجلاً بگَاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن! وأفزَع ذلك أشرافَ قريش من المشركين، فأرسلوا إلى ابن الدُّعْنَةَ، فقدم عليهم، فقالوا:

- إنَّا كنَّا أجزنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربَّه في داره؛ فقد جاوز ذلك؛ فابتنى مسجداً بفناء داره، فأعلن الصَّلَاة والقراءة فيه، وإنَّا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فانهه؛ فإن أحبَّ أن يقتصر على أن يعبد ربَّه في داره فعل، وإن أبي إلا أن يعلن بذلك فسله أن يرُدَّ إليك ذمَّتكَ، فإنَّا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرِّين لأبي بكر الاستعلان.

ذهب ابن الدُّعْنَةَ إلى أبي بكر فقال:

(١) في رواية: فيتنقذف.

- قد علمت الذي عاقدتُ لك عليه؛ فإمّا أن تقتصر على ذلك،  
وإمّا أن ترجع إليّ ذمّتي؛ فإنّي لا أحبُّ أن تسمع العرب أنني أخفرتُ  
في رجل عقدتُ له.

فقال أبو بكر:

- فإنّي أردُ إليك جوارك، وأرضى بجوار الله ﷻ<sup>(١)</sup>!

انظر إلى تأثير القرآن في النفوس؛ النساء والأبناء يزدحمون على  
أبي بكر عندما يقرأ القرآن، ورجال قريش ينهون النساء والأبناء فلا  
ينتهون، فيأمرون أبا بكر بأن يقرأ داخل داره لا بفنائها لأنهم يخشون  
تأثيره العجيب!

١٢- قولوا: (لا إله إلا الله) تفلحوا:

كان ربيعة بن عباد الدبلي صغيراً؛ في السابعة أو الثامنة من  
عمره، وكان أبوه في سوق ذي المَجَاز، فرأى رسولَ الله ﷺ، وهو  
يقول:

- يا أيها النَّاس، قولوا: (لا إله إلا الله) تفلحوا!

والنَّاس مجتمعون عليه، ورجل وراءه؛ وَضِيءُ الوجه، أحول، ذو  
غَدِيرَتَيْن، يقول:

- إنَّه صابئ كاذب<sup>(٢)</sup>.

(١) "البخاري" (٧٣/٥، ٧٤، ٧٥).

(٢) "السيرة النبوية" لابن كثير (١٥٦/٢)، والحديث رواه الإمام أحمد،  
و"الإصابة" (١/٥٠٩/١) تسلسل (٢٦١٠).

فسأل أباه عنه فقال:

- هذا عمُّه أبو لهب.

وكان أبو لهب يتبعه أينما ذهب، ويقول:

- أيها النَّاس، لا يغرِّبكم هذا عن دينكم ودين آبائكم<sup>(١)</sup>.

كان النبي ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في

كل موسم، ويكلِّم كلَّ شريف قوم، ويقول:

- لا أكره أحدًا منكم على شيء؛ من رضي منكم بالذي أدعوه

إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنَّما أريد أن تُحرزوني فيما يُراد لي

من القتل؛ حتى أبلغ رسالة ربِّي، وحتى يقضي الله لي ولمن صحبني

بما شاء<sup>(٢)</sup>.



(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر (ص ١٥٨) عن موسى بن عقبة، عن الزهري.



(١١)

لقاءٌ غيرٌ مجرى التاريخ

﴿قُلْ تَمَالَوْا أَنْتُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ  
شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ  
نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهُمْ وَإِنَّا هُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ  
وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ  
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١]



## ١- وفد من العراق:

كان أبي بن خلف؛ أخو أمية بن خلف أحد المستهزئين السبعة،  
إذا رأى النبي ﷺ بمكة يقول له:

- إن عندي فرساً، أعلفها كل يوم فرق<sup>(١)</sup> ذرة، لعلّي أقتلك  
عليها، فيردّ عليه النبي ﷺ:

- بل أنا أقتلك عليها إن شاء الله<sup>(٢)</sup>.

راح النبي ﷺ يعرض نفسه على قبائل العرب عندما تفد إلى مكة  
في موسم الحج، كان يقول:

- من رجلٌ يحملني إلى قومه، فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربّي؛  
فإنّ قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربّي!

لقي النبي ﷺ جماعة من بني شيبان، وكانوا في مجلس عليه  
السكينة والوقار، فتقدّم أبو بكر، فسلم<sup>(٣)</sup>، ثم قال:

- ممّن القوم؟

قالوا:

- من شيبان بن ثعلبة.

فالتفت أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال:

(١) مكيال معين.

(٢) "الطبقات الكبرى" (٨٧/٣)، و"ابن هشام" (٨٨/٣) وفيه: «بل أقتلك إن شاء الله».

(٣) معهما علي بن أبي طالب. قال علي: وكان أبو بكر مقدماً في كل خير. انظر السهيلي في "الروض الأنف" (٢٦٤/١).

- بأبي أنت وأمي، هؤلاء عُرِّزَ في قومهم.

ثم سألهم أبو بكر:

- كيف العدد فيكم؟

قال مفروق؛ وكان أدنى القوم إلى أبي بكر، وكان قد غلبهم جمالاً ولساناً، له غدירתان - ضفירתان - تسقطان على تريبته، قال مفروق بن عمرو:

- إنا لنزيد على الألف، ولن تُغلب ألف من قلّة.

سأله أبو بكر:

- كيف المنعة فيكم؟

قال:

- علينا الجهد، ولكل قوم جدٌّ<sup>(١)</sup>.

قال أبو بكر:

- كيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟

قال مفروق:

- إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وإنا لأشد ما نكون لقاءً حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله؛ يُدِلُّنا مرّة، ويُدِيلُ علينا مرّة.

لعلك أخو قريش؟

(١) أي: حظ ونصيب.

قال أبو بكر:

- أوقد بلغكم أنه رسول الله؟

فها هو ذا.

قال مفروق:

- قد بلغنا أنه يذكر ذلك، فإلام تدعو يا أبا قريش؟

فتقدم رسول الله ﷺ، فقال:

- أَدْعُو إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحَدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنِّي رَسُولُ

اللَّهِ، وَإِلَى أَنْ تُؤُونِي، وَتَنْصُرُونِي؛ فَإِنَّ قَرِيشًا قَدْ تَظَاهَرَتْ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ،

وَكَذَّبَتْ رَسُولَهُ، وَاسْتَغْنَتْ بِالْبَاطِلِ عَنِ الْحَقِّ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

قال مفروق:

- وإلام تدعو أيضًا يا أبا قريش؟

فتلا رسول الله ﷺ من «سورة الأنعام»:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ

وَأَيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا

النَفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمُ الَّذِي كَفَرْتُمْ عَنْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

[الأنعام: ١٥١].

قال مفروق:

- ما هذا من كلام أهل الأرض!

ثم قال:

- وإلام تدعو أيضًا يا أبا قريش؟

فتلا رسول الله ﷺ من «سورة النحل»:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ  
الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

فقال مفروق:

- دعوتَ والله إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال! والله لقد

أفك قومٌ كذَّبوك وظاهروا عليك!

وكان المجلس يضمُّ أربعةً من سادات بني شيبان؛ هم: مفروق

ابن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن

شريك، وقد أراد مفروق أن يشرك هانئ بن قبيصة في الكلام، فقال:

- وهذا هانئ بن قبيصة؛ شيخنا، وصاحب ديننا.

فقال هانئ:

- قد سمعنا مقالتك يا أبا قريش، وإني أرى أننا إن تركنا ديننا

وأتبعناك على دينك بمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر = لزلَّة في

الرأي، وقلَّة نظر في العواقب، وإنما تكون الزلَّة مع العجلة، وإنما

وراءنا قومٌ نكره أن نعقد عليهم عقدًا، ولكن نرجع وترجع، وننظر وتنظر.

وكأنه أحبُّ أن يُشرك في الكلام المثنى بن حارثة، فقال:

- وهذا المثنى بن حارثة؛ شيخنا، وصاحب حربنا.

فقال المثنى:

- قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانىء بن قبيصة، في تركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر، وإننا نزلنا بين صريان: الإمامة والسماوة.

فقال رسول الله ﷺ:

\* ما هذا الصريان؟

قال:

- أنهار كسرى ومياه العرب؛ فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، وأما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى: ألا نحدث حدثاً ولا نُؤوي محدثاً، وإنِّي لأرى أن هذا الأمر الذي تدعوننا إليه هو مما تكرهه الملوك؛ فإن أحببت أن نُؤويك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا.

فقال رسول الله ﷺ:

- ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق؛ فإن دين الله لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه.

ثم زف إليهم رسول الله ﷺ بشارة عظيمة، هي آية من آيات نبوته ﷺ، فقال:

- أرايتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم ويُفرشكم نساءهم؛ أنسبّحون الله وتقدّسونه؟

فقال النعمان بن شريك:

- اللهم لك ذا!

ثم نهض النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

## ٢- لقاء غير مجرى التاريخ:

لم يترك قبيلة من قبائل العرب ممن حضر إلى الحج إلا ودعاها إلى الله تعالى:

- يا أيها الناس، قولوا: (لا إله إلا الله) تفلحوا، وتملكوا بها العرب، وتذلل لكم العجم، وإذا آمتتم كتمم ملوكًا في الجنة<sup>(٢)</sup>.

فتجيبه القبيلة بالاعتذار، وبالردّ الهين، وبالردّ القبيح!!

ويقولون:

- أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يتبعوك<sup>(٣)</sup>!

والنبي ﷺ ماض في دعوته، يعرض نفسه على الناس بالموقف - موقف عرفة - فيقول:

- هل من رجل يحملني إلى قومه؛ فإنّ قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي ﷻ.

(١) القصة بكاملها في "الروض الأنف" للشهيلي (١/٢٦٤، ٢٦٥) وقال: «ذكره قاسم بن ثابت والخطابي». وابن دحلان (١/٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦) عن ابن عباس.

(٢) "الطبقات" (١/٢٠٠، ٢٠١).

(٣) نفس المصدر السابق.

وعلى الرغم من الصّدِّ والإعراض، والتعب، كلَّ التعب فإنَّ النبي ﷺ، فإنَّ القلب الكبير، القلب الواثق المطمئن إلى وعد الله تبارك وتعالى لم ييأس؛ فقد وعده الله النصر، ولا بد منه بإذن الله!

وعند العقبة التقى بستّة نفر يحلقون، لم يعرض عليهم الإسلام بعد، فهل يتركهم ويمضي؟

قبائل العرب: فزارة، وغسان، وحنيفة، وسليم، وعبس، وكندة، وكلب، وعذرة، والحضارمة، وبنو عامر بن صعصعة، وبنو البكاء، وبنو نضر، هذه القبائل كلّها لم تستجب، فهل يستجيب له هؤلاء النفر الستّة الذين جلسوا يحلقون؟!

هل يتركهم ويمضي؟!

لا، إنّه لا يترك صغيراً لصِغره، ولا فقيراً لفقره، ولا عبداً ولا أمة، إنّه يدعو النّاس، كلّ النّاس.

وأقبل إلى النفر الستّة، فسألهم:

- من أنتم؟

قالوا:

- نفر من الخزرج.

قال:

- أمن موالي يهود؟

قالوا:

- نعم.

قال:

- أفلا تجلسون أكلمكم؟

قالوا:

- بلى.

فجلسوا معه ..

فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، ونظر بعضهم إلى بعض، راحت العيون تتكلم مع بعضها بلغة هي تعرفها، وخفقت القلوب؛ إنه النبي الذي كانت تتوعدهم به يهود؛ كانوا يقولون لهم كلما نالوا منهم ما يكرهون:

- إنه قد تقارب زمان نبيٍّ يُبعث الآن، نقتلكم معه قتل عاد وإرم<sup>(١)</sup>!

وكان أسعد بن زُرارة - أحد الرجال الستة الذين جلسوا يصغون إلى النبي ﷺ - قد رأى رؤيا عندما كان قادمًا في تجارة من الشام؛ رأى آتياً أتاه فقال له:

- إن نبيًّا يخرج بمكة يا أبا أمامة فاتِّبعه<sup>(٢)</sup>!

ثم كلم بعضهم بعضًا، فقالوا:

- يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا

(١) "سيرة ابن هشام" (١/٢٢٥).

(٢) "الطبقات الكبرى" (١/١٤٧).



تسبقنكم إليه!

فأجابوه فيما دعاهم إليه، وصدّقوه، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، ثم قالوا له:

- إننا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين؛ فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعزُّ منك!

ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم<sup>(١)</sup>.

### ٣- لماذا خرج من أرض الخمر والخمير؟

كان من يهود أهل الشام، خرج منها قادمًا إلى أرض العرب، وسكن يثرب، فكان يعبد الله هناك، فلما حضرته الوفاة أحاط به عدد من اليهود، فقال لهم وقد أيقن بدُنُوِّ أجله:

- يا معشر يهود، ما ترون أخرجني من أرض الخمر والخمير إلى أرض البؤس والجوع؟

قالوا:

- إنك أعلم!

قال:

- فإنني إنما قدمت هذه البلدة أتوكّف - أنتظر - خروج نبيّ قد

(١) "ابن هشام" (٢/٧٠، ٧١).

أظلمَ زمانه، وهذه البلدة مُهاجرُه، فكنت أرجو أن يُبعث فأتبعه، وقد أظلمَ زمانه، فلا تُسبِقنَّ إليه يا معشر يهود؛ فإنه يُبعث بسفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

ثم مات ابن الهَيَّان، وكان يودُّ أن يُبعث رسول الله ﷺ في زمانه فيتبعه، وقد أوصى يهود بضرورة الإسراع إلى تصديقه والإيمان به<sup>(١)</sup>.

كان العرب من أهل يثرب على علم بالنبوة والأنبياء؛ لكثرة ما سمعوا اليهود يتحدثون عنهما، وكانت في أخلاقهم سهولة ولين، بعكس أهل مكة؛ الذين يتمثل في أخلاقهم: الكبرياء، والصِّلف، والعناد!<sup>(٢)</sup>

وقد عاد الستة الذين آمنوا بالنبى ﷺ؛ وهم: أسعد بن زُرارة، وعَوْف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقُطَبة بن عامر، وعُقَبة بن عامر ابن نابي، وجابر بن عبد الله بن رِئاب، وكلُّهم من الخزرج، عادوا إلى قومهم يبشرونهم بظهور النبي ﷺ في بيوتهم.

والأوس والخزرج من القبائل القحطانية، أما قريش ومن جاورها في مكة فمن القبائل العدنانية، وكانت الحروب قد قامت بين الأوس والخزرج حتى أنهكت الطرفين، وكان ذلك بتحريض من اليهود، وكانت آخر تلك الحروب: يوم بُعاث؛ وهو موضع في المدينة، انتصر فيها الخزرج أوّل الأمر، ثم دارت الدائرة عليهم فانكسروا، وأحرقَت الأوس دورهم.

(١) "ابن هشام" (١/٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) "السيرة النبوية" للندوي (ص ١٣٠).

ثم انتبه رجال القبيلة إلى أنّ المستفيد الوحيد من هذه الحروب هم اليهود؛ فقد أتت الحرب الأخيرة على كثير من أشرف الأوس والخزرج وكبرائهم، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل، رأوا أنّ هذه الحروب تمكّن اليهود من استعادة سيطرتهم على يثرب<sup>(١)</sup> بعد أن غلبهم عليها العرب؛ لذلك سعوا إلى المصالحة، واتفقا على ترشيح رجل من الخزرج هو: عبد الله بن أبيّ بن سلول ليكون ملكًا على يثرب؛ وذلك لأنّه وقف مع أهله على الحياد، فلم يشترك في الحرب التي دارت يوم بُعث بين الطرفين قبل عامين من هذا التاريخ.

ولما كان اليهود يتوعّدون العرب، ويقولون لهم: إنّه سيُبعث نبيٌّ في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم؛ فقد ظنّوا أنّه إذا سبقهم اليهود إلى الإيمان به فلن يكون من حقّهم أن يؤمنوا، وإذا آمنوا فسيكونون تبعًا لليهود، وهذا ما لا يرغبون فيه ولا يُطيقونه! لذلك سارعوا إلى الإيمان به، ولعلّهم كتموا الأمر عن اليهود بادئ ذي بدء!

والعجيب أنّ العرب في يثرب لم يسمعوا بظهور النبي ﷺ وبدعوته إلى ذلك التاريخ: السنة العاشرة من البعثة، وهو أمر غريب جدًّا؛ فلعلّ قبائل العرب من أقصى الجزيرة إلى أقصاها قد سمعت به من الحجيج إلا عرب يثرب! وهذا يدلُّ على أنّ اليهود لم يعلموا بظهوره أيضًا، وإذا علموا من وفد قريش الذي ذهب يسألهم عنه فعلى وجه الشكّ لا اليقين! لذلك كانت دعوة الإسلام جديدةً كلّ الجدة على الأوس والخزرج في ذلك الحين، والذين آمنوا به راحوا يهمسون

(١) "المجتمع المدني في عهد النبوة" للدكتور أكرم العمري (ص ٦١).

به إلى من يعرفونه همساً وليس علناً؛ هذا ما يدلُّ عليه: الوفدُ المبارك الذي سيأتي ذكره بعد قليل.

ولعلَّ الذي شغلهم عن الإسلام: الحرب التي كانت مُستعرةً بينهم!

#### ٤- لقاء ربيعة:

في موسم الحجِّ التالي أقبل خمسة رجال من الرجال الذين أسلموا من أهل يثرب، وتخلَّف جابر بن عبد الله بن رثاب، وجاء معهم سبعة رجال هم: معاذ بن الحارث؛ أخو: عوف بن الحارث الذي أسلم في الموسم الماضي، وذكوان بن عبد قيس، وعُباد بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة البلوي؛ أبو عبد الرحمن، والعبَّاس بن عُباد بن نضلة، وهؤلاء كلُّهم مع الستَّة الذين أسلموا سابقاً من الخزرج.

ومعهم رجلان من الأوس هما: أبو الهيثم مالك بن التَّيهان، وعُويم بن ساعدة<sup>(١)</sup>.

التقى بهم النبي ﷺ عند العقبة الأولى، فأسلموا، أو أسلم من لم يكن قد أسلم بعد، أو جدَّدوا إسلامهم على يد النبي ﷺ<sup>(٢)</sup>، ثم بايعهم النبي ﷺ على بيعة النساء، لماذا؟

بيعة النساء ليس فيها حرب، ولا أمر بالمعروف، ولا نهى عن

(١) "ابن هشام" (٧٣/٢، ٧٤)، و"الطبقات الكبرى" (٢٠٤/١)، وابن دحلان (٢٨٨/١).

(٢) لعل هذا هو الصحيح.

المنكر، ولا دفاع عن الإسلام.

ما هي بنود هذه البيعة إذن؟

- ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا،  
ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف<sup>(١)</sup>.

قال رسول الله ﷺ:

- فإن وفيتم فلكم الجنة، ومن غشي من ذلك شيئاً كان أمره إلى  
الله؛ إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه<sup>(٢)</sup>.

هذه بنود البيعة الأولى؛ ضوابط الرجل المسلم المؤمن بالله  
ورسوله، بناء الشخصية المسلمة المتميّزة، صياغة الرجل القرآني  
ليكون أهلاً لحمل الرسالة وأداء الأمانة، إعداده لما سيأتي.

هذه البيعة أطلقوا عليها اسم: بيعة النساء لأنّ العرب أمّة  
محرّبة، كأنّها خلقت للحرب، بعكس اليهود الذين يُريدون أن يدفعوا  
عن أنفسهم الموت بأيّ ثمن.

كان عبد الله بن عبد الأسد المخزومي - أبو سلمة - عندما عاد  
من الحبشة آذته قريش، فأراد أن يعود إلى الحبشة، فلمّا سمع أنّ في  
يثرب له إخواناً هاجر إليها<sup>(٣)</sup>.

(١) "ابن هشام" (٧٥/٢).

(٢) "الطبقات" (٢٠٤/١).

(٣) "السيرة النبويّة" لابن كثير (٢١٥/٢).

## ٥- مُصعب بن عمير؛ السفير الأول:

الشباب، والجمال، والهدوء، والسَّمَت الهادئ، والابتسامة الحُلوة، والكلمة العذبة؛ كلُّ ذلك امتاز به الصحابي الجميل الجليل مُصعب بن عمير؛ فتى مَكَّة؛ شابًّا، وجمالًا، وتيهاً! (١) كان مصعب السفير الأوَّل للنبي ﷺ إلى يثرب، يعلِّمهم الإسلام، يُقرئهم القرآن، ويدعو من لم يسلم إلى الإسلام.

مع مُصعب بن عمير ذهب عبد الله ابن أمِّ مكتوم (٢)؛ ابن خالة خديجة بنت خويلد؛ الرجل الأعمى، الحريص على تعلُّم القرآن، نزل الرجلان على أبي أُمّامة؛ أسعد بن زُرارة، فصار يخرج بهما إلى دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظَفَر، يجلسون على بئر يقال لها: مَرَق، فيُحيط بهما رجال ممن أسلموا يتعلَّمون منهم، أو يأتي هؤلاء برجال لم يُسلموا بعدُ فيدعوهم مُصعب إلى الإسلام فيسلمون.

وكان سعد بن مُعاذ، وأسيّد بن حُضَيْر سيّدَي قومهما؛ وسعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زُرارة، فلما سمع سعد بن معاذ بالرجلين اللّذين جاءا من مَكَّة للدعوة إلى الإسلام قال لأسيّد بن حُضَيْر:

- لا أبا لك! انطلق إلى هذين الرجلين اللّذين قد أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا؛ فازجرهما، وانهما عن أن يأتيا دارينا؛ فإنه لولا أن أسعد بن زُرارة مني حيث قد علمت كفيّتك ذلك؛ هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدّمًا!

(١) "ابن هشام" (٧٦/٢) في الهامش.

(٢) ويقال: عمرو ابن أمِّ مكتوم، ولعله غيّر اسمه إلى عبد الله بعد الإسلام.

وزهب أسيد بن حُضير مُستَفزًّا، ناويًا على الشر، فلمَّا رآه أسعد قال لمصعب:

- هذا سيّد قومه قد جاءك؛ فاصدق الله فيه.

قال مصعب:

- إن يجلسُ أكلّمه.

فلمَّا وصل إليهما وقف مُتَشَتِّمًا، غاضبًا، وقال لهما:

- ما جاء بكما إلينا؛ تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة!

فنظر إليه مُصعب، بوجهه الذي ينضح سماحةً، وضياءً، وطهرًا، والذي لا يملك الناظر إليه إلا أن ينقاد له ويألفه، قال له مصعب بصوته الهادئ الذي يملك به القلوب:

- أو تجلس فتسمع؛ فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟

أمام هذا الكلام النبيل الجليل لم يجد أسيد إلا أن يقول:  
- أنصفت.

وجلس أسيد، وراح يستمع من مُصعب حديثَ القلب إلى القلب، وتهلّل وجهه، وأشرقت أساريره، واستبشر مَنْ كان حاضرًا، ثم قال:

- ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين<sup>(١)</sup>؟

(١) "ابن هشام" (٧٨/٢)، وابن دحلان (١/٢٩٠).

وأسلم الرجل، وشهد شهادة الحق، ثم قال:

- إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه،  
وسأرسله إليكما الآن؛ سعد بن معاذ.

وذهب أسيد متمهلاً، وهو يفكر فيما سيقوله لسعد بن معاذ حتى  
يضطره إلى الذهاب إلى مُصعب بن عمير وعبد الله بن أم مكتوم، فلما  
رآه سعد قال:

- أحلف بالله؛ لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من  
عندكم!

فلما وقف سأله سعد:

- ما فعلت؟

قال:

- كلمت الرجلين؛ فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما فقالا:  
نفعل ما أحببت.

وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه؛  
وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك؛ ليخفروك<sup>(١)</sup>!

فنهض سعد غاضباً، فأخذ الحربة من يد أسيد، ثم قال:

- والله ما أراك أغنيت شيئاً.

ثم خرج إليهما، وكان سعد رجلاً طوالاً جسيماً جميلاً، فلما

(١) لينقضوا عهدك.



رأى القوم مطمئنين عرف سعد أن أسيِّداً إنّما أراد أن يسمع منهما.

وقال أسعد بن زُرارة لمُصعب:

- أيُّ مُصعب، جاءك سيِّدٌ مَنْ وراءه من قومه؛ إن يتَّبَعك لا يتخَلَّف عنك منهم اثنان!

فلَمَّا وصل سعد قال يخاطب أبا أُمّامة:

- يا أبا أُمّامة، والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمّت هذا مني؛ تغشانا في دارنا بما نكره؟!

فنظر إليه مُصعب نظرة تكسّرت على شاطئها أمواج ثورة سعد العاتية، وقال:

- أوَتَقعد فتسمع؛ فإن رضيتَ أمراً ورغبتَ فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟

قال سعد:

- أنصفت.

ثم جلس سعد، وراح مُصعب يعرض عليه الإسلام، ويقرأ عليه القرآن، وسعد يهزُّ رأسه، ويقول مستحسناً:

- ما أحسن هذا<sup>(١)</sup>!

ثم قال:

- كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم، ودخلتم في هذا الدين؟!

ثم عاد سعد بن معاذ إلى قومه بعد أن أسلم، ووقف عليهم، وقال:

- يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا:

- سيّدنا، وأوصلنا، وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبةً.

قال:

- فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله

وبرسوله<sup>(١)</sup>!

#### ٦- بيعة الحرب:

انضمّ إلى موكب النور والإيمان: سعد بن الربيع، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن خيثمة، والمنذر بن عمرو، وسعد بن عباد، والبراء بن معرور، وبلغ عدد الذين آمنوا إلى حدود هذه المدة أربعين رجلًا؛ فأمر النبي ﷺ مُصعب بن عمير بأن يصليّ بهم الجمعة<sup>(٢)</sup>، وهي أوّل مرّة تُقام فيها الجمعة، في هزم بني النبيت، من حرّة بني بياضة، في نقيع الخضّمات<sup>(٣)</sup>.

ثم عاد مُصعب إلى مكّة، فلمّا حلّ الموسم التّالي أقبل من عرب يثرب حوالي خمسمئة رجل؛ من الأوس والخزرج، معهم ملكهم غير المتوجّج: عبد الله بن أبيّ بن سلول، وعدد من النسوة، وكان المؤمنون

(١) "ابن هشام" (٧٩/٢).

(٢) ابن دحلان (٢٨٩/١)، كان أسعد بن زُرارة يجمعهم للصلاة.

(٣) "ابن هشام" (٧٧/٢) في الهامش.

منهم يكتمون أمرهم على من معهم من المشركين، وكان معهم أيضًا: عبد الله بن عمرو بن حرام؛ أبو جابر، وكان سيّدًا من ساداتهم، وشريفًا من أشرافهم، فكلموه، وقالوا له:

- يا أبا جابر، إنك سيّد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإننا نرغب بك عمّا أنت فيه؛ أن تكون حطبًا للنار غدًا!

ثم دعوّه إلى الإسلام، وأخبروه بميعاد رسول الله ﷺ إليّهم؛ فأسلم. وكان النبي ﷺ قد لقي بعضهم، وواعدهم أن يوافوه في منى، أوسط أيام التشريق، ليلة النفر الأوّل، في الشعب الأيمن إذا انحدروا من أسفل العقبة، وأمرهم ألا ينيّها نائمًا، ولا ينتظروا غائبًا<sup>(١)</sup>.

لم يبلغ القمر أن يكون بدرًا، ولكنّه ظهر بشكل رائع وبراق في السماء، كان يُريد أن يُشارك، أو يرى ماذا سيحدث هذه الليلة عند العقبة!

وكانت الجبال الجرداء السمراء العالية التي تحتضن منى من الجانبين تقف في صمت مُذهل، وفي هدأة الليل رُئي رجال يتسلّلون بهدوء بالغ من خيامهم، كانوا يخشون أن يوقظوا أحدًا، أو يراهم أحدًا! وتسلّلت امرأتان أيضًا حتى وافوا موضع الاجتماع الذي عينه لهم رسول الله ﷺ، ثلاثة وسبعون رجلًا، وامرأتان؛ هما: نسبية بنت كعب؛ امرأة: زيد بن عاصم، أقبلت مع زوجها وولديها: حبيب بن زيد، وعبد الله بن زيد، وأسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي؛ وهي أمّ معاذ بن جبل؛ الشاب الوسيم، الحليم، الكريم الذي فاق أقرانه

(١) "الطبقات" (٢٠٥/١)، ابن دحلان (٢٩٢/١).

حلمًا، وعلماً، وسخاءً، وحياءً<sup>(١)</sup>.

أقبل النبي ﷺ ومعه عمُّه العباس بن عبد المطلب، وقد جعل العباس أبا بكر على إحدى جهتي الشعب، وجعل علي بن أبي طالب على الجهة الأخرى<sup>(٢)</sup>، ثم تكلم العباس، فقال:

- يا معشر الخزرج<sup>(٣)</sup>، إنَّ محمَّدًا منَّا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه؛ فهو في عزٍّ من قومه ومنعة في بلده، وإنَّه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم؛ فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحمَّلتُم من ذلك!

وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه؛ فإنه في عزٍّ ومنعة من قومه وبلده<sup>(٤)</sup>.

فقال البراء بن معرور:

- قد سمعنا ما قلت، وإنَّا والله لو كان في أنفسنا غيرُ ما نطق به لقلناه، ولكنَّا نريد الوفاء والصدق، وبذل مُهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ، فتكلَّم يا رسول الله؛ فخذ لنفسك ولربِّك ما أحببت<sup>(٥)</sup>.

(١) "الإصابة" (٣/٤٢٧/تسلسل ٨٠٣٧).

(٢) ابن دحلان (١/٤٩٢).

(٣) كان العرب يطلقون كلمة خزرج على الأوس والخزرج. "ابن هشام" (٢/٨٤).

(٤) "ابن هشام" (٢/٨٤).

(٥) "الطبقات" (١/٢٠٦)، وابن دحلان (١/٢٩٢).

(٦) ابن هشام.

فتكلم رسول الله ﷺ؛ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغب في الإسلام، ثم قال:

- أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم<sup>(١)</sup>.

فأخذ البراء بن معرور بيده، فقال:

- نعم والذي بعثك بالحق نبياً؛ لنمنعك مما نمنع منه أزرنا<sup>(٢)</sup>، فبايعنا يا رسول الله؛ فنحن والله أبناء الحروب، وأهل الحلقة<sup>(٣)</sup>؛ ورثناها كابراً عن كابر.

فقال أبو الهيثم بن التيهان:

- يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال - يعني: اليهود - حباً، وأنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟!

فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال:

- بل الدّم الدّم، والهَدْمُ الهَدْمُ؛ أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم.

(١) «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم؛ ولكم الجنة»: "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/١٩٥).

(٢) نساءنا.

(٣) السلاح. والتهيان بمعنى الجسور، والقصة بكاملها في "ابن هشام"، وابن دحلان.

فقال العباس بن عباد بن نضلة:

- يا معشر الخزرج، هل تدرّون علامَ تُبايعون هذا الرجل؟

قالوا:

- نعم.

قال:

- إنكم تُبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس؛ فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبةً، وأشرافكم قتلُ أسلمتموه = فهو والله خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وأفون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف = فخذوه؛ فهو والله خير الدنيا والآخرة!

قالوا:

- فإننا نأخذه على مُصيبة الأموال وقتل الأشراف؛ فما لنا بذلك

يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟

قال:

- الجنة.

قالوا:

- أبسط يدك.

فبسط يده، فبايعوه، فأخذ بيده أسعد بن زُرارة - وهو أصغر

القوم - فقال:

- رويداً يا أهل يثرب؛ فإننا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وأن إخراجهم اليوم مناواة للعرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعصمكم السيوف؛ فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك، فخذوه وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فبينوا ذلك؛ فهو أعذر لكم عند الله.

قالوا:

- أمط عنا يا أسعد؛ فوالله لا ندع هذه البيعة، ولا نسلبها أبداً!  
فقاموا إليه فبايعوه<sup>(١)</sup>.

#### ٧- الأنصار:

لعل من هذه البيعة أطلق على الذين آمنوا من أهل يثرب: الأنصار، وقد جعل عليهم النبي ﷺ اثني عشر نقيباً؛ ثلاثة من الأوس، وتسعة من الخزرج، وهم: أسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، وأبو الهيثم بن التيهان؛ هؤلاء من الأوس.

أما الخزرج فهم:

أسعد بن زُرارة، وسعد بن الربيع، والمُنذر بن عمرو، وعبد الله ابن رَواحة، والبراء بن مَعْرور، وعبد الله بن عمرو بن حَرَام، وعُبادَة ابن الصّامت، ورافع بن مالك، وسعد بن عبادَة.

فلما انتهت البيعة، وتعيّن النُّقباء، سُمع صوت هائل يقول:

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/١٩٥، ١٩٦).

- هل لكم في محمد والصبابة معه، قد أجمعوا على حربكم<sup>(١)</sup>!

فقال رسول الله ﷺ:

- لا يرعكم هذا الصوت؛ فإنه عدو الله إبليس، ليس سمعه أحد ممن تخافون<sup>(٢)</sup>.

ثم قال رسول الله ﷺ:

- انفضوا إلى رحالكم.

فقال له العباس بن عباد بن نضلة:

- والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غدًا بأسيفنا!

فقال رسول الله ﷺ:

- لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم<sup>(٣)</sup>.

## ٨- التاج المهزوز:

لم يرع الأنصار في اليوم التالي إلا وعدد من أشرف قريش؛  
فيهم أبو جهل يقفون في منازل الأنصار ويقولون:

- يا معشر الخزرج، إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة،  
وواعدتموه أن تباعوه على حربنا، وايم الله ما حي من العرب أبغض  
إلينا أن تنشب بيننا وبينه الحرب منكم!

(١) "الطبقات الكبرى" (٢٠٧/١).

(٢) رواه الطبراني. هامش "فقه السيرة" (ص ١٦٣).

(٣) "ابن هشام" (٩٠/٢).



فانبعث عبد الله بن أبي بن سلول؛ الرجل الذي ينتظر أن يوضع التاج على رأسه بين عشية وضحاها، انبعث يردُّ كلامهم بانفعال:

- هذا باطل، وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا عليَّ بمثل هذا، لو كنتُ بيثرب ما صنع هذا قومي حتى يُؤامروني<sup>(١)</sup>!

وانبعث من كان من المشركين من الخزرج يحلفون لهم بالله؛ ما كان هذا وما علمنا!!

وكان المسلمون منهم قد لزموا الصمت، وصار بعضهم ينظر إلى بعض دون أن يتكلموا.

ثم نفر الحجيج، وتأكد لقريش صحّة الخبر، فأرسلوا وراء الأنصار، فلم يدركوا إلا سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو؛ فأما المنذر فأعجزهم هرباً، وأما سعد بن عبادة فأخذوه، فربطوا يديه إلى عنقه، وجعلوا يضربونه، ثم أقبلوا به إلى مكّة، وكان سعد رجلاً جواداً، يحسن القراءة والكتابة، والرمي والسباحة، وكان ذا مكانة وشرف في يثرب!

وفي مكّة التفتّ حوله عدد من الرجال، راحوا يضربونه، ويجذبونه من شعر رأسه، فبينما هو على تلك الحال إذ أقبل رجل وضيءً أبيض، شعشاع - طويل - حلو من الرجال<sup>(٢)</sup>، فقلت في نفسي:

- إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا، فلما دنا مني رفع يده فلكنني لكمّة شديدة! فقلت في نفسي:

(١) "الطبقات الكبرى" (١/٢٠٧)، وابن دحلان (١/٢٩٦).

(٢) "ابن هشام" (٢/٩٢)؛ والرجل هو سهيل بن عمرو. ابن دحلان (١/٢٩٦).

- لا والله، ما عندهم بعد هذا من خير!  
 وكان أبو البَخْتَرِي ابن هشام معهم، فقال له:  
 - ويحك! أما بينك وبين أحد من قريش جوارٌّ ولا عهد؟  
 قلت:

- بلى والله؛ ولقد كنت أُجير لَجُبَيْر بن مُطْعِم بن عَدِي تَجَّارَه،  
 وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادِي، وللحارث بن حرب؛ أخي أبي  
 سفيان ابن حرب.

فقال أبو البَخْتَرِي:

- ويحك! فاهتف باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما!  
 فهتف باسمهما، فأسرع أبو البَخْتَرِي إليهما، فوجدهما عند  
 الكعبة، فقال لهما:

- إنَّ رجلاً من الخزرج الآن يُضرب بالأبطح يهتف باسمكما،  
 ويذكر أنَّ بينه وبينكما جواراً.

قالا:

- ومن هو؟

قال:

- سعد بن عبادة.

قالا:

- صدق والله؛ إن كان ليجير لنا تَجَّارنا، ويمنعهم أن يُظلموا ببلده!

فأسرعا، فخلّصاه من أيديهم.

وعندما لحق المنذر بن عمرو بالأنصار، وأخبرهم خبر سعد، أرادوا أن يكرّوا إليه، فإذا سعد قد طلع عليهم، فرحل القوم جميعاً إلى يثرب، وهناك أظهروا الإسلام علانية، وشعر عبد الله بن أبي بن سلول أنّ التاج لم يعد في متناول يده!!

فلما وصلوا إلى يثرب رجع أربعة من الأنصار إلى مكة ليقبوا مع النبي ﷺ؛ هم:

ذُكْوَان بن عبد قيس، وعُقبَة بن وهب بن كِلْدَة، والعبّاس بن عبادة ابن نضلة، وزِيَاد بن لَيْد<sup>(١)</sup>.

فهم مهاجرون أنصاريون!

#### ٩- المهاجرة الأولى:

اشتدّ ضغط المشركين على الذين آمنوا في مكة، لا سيّما بعدما علموا أنّ رجالاً من الأوس والخزرج قد دخلوا في دين الله؛ وهم يسيطرون على طريق تجارة قريش إلى الشام، فقال رسول الله ﷺ للمؤمنين:

- قد أريت دارَ هجرتكم؛ أريت سَبْحَةَ بين نخل، بين لَابِتَيْن<sup>(٢)</sup>.

ثم قال لهم:

(١) "الطبقات" (٢١١/١).

(٢) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/٢١٣)، والحديثان رواهما البخاري في "صحيحه".

- رأيتُ في المنام أنني أهاجر إلى أرض بها نخل؛ فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هَجْر، فإذا هي المدينة يثرب<sup>(١)</sup>.

هاجر أبو سلمة أول مَنْ هاجر؛ عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، أمه برة بنت عبد المطلب؛ عمّة رسول الله ﷺ، وأبو سلمة أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة.

خرج أبو سلمة بزوجته: هند بنت أبي أمية المخزومية، وابنه: سلمة الذي وُلد بأرض الحبشة، يحملهما على بعير له، خرج في وضح النهار؛ فلما رآه رجال من بني المغيرة ثاروا إليه، وقالوا:

- هذه نفسك غلبتنا عليها، أرايت صاحبتنا هذه؛ علام نتركك تسير بها في البلاد؟!

ونزعوا خِطامَ البعير من يده وأخذوها!! فغضب عند ذلك رجال من بني عبد الأسد، وهجموا على الطفل، وقالوا:

- والله لا نترك ابنا عندها؛ إذا نزعتموها من صاحبنا!

فتجاذبوا الطفل، وهو يصرخ بالبكاء، حتى أخذوه وقد خلعوا يده!!

وهكذا؛ فرّقوا بينه وبين زوجته وابنه!

ومضى أبو سلمة في طريقه إلى يثرب..

أمّا أمّ سلمة، فصارت تخرج كلّ يوم إلى الأبطح خارج مكة، وتجلس تبكي حتى المساء، ثم تعود..

(١) نفس المصدر السابق.

استمرت على تلك الحال مدة، حتى مرَّ بها رجل من بني عمِّها،  
فرأى ما عليها من الحزن، فقال لبني المغيرة:

- أما ترحمون هذه المسكينة؛ فرَّقتم بينها وبين ولدها  
وزوجها<sup>(١)</sup>؟!؟

فقالوا لها:

- الحقي بزوجك إن شئت.

فلما رأى بنو سلمة ذلك ردُّوا عليها ولدها.

- فرحلتُ بعيري، ووضعت ابني في حَجْرِي، ثمَّ خرجت أُريد  
زوجي بالمدينة وما معي أحدٌ من خلق الله، حتى إذا كنتُ بالتنعيم<sup>(٢)</sup>  
لقيت عثمان بن طلحة؛ أبا بني عبد الدار، فقال:

- إلى أين يا بنتَ أبي أمية؟!؟

قلت:

- أُريد زوجي بالمدينة.

فقال:

- هل معك أحد؟

فقلت:

- لا والله، إلا الله؛ وابني هذا.

(١) ابن دحلان (١/٢٩٨).

(٢) موضع؛ على مسافة ليست بعيدة عن مكة.

فقال:

- والله ما لك من مترك.

فأخذ بخِطام البعير، فانطلق معي يقودني..

فوالله ما صحبتُ رجلاً من العرب أراه كان أكرم منه، إذا نزل المنزل أناخ بي ثم تنحى إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرّواح قام إلى بعيري، فقدمه ورَحَله، ثم استأخر عني، وقال:

- اركبي.

فإذا ركبْتُ واستويتُ على بعيري أتى فأخذ بخِطامه فقادني، فلم يزل يصنع حتى قَدِم المدينة، فلمَّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُبَاء قال:

- إنَّ زوجك في هذه القرية.

وكان أبو سلمة نازلاً بها<sup>(١)</sup>.

ثم سلّم عليها وانصرف، وعاد إلى مكّة!!

وانظر إلى هذه الأخلاق العالية، والكرم، والسماحة، والبذل بلا حدود وبلا مقابل، وبهذه الأخلاق استحقَّ العرب أن يحملوا إلى الدنيا هذه الرسالة العظيمة، فكانوا بحقَّ خيرَ أمةٍ أُخرجت للنَّاس!

(١) "الإصابة" (٤/٤٥٨/تسلسل ١٣٠٩)، وعثمان بن طلحة هذا ستأتي قصته إن شاء الله، و"ابن هشام" (٢/١١٢، ١١٣).

## ١٠- منطق القوة:

- شأهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس!

كان في الحادية والأربعين من عمره، طوآلاً ضخمًا أسمر، أصلع، تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى أسهمًا في يديه، ومشى قبل الكعبة، والملاً من قريش بفنائها، فطاف سبعا، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم أقبل على الحلق من قريش واحدة واحدة، ثم قال:

- شأهت الوجوه! لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس! من أراد أن

تتكله أمه، أو تفقده زوجته فليلقني وراء هذا الوادي!

منطق القوة هذا أحرص الجميع؛ بل شدّهم إلى الأرض، فلم ينهض أحد منهم وراءه، وخرج عمر بن الخطاب مرفوع الرأس، مرهوب الجانب، ومضى في طريق الهجرة إلى يثرب! وكان قد اتعد هو وعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي منطقة يقال لها: التناضب<sup>(١)</sup>، وقالوا:

- أيّنا لم يصبح عندها فقد حُبس؛ فليمض صاحباه.

فأصبح عمر وعيَّاش عندها، وحُبس هشام بن العاص، وفتن! ثم انضم إليهم عدد من المهاجرين حتى أصبحوا عشرين مهاجراً، وكان قد سبقهم: بلال، وسعد بن أبي وقاص، وعمّار بن ياسر، وكان يؤمهم في الصلاة: سالم مولى أبي حذيفة لأنه كان أكثرهم أخذاً للقرآن، وكان أحسنهم قراءةً، وأجملهم صوتاً؛ إذا قرأ أخذ بمجامع

(١) موضع على بعد عدة كيلومترات من مكة.

القلوب! وكان مع عمر: زوجته، وابنه: عبد الله، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، فنزلوا العُصبة؛ موضع بقاء.

وكان بنو غنم بن دودان قد جمعوا ما استطاعوا من رجالهم المؤمنين ونسائهم المؤمنات، وهاجروا مرة واحدة، حتى أصبحت ديارهم وليس فيها أحد! فكان من رجالهم: عبد الله بن جحش، وأخوه الضرير: أبو أحمد؛ زوج الفارعة بنت أبي سفيان ابن حرب، وهو الذي كان يقطع مكة طولاً وعرضاً بلا دليل! وعكاشة بن محصن، وشجاع بن وهب، وأخوه: عقبة، وأزبد بن حميرة، ومن نسائهم: زينب، وحمنة، وأم حبيبة؛ بنات جحش، وجذامة بنت جندل، وأم قيس بنت محصن، وأم حبيب بنت ثمامة، وأميمة بنت رقيش، وسخبرة بنت تميم.

ثم هاجر الأنصار الأربعة الذين قدموا إلى مكة بعد البيعة الأخيرة وهم: ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب، والعباس بن عباد، وزيايد بن لييد.

وفي هذه المدة توفي: البراء بن معرور؛ أحد النقباء الاثني عشر رضي الله عنهم.

### ١١- قد والله خرج عليكم محمد:

عندما عزم أبو بكر على الهجرة طلق امرأته أم بكر<sup>(١)</sup> لأنها كانت على دين قومها، لم تُسلم، وأبقى الثانية: أم رومان؛ زينب الكنانية، كان قد تزوجها الحارث بن سخبرة، فولدت له الطفيل، ثم توفي عنها

(١) "البخاري" (٨٣/٥).



الحارث، فتزوَّجها أبو بكر قبل الإسلام، فلَمَّا بعث الله نبيَّه ﷺ بالإسلام أسلمت، وبايعت<sup>(١)</sup>، وهي أم عبد الرحمن، وعائشة.

وكان أبو بكر قد طلق قبل ذلك امرأته قُتَيْلَةَ؛ وهي أمُّ أسماء بنت أبي بكر؛ زوجة الزبير بن العوام، وبقيت قُتَيْلَةَ على دين قومها أيضًا!  
حين استأذن أبو بكر رسول الله ﷺ في الهجرة قال له رسول الله ﷺ:

- على رسلك؛ فإنِّي أرجو أن يُؤذن لي.

فقال أبو بكر:

- وهل ترجو ذلك؛ بأبي أنت وأمي؟!!

قال:

- نعم<sup>(٢)</sup>.

كان ذلك قبل أربعة أشهر من هذا التاريخ، قبل موسم الحج بشهر تقريبًا، وقد هيأ أبو بكر راحلتين، وجعلهما جاهزتين تحت اليد لأنَّه لا يعلم متى يُؤذن للنبي ﷺ بالهجرة.

وفي ليلة الاثنين، ليلة الأوَّل من ربيع الأوَّل، السنة الثالثة عشرة للبعثة تأمر كفَّار قريش على النبي ﷺ، فقال بعضهم لبعض:

- إذا أصبح فأثبته بالوثاق!

وقال بعضهم:

(١) "الاستيعاب" (٤/٤٤٨)، و"الإصابة" (٤/٤٥٠/تسلسل ١٢٧١).

(٢) "البخاري" (٥/٧٥).

- بل اقتلوه!

وقال آخرون:

- بل أخرجوه<sup>(١)</sup>!

وتغلب رأي أبي جهل الذي قال:

- أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شابًا، جليدًا، نسيبًا، وسيطًا فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه؛ فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعًا، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعًا! فرضوا منّا بالعقل<sup>(٢)</sup>، فعقلناه لهم!

فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك، فأمر النبي ﷺ عليًا بالمبيت في فراشه، وأن يتسجى ببرده الأخضر، وكان أبو جهل يحدث الفتية الذين وقفوا على باب النبي ﷺ، ويقول لهم:

- إن محمدًا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكًا، فإذا مئتم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح، ثم بعثتم بعد موتكم، وكانت لكم نار تعذبون بها!

وخرج الرسول ﷺ وقد سمع مقالته، فقال:

(١) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/٢٣٩)، والحديث رواه أحمد، وانظر: "في ظلال القرآن" (٩/٢٥٦).

(٢) العقل: الدية. وكلمة أبي جهل من "ابن هشام" (٢/١٢٦).

- أنا أقول ذلك؛ إنَّ لهم مني لذبحًا، وإنَّه لآخذهم<sup>(١)</sup>.

وأخذ الله على أبصارهم، فلم يره أحد منهم، وذرَّ على رؤوسهم التراب، وهو يقرأ:

﴿يَسْ (٢)﴾ وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ نَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيهِ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس: ١ - ٩].

كان الفصل صيفًا<sup>(٣)</sup>، وكان من عادة أهل مكة أن يناموا في فناء الدار - في الجزء المكشوف منه - في فصل الصيف، وكان جدار بيت النبي ﷺ ليس عاليًا؛ فكان المتربصون يتطلعون من فوق الجدار، فيرون عليًا متسجيًا ببرد النبي ﷺ، فيحسبون أنه النبي ﷺ، حتى أتاهم رجل فقال لهم:

- ما تنظرون ها هنا؟! -

قالوا:

- محمَّدًا.

قال:

(١) "تفسير ابن كثير" (٣/ ٥٦٤، ٥٦٥)، وابن دحلان (١/ ٣٠٤)، و"ابن هشام" (٢/ ٢٧).

(٢) تُقرأ هكذا: يا. سين.

(٣) شهر أيلول.

- خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمّد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟

رفع كلٌّ منهم يده ينفّض بها التراب الذي على رأسه، ثم نظروا فقالوا:

- والله إنّ هذا لمحمّد نائماً عليه برده!

فلم يبرحوا مكانهم حتى طلع النهار، ونهض عليٌّ؛ وكان شاباً في الثالثة والعشرين من عمره، فلمّا رآه القوم قالوا:

- والله لقد كان صدّقنا الذي حدّثنا<sup>(١)</sup>!

فهموا على علي، وقالوا:

- أين صاحبك هذا؟!

فقال:

- لا أدري<sup>(٢)</sup>.

فانطلقوا مسرعين يبحثون عن النبي ﷺ في الطريق الصاعد إلى يثرب! وذهب علي بن أبي طالب يردُّ على الرجال ودائعهم التي كانت لدى النبي ﷺ!

(١) "ابن هشام" (١٢٧/٢).

(٢) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢٣٩/٢).

## ١٢- ذات النطاقين:

لم يخرج النبي ﷺ تلك الليلة من مكة، بل بات فيها، حتى إذا كان النهار يوم الاثنين، الأول من ربيع الأول، في نحر الظهيرة، في الوقت الذي يلوذ الناس فيه بيوتهم هرباً من الشمس القاتلة، والحرّ اللاهب، خرج النبي ﷺ متقنّعاً إلى بيت أبي بكر، فقال قائل لأبي بكر:

- هذا رسول الله ﷺ متقنّعاً.

فقال أبو بكر:

- فداءً له أبي وأمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر!

فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن، فأذن له، فدخل، فقال:

- أخرج من عندك.

فقال أبو بكر:

- إنما هم أهلك<sup>(١)</sup>؛ بأبي أنت يا رسول الله!

قال:

- فإنني قد أذن لي في الخروج.

فقال أبو بكر:

- الصُّحبة بأبي أنت يا رسول الله!

(١) كانت عائشة زوج النبي ﷺ وكان قد عقد عليها بعد وفاة خديجة، ومعها أسماء زوج الزبير بن العوام، والحديث في "البخاري" (٧٥/٥).

قال رسول الله ﷺ:

- نعم.

فبكى أبو بكر من شدة الفرح، وقال:

- فخذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحلتي هاتين!

قال رسول الله ﷺ:

- بالثمن.

وقامت أسماء بنت أبي بكر، فصنعت على عجل سفرة للنبي ﷺ

وأبي بكر، ثم قالت لأبيها:

- ما أجد شيئاً أربطه إلا نطاقي.

قال:

- فشُقِّيه<sup>(١)</sup>.

فقطعت قطعة من نطاقها، فربطت به على فم الجراب<sup>(٢)</sup>، وكانت

أسماء فتاة طويلة قوية جريئة.

في ذلك الوقت الذي لا يستطيع فيه أحد من الناس أن يقف

خارج بيته من شدة الحر خرج النبي ﷺ وأبو بكر الصديق متجهين إلى

عكس الطريق المؤدي إلى يثرب! خرجا من أسفل مكة باتجاه اليمن

إلى جبل ثور، فمكثا في غار هناك!

(١) "البخاري" (٤/٦٦).

(٢) "البخاري" (٥/٧٥)؛ وبذلك سُميت ذات النطاقين.

وكان قد نزلت على النبي ﷺ هذه الآية:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَّصِيرًا﴾ ﴿٨٠﴾ [الإسراء: ٨٠] (١).



(١) "الترمذي" (٣٠٤/٥) حديث رقم (٣١٣٩)، وقال: «حسن صحيح».





(١٢)

خَيْمَةٌ عَلَى الطَّرِيقِ

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ  
رَفِيقَيْنِ حَلًّا خِيَمَتِي أُمَّ مَعْبِدِ  
هُمَا نَزَلَا بِالْبِرِّ، وَارْتَحَلَا بِهِ  
فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدٍ

## ١- ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾:

اختفاء النبي ﷺ في الغار أسلوبٌ جديدٌ من أساليب الدعوة إلى الله والمحافظة عليها فَوَّتْ على المشركين فرص القبض على صاحب الرسالة ﷺ، ومنعه من الهجرة، أو قتله!!

وقد سلك النبي ﷺ مسلكًا جديدًا من مسالك الدعوة، ومقتضياتها ومستلزماتها، والحفاظ عليها، وهو الخروج من مكة إلى حيث يستطيع أن يكوّن الجماعة المسلمة القادرة على إزاحة الكفرة من سلطانهم، ومن ثمَّ يخلو له الجو؛ فيحطّم معالم الكفر؛ كتلك الأصنام التي نصبته قريش حول الكعبة، وغير ذلك؛ وإنما سلك هذا المسلك لأنّه هو الموصل إلى مُراد الدعوة، وهو بالتأكيد أولى من مسلك تحطيم الأصنام.

لقد دعا قومه إلى الله بكلِّ أسلوب جميل جديد مقنع، واستمرَّ في دعوته، وثابر عليها، ولم يتطرَّق اليأس إلى قلبه، ثم عزم على الهجرة عندما غلّقت مكة في وجهه أبوابها وقلوبها، وأبت إلا الإصرار على الكفر، قرَّر أن يترك مكة، أن يهاجر إلى حيث يستطيع أن ينشر دعوته ويكوّن الجماعة المؤمنة.

وأخذ بجميع الأسباب المادّية الممكنة؛ فعبد الله بن أريقط رجل مشرك على دين قومه، ولكنّه رجل مخلص ثقة، خبير كلَّ الخبرة بالطريق، أخذ الراحلتين عنده، وانتظر حتى يخفَّ الطلب ليأخذهما إلى يثرب، وقد واعداه أن يأتيهما إلى غار ثورٍ بعد ثلاث.

وعامر بن فهيرة كان يرعى غنمًا لأبي بكر، فكان يأتيهما كلَّ ليلة حين يختلط الظلام، فيحلبان ويشربان، ثم يذهب بكرة، فيصبح مع

الرعيان!

وكان عبد الله بن أبي بكر شابًا حاذقًا ثَقِفًا، يبيت عندهما كلَّ ليلة، ثم يذهب من عندهما بِسَحَرٍ، فيصبح مع قريش بمكَّة كأنه بائت فيها، فلا يسمع أمرًا يُكادان به إلا وعاه، ثم يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام!

وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما كلَّ ليلة بالطعام، وكانت حاملًا في شهرها السابع أو الثامن، ولكنها كانت قويَّة نشيطة.

كان الذي يقتصر لقريش الأثر: سُراقَة بن مالك بن جُعشم المُدَلِجِي؛ وكان قد ذهب في أطراف مكَّة كلَّ مذهب فلم يعثر على أثرٍ للنبي ﷺ ولا لصاحبه! فنزل إلى أسفل مكَّة حتى جاء إلى جبل ثور، فمرَّ بمن معه على الغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت.

ووقفوا لحظات..

وراح قلب أبي بكر يدقُّ فزعًا على النبي ﷺ! ثم قال هامسًا:

- يا نبيَّ الله، لو أنَّ بعضهم طأطأ بصره رأنا!

قال:

- اسكت يا أبا بكر؛ اثنان الله ثالثهما<sup>(١)</sup>!

ونظر المشركون إلى نسج العنكبوت على باب الغار؛ فقالوا:

- لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه<sup>(٢)</sup>!

(١) "البخاري" (٨٣/٥).

(٢) "السيرة النبوية" لابن كثير (٢/٢٣٩).

قال أبو بكر للنبي ﷺ:

- هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أئيلٌ - أحزن -  
ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره!

فقال له النبي ﷺ:

- يا أبا بكر، لا تخف؛ إِنَّ الله معنا<sup>(١)</sup>!

وفي اليوم التالي جاء عبد الله بن أريقط بالراحتين، فخرجا من الغار، وسلك بهما طريقَ الساحل، وهي أبعد من الطريق الجادة إلى يثرب، فساروا الليل كله، والنهار حتى قام قائم الظهيرة، فأوا صخرةً عظيمةً لها ظلٌّ فجاؤوا إليها، ففرش أبو بكر للنبي ﷺ فروةً كانت معه، فاضطجع عليها، وانطلق أبو بكر ينقُض ما حوله، وإذا براعٍ أقبل يسوق عددًا من الغنم يريد أن يستظلَّ بالصخرة، فسأله أبو بكر:

- لمن أنت يا غلام؟

فقال:

- أنا لفلان.

فقال أبو بكر:

- هل في غنمك من لبن؟

قال:

- نعم.

(١) نفس المصدر السابق (ص ٢٤٠).

فأخذ شاةً، فحلب للنبي ﷺ منها، وبرّده، ثم قال:

- اشرب يا رسول الله، فشرب رسول الله ﷺ، ثم ارتحلوا<sup>(١)</sup>.

## ٢- ﴿وَعَدُّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾

عندما خرج النبي ﷺ من مكة قال مخاطبًا لها:

- ما أطيبك من بلدٍ وأحبك إليّ، ولولا أن قومي أخرجوني منك

ما سكنت غيرك<sup>(٢)</sup>!

أخذ عبد الله بن أريقط بالنبي ﷺ وأصحابه طريقَ الساحل، وهي

ليست الطريق المعبّدة المعروفة المألوفة الصاعدة إلى يثرب، فرآهم

رجلٌ من بعيد، فذهب إلى نادي قومه، فقال:

- يا سُراقَة، إني قد رأيت أنفًا أسودّةً بالساحل، أراها محمدًا

وأصحابه!

كان سُراقَة هو الذي اقتصر الأثر لقريش حتى عجز، فلمّا سمع

مقالة الرجل أراد أن يفوز بالجائزة التي وضعتها قريش لمن يأتي بالنبي

ﷺ، وعرف أنهم هم لا غيرهم، فقال له:

- إنهم ليسوا بهم، ولكنك رأيت فلانًا وفلانًا، انطلقوا بأعيننا<sup>(٣)</sup>،

ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمّت فدخلت، فأمرت جاريتي أن

تخرج بفرسي وهي من وراء أكّمة، فتحبسها عليّ، وأخذت رمحي،

(١) "البخاري" (٨٢/٥).

(٢) "السيرة النبوية" للندوي (ص ١٤٠)، والحديث رواه الترمذي في باب (فضل

مكة)، وابن دحلان (٣٠٧/١).

(٣) "البخاري" (٧٥/٥).

فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزُجَّه الأرض، وخفضتُ عاليه، حتى أتيتُ فرسي فركبتها<sup>(١)</sup>.

وانطلق سُرَاقَة سريعًا سريعًا، وهو لا يدري ماذا خبأ له القدر، وأدركهم، فعثرت به الفرس، فسقط من فوقها وتدحرج على رأسه، وأسرع سُرَاقَة فأخرج الأزلام، وكان قد كتب على أحدهما: أضُرُّهم، وعلى الثاني: لا أضُرُّهم، فاستقسم بالأزلام، فخرج الذي يكره: لا أضُرُّهم! فخالف الأزلام وركب فرسه، وصرخ بها، فانطلقت حتى صار قريبًا منهم، وسمع قراءة النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ لا يلتفت، وكان أبو بكر يكثر الالتفات، فلمَّا صار قريبًا منهم ساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغتا الرُّكبتين، وخرَّ عنها فتدحرج على الأرض، ثم نهض فنفض ثيابه، وزجر الفرس، فلم تكد تُخرج يديها إلا بصعوبة! فلمَّا استوت قائمة إذا لأثر يديها عُثان - غبار - ساطع في السماء مثل الدُّخان!!

- فاستقسمتُ بالأزلام، فخرج الذي أكره، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمرُ رسول الله ﷺ؛ فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فقلت له:

- إنَّ قومك قد جعلوا فيك الدِّيَّة .

وأخبرتهم أخبار ما يريد النَّاس بهم، وعرضتُ عليهم الزاد والمتاع، فلم يرزاني ولم يسألاني، إلا أنه قال:

- أخفِ عَنَّا.

ثم قال النبي ﷺ لسُرَاقَة:

(١) نفس المصدر السابق.

- كيف بك إذا لبست سوارِي كسرى؟<sup>(١)</sup>

فهتف سُراقَة مستبعدًا ومتعجبًا:

- كسرى بن هُرْمُزُ؟!<sup>(٢)</sup>

قال النبي ﷺ:

- نعم.

وطلب سُراقَة من النبي ﷺ أن يكتب له كتابًا، فأمر عامر بن فهيرة فكتب له في رُقعة من أديم<sup>(٣)</sup>.

لو قال له النبي ﷺ: «إنك ستلبس سوارِي قيصر» لكان الأمر هيئًا بالنسبة للعرب.

أمَّا سوارا كسرى؟! فهو أبعد من أن يستطيع العربي المشرك أن يصدِّقه في ذلك الحين! معنى ذلك القضاء التام على الإمبراطورية الفارسية، وأنَّ القضاء عليها سيكون بأيدي المسلمين الذين فرُّوا بدينهم من مَكَّة إلى يثرب، وليس بأيدي الروم! وأمر آخر ربما كان أكثر عجبًا؛ أنَّ سُراقَة بن مالك سيعيش حتى يرى بعينه سقوط الدولة الفارسية، وأنَّه سيدخل في الإسلام!

ولعلَّ هذا كلُّه كان أشدَّ على نفوس المشركين في مَكَّة عندما تحدَّث لهم سُراقَة بذلك من الإسراء والمعراج، وانتصار الروم الذي ذكر القرآن أنهم سيغلبون في بضع سنين!!

(١) "الإصابة" (٢/١٩) تسلسل (٣١١٥)، و"الاستيعاب" (٢/١٢٠).

(٢) ابن دحلان (١/٣١٩).

(٣) نفس المصدر السابق.



## ٣- هذا والله صاحب قريش:

- من أين لك هذا يا أمَّ مَعْبَدٍ؟!

عاد أبو مَعْبَدٍ في آخر النهار يسوق أعْزًا عَجَافًا هُزَالِي، لا تكاد الواحدة منها تستوي على قَدَمِهَا من الجوع والجهد، كانت سَنَةٌ شَهْبَاءٌ؛ انقطع فيها المطر، وقلَّ فيها العُشْبُ والزرع، حتى أشفق أبو مَعْبَدٍ على إحدى الشياهِ، وكانت هزيلةً عزباء، لم تقوَ على المضيِّ معه؛ فتركها في كَسْرِ الخَيْمَةِ، وذهب يسوق أمامه عَزْرًا عَجَافًا يتساوكن<sup>(١)</sup> هُزَالًا!!

وحين وصل مؤلف هذا الكتاب الذي بين يديك إلى هذا الموضع من كتابة سيرة الحبيب المصطفى، خاتم النبيين وسيّد الأولين والآخرين ﷺ توفاه الله إلى رحمته، واختاره إلى جواره، ولم يبقَ من إتمام كتابة العهد المكيِّ مع الهجرة غير سطور بعد أن كان أوقف سنين عدَّةً من حياته لإنجاز ذلك<sup>(٢)</sup>!

(١) يتساوكن: أي يتمايلن من الضعف والهزال.

(٢) وكانت وفاته ﷺ بعد صلاة الجمعة من اليوم السادس والعشرين من شهر شعبان سنة ١٤١٠هـ، الموافق ٢٣/٣/١٩٩٠ ميلادية، وحضر تشييع جنازته خلق كثير ممن يعرفون دينه وفضله؛ فقد كان ﷺ من الأتقياء الأخفياء، والمرتبين الفضلاء، ومن الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس، مقيمًا على العهد، صادق الوعد، كثير الصمت، قليل الكلام؛ لا يتكلم إلا إذا ترجّحت له مصلحة الكلام، زاهدًا في الدنيا، عازفًا عنها، راغبًا في الآخرة، معلقًا قلبه بها، كثير التلاوة للقرآن، مجتهدًا في العبادة، كثير الدعاء، مسارعًا إلى الطاعات، وفاقًا عن الشبهات، أمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، له تأليف كثيرة في ميدان القصة الإسلامية؛ منها: "حديث الشيخ"، و"جبل التوبة"، و"فتاة الجزيرة"، و"زيد بن ثابت" . . . وكثير غيرها.

وقد سماها جميعًا باسم: داود سليمان العبيدي، فلا ينسبها إلى نفسه =

وقد ارتأينا أن ندع لابن كثير - صاحب السيرة والتفسير - أن يتم لنا السطور الباقيات<sup>(١)</sup>:

أورد البيهقي<sup>(٢)</sup> بسنده عن أبي مَعْبَد الخزاعي أن رسول الله ﷺ خرج حين هاجر من مكة إلى المدينة هو، وأبو بكر، وعامر بن فهيرة؛ مولى أبي بكر، ودليلهم: عبد الله بن أريقط الليثي، فمروا بخيمة أم مَعْبَد الخزاعية، فسألوها؛ هل عندها لحم أو لبن يشترونه منها؟ فلم يجدوا عندها شيئاً من ذلك.

قالت:

- لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القرى!

وإذا القومُ مُرْمِلون<sup>(٣)</sup> مُسْتَتون<sup>(٤)</sup>.

فنظر رسول الله ﷺ فإذا شاةٌ في كِسْر<sup>(٥)</sup> خَيْمَتِهَا، فقال:

= لأنه كان لا يحب الظهور والشهرة، أو لسبب آخر.. وقد دفن في مقبرة الكرخ، قريباً من مدينة بغداد، رحمه الله تعالى برحمته الواسعة.

(١) مع شيء يسير من التقديم والتأخير، وتنظيم المعلومات، واختيار العناوين بما يتناسب مع ما سبق من منهج المؤلف رحمه الله، وقد قام بذلك الفقير إلى عفو ربه ومغفرته: الدكتور منير حميد البياتي، أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية العلوم الإسلامية في جامعة بغداد، وقد تضمن ذلك - فيما تضمن - ذكر تتمات ضرورية تمثل آخر سيرته ﷺ في طريق الهجرة وبداية وصوله المدينة، واستقباله فيها ونزوله عند أبي أيوب الأنصاري، وإن كان بعضها يعد تابعاً لأول العهد المدني كبنائه المسجد النبوي الشريف.

(٢) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٧٧).

(٣) مرمِلون: رفاق.

(٤) مستتون: مصابون بالجذب والقحط.

(٥) كِسْر الخيمة: جانبها.

- ما هذه الشاة يا أمَّ مَعْبِد؟

قالت:

- شاة خَلَّفها الجَهد عن الغنم.

قال:

- فهل بها من لبنٍ؟

قالت:

- هي أجهد من ذلك.

قال:

- تأذنين لي أن أحلبها؟

قالت:

- إن كان بها حلب فاحلبها!!

فدعا رسول الله ﷺ الشاة فمسحها، وذكر اسم الله، ومسح  
ضَرَعها، وذكر اسم الله، ودعا بإناء لها يُرْبِض الرَّهْط<sup>(١)</sup>، فتفاجَّت<sup>(٢)</sup>  
واجترَّت، فحلب فيه ثَجًّا حتى مَلأه، فسقاها وسقى أصحابه، فشربوا  
عَلَلًا بعد نَهْل، حتى إذا رَووا شرب آخرهم، وقال:

- ساقى القوم آخرهم.

ثم حلب فيه ثانيًا عودًا مع بدء، فغادره عندها، ثم ارتحلوا.

(١) يُرْبِض الرَّهْط: يُشْبِعهم حتى يُرْبِضوا.

(٢) تفاجَّت: فرجت ما بين رجليها.

قال:

- فقلّ ما لبث أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزًا عجافًا، يتساوكن<sup>(١)</sup> هُزالًا، فلما رأى اللبن عجب! وقال:

- من أين هذا اللبن يا أمّ معبد، ولا حلوبة في البيت، والشاء عازب؟!

فقالت:

- لا والله، إنه مرّ بنا رجلٌ مبارك؛ كان من حديثه كيت، وكيت..

فقال:

- صفيه لي فوالله إنني لأراه صاحبَ قريش الذي تطلب.

فقالت:

- رأيت رجلًا ظاهرَ الوضاعة، حسنَ الخلق، مليحَ الوجه، قسيمٌ وسيمٌ، في عينيه دَعَجٌ، وفي أشفاره وَطْفٌ<sup>(٢)</sup>، إذا صمتَ فعليه الوقار، وإذا تكلمَ سَمًا وعلاه البهاء، حلوَ المنطق، فُضْلٌ لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ، كأنَّ منطقه خرزاتٌ نظمَ يَنحَدِرُن، أبهى النَّاسِ وأجمله من بعيد، وأحسنه من قريب، رُبْعَةٌ؛ لا تَشْنُوهُ عَيْنٌ من طول، ولا تفتحمه عينٌ من قصر، غُصْنٌ بينَ غُصْنَيْنِ، فهو أنصر الثلاثة منظرًا، وأحسنهم قَدًّا، له رُفقاء يحفون به؛ إن قال استمعوا لقوله، وإن أمر تبادروا لأمره..

فقال بعُلها:

(١) يتساوكن: يتمايلن.

(٢) وَطْفٌ: طُولٌ.

- هذا والله صاحب قريش الذي تطلب، ولو صادفته لالتمست أن  
أصعبه، ولأجهدنَّ إن وجدتُ إلى ذلك سبيلاً!  
قال البيهقي:

- فأصبح صوتُ بمكَّةَ عالٍ بين السماء والأرض، يسمعه ولا  
يروون من يقول، وهو يقول:

جَزَى اللهُ رَبَّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ  
رَفِيقَيْنِ حَلًّا خَيْمَتِي أُمَّ مَعْبَدِ  
هُمَا نَزَلَا بِالْبِرِّ وَارْتَحَلَا بِهِ  
فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ  
فِيَا لَقْصِيٍّ مَا زَوَى اللهُ عَنْكُمْ  
بِهِ مِنْ فِعَالٍ لَا تُجَازَى وَسُوْدِدِ  
سَلُّوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا  
فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسَأَلُوا الشَّاءَ تَشْهَدِ  
دَعَاها بِشَاءِ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ  
لَهُ بِصَرِيحٍ، صَرَّةُ الشَّاءِ (١) مُزِيدِ  
فَعَادَرَهُ رَهْنًا لَدَيْهَا لِحَالِ  
يَدِرُّ لَهَا فِي مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ

قال:

(١) الضرة: أصل الفرع.

- وأصبح الناس - يعني: بمكة - وقد فقدوا نبيهم، فأخذوا على خيمتي أم معبد حتى لحقوا برسول الله ﷺ.  
قال:

- وأجابه حسان بن ثابت:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ زَالَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ  
وَقَدْ سُرَّ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِمْ وَيَغْتَدِي  
تَرَحَّلَ عَن قَوْمٍ فزَالَتْ عُقُولُهُمْ  
وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدِّدٍ  
وَهَلْ يَسْتَوِي ضَلَالٌ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا  
عَمَى، وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدٍ  
نَبِيٌّ يَرَى مَا لَا يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ  
وَيَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ  
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةٌ غَائِبٍ  
فَتَصْدِيقُهَا فِي الْيَوْمِ أَوْ فِي ضُحَى الْغَدِ  
لِيَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةٌ جَدِّهِ  
بِضُحْبَتِهِ، مَنْ يُسْعِدِ اللَّهُ يَسْعَدِ

قال - يعني: عبد الله بن وهب - في رواية البيهقي:

- فبلغني أن أبا معبد أسلم وهاجر إلى النبي ﷺ.



(١٣)

ظَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ  
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعُ



## ١- الله أكبر! جاء رسول الله:

قال محمد بن إسحاق<sup>(١)</sup> بسنده: عن رجال من أصحاب النبي ﷺ

قالوا:

- لما بلغنا مخرج النبي ﷺ من مكة وتوَكَّفنا<sup>(٢)</sup> فُدومه كُنَّا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر النبي ﷺ؛ فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال، فإذا لم نجد ظلًّا دخلنا، وذلك في أيام حارة.

حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ جلسنا كما كنا نجلس، حتى إذا لم يبق ظلٌّ دخلنا بيوتنا، وقدم رسول الله ﷺ حين دخلنا البيوت، فكان أول من رآه رجل من اليهود، فصرخ بأعلى صوته:

- يا بني قيلة هذا جدُّكم قد جاء!

فخرجنا إلى رسول الله ﷺ، وهو في ظلِّ نخلة، ومعه أبو بكر في مثل سنِّه، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله ﷺ قبل ذلك، وركبه النَّاس، وما يعرفونه من أبي بكر، حتى زال الظلُّ عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظله؛ فعرفناه عند ذلك.

وفي "الصحيحين" بسندهما عن أبي بكر رضي الله عنه في حديث الهجرة؛ قال<sup>(٣)</sup>:

- وخرج النَّاس حين قدمنا المدينة في الطرق وعلى البيوت،

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٨١).

(٢) توَكَّفنا: انتظرنا.

(٣) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٨٢).

والغلمان والخدم يقولون:

- الله أكبر! جاء رسول الله!

الله أكبر! جاء محمد!

الله أكبر! جاء محمد!

الله أكبر! جاء رسول الله!

فلما أصبح انطلق، وذهب حيث أمر.

قال الإمام أحمد بسنده: عن أنس بن مالك قال<sup>(١)</sup>:

- إنني لأسعى في الغلمان يقولون:

- جاء محمد!

فأسعى ولا أرى شيئاً، ثم يقولون:

- جاء محمد!

فأسعى ولا أرى شيئاً، حتى جاء رسول الله ﷺ وصاحبه أبو بكر، فاستقبلهما زهاء خمسمئة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما، فقالت الأنصار:

- انطلقا آمنين مطاعين!

فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، فخرج أهل المدينة، حتى إن العواتق<sup>(٢)</sup> لفوق البيوت يتراءينه، يقلن:

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (٣٨١، ٣٨٢).

(٢) العواتق: النساء الحرّات الشريفات.

- أيُّهم هو؟ أيُّهم هو؟ فما رأينا منظرًا شبيهاً به.

قال أنس:

- فلقد رأيتُه يوم دخل علينا ويوم قبض، فلم أرَ يومين شبيهاً

بهما!

وأورد البيهقي<sup>(١)</sup> بسنده:

لما قدِم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان يقلن:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لِلَّهِ دَاغٌ

قال محمَّد بن إسحاق<sup>(٢)</sup>:

- فنزل رسول الله ﷺ فيما يذكرون - يعني: حين نزل بقاء -

على كلثوم بن الهدم؛ أخي بني عمرو بن عوف، ثم أحد بني عبيد.

ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة.

ونزل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على خبيب بن إساف؛ أحد بني الحارث بن

الخزرج.

وأقام علي بن أبي طالب بمكة ثلاث ليالٍ وأيامها حتى أدَّى عن

رسول الله ﷺ الوداع التي كانت عنده، ثم لحق برسول الله ﷺ، فنزل

معه على كلثوم بن الهدم.

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٨٢).

(٢) المرجع السابق (١/٣٨٢).

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>:

- وذكر البخاري بسنده أنه نزل في بني عمرو بن عوف بقُباء، وأقام فيهم بضع عشرة ليلة، وأسس مسجد قُباء في تلك الأيام، ثم ركب ومعه النَّاس حتى بَرَكَتْ به راحلته في مكان مسجده - يعني: المسجد النبوي - وذلك في دار بني مالك بن النَجَّار رضي الله عنه.

وقال البيهقي<sup>(٢)</sup> بسنده: عن عبد الله بن الزبير قال:

- وقد كان في المدينة دُور كثيرة تبلغ تسعاً؛ كل دار مَحَلَّة مستقلَّة، بمساكنها ونخيلها وزروعها وأهلها، كلُّ قبيلة من قبائلهم قد اجتمعوا في مَحَلَّتْهم، وهي كالقرى المتلاصقة، فاختار الله لرسوله بعد مُكثه في قُباء بضع عشرة ليلة دارَ بني مالك بن النَجَّار.

## ٢- حَدَثٌ فِي قُبَاء:

أورد محمد بن إسحاق بسنده:

كان من حديث عبد الله بن سَلام<sup>(٣)</sup> حين أسلم قال:

- لَمَّا سمعت برسول الله ﷺ وعرفت صفته واسمه، وهيئته وزمانه الذي كُنَّا نَتَوَكَّفُ<sup>(٤)</sup> له، فكنت بقُباء مُسِيراً بذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلَمَّا نزل بقُباء في بني عمرو بن عَوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدمه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمَّتي

(١) المرجع السابق (١/٣٨١).

(٢) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٨٨).

(٣) كان جبراً عالمًا.

(٤) نتوَّكف: نتنظر، أو نتعرض له حتى نلقاه.

خالدة بنت الحارث تحتي جالسة، فلما سمعتُ الخبر بقدم رسول الله ﷺ كبرْتُ، فقالت عمّتي حين سمعتُ تكبيرِي:

- لو كنت سمعتُ بموسى بن عمران ما زدتُ!

قال:

- قلت لها:

- إي عمّة؟ والله هو أخو موسى بن عمران، وعلى دينه بُعث بما بُعث به!

قال:

- فقالت له:

- يا ابن أخي، أهو الذي كُنّا نُخبر أنّه يُبعث مع نفس الساعة؟

قلت لها:

- نعم.

قالت:

- فذاك إذًا.

قال:

- فخرجتُ إلى رسول الله ﷺ فأسلمتُ، ثمّ رجعتُ إلى أهل بيتي

فأمرتهم فأسلموا، وكنتمُ إسلامي من اليهود.

وقلت:

- يا رسول الله، إن اليهود قومٌ بُهتٌ؛ وإنِّي أحبُّ أن تُدخلني في بعض بيوتك، فتُغيِّبني عنهم، ثمَّ تسألهم عني، فيخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي؛ فإنَّهم إنَّ يعلموا بذلك بهتوني وعابوني<sup>(١)</sup>!

وفي سياق البخاري: عن أنس قال:

- فلما جاء النبي ﷺ جاء عبد الله بن سلام، فقال:

- أشهد أنَّك رسول الله، وأنَّك جئتَ بحقٍّ، وقد علمتَ يهود أنِّي سيِّدهم وابن سيِّدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فسألهم عني قبل أن يعلموا أنِّي قد أسلمتُ؛ فإنَّهم إنَّ يعلموا أنِّي قد أسلمتُ قالوا فيَّ ما ليس فيَّ!

فأرسل نبي الله إلى اليهود فدخلوا عليه، فقال لهم:

- يا معشر اليهود، ويلكم! اتقوا الله؛ فوالله الذي لا إله إلا هو إنَّكم لتعلمون أنِّي رسول الله حقًّا، وإنِّي جئتكم بحقٍّ فأسلموا!

قالوا:

- ما نعلمه..

قال:

- فأبي رجل فيكم عبد الله بن سلام؟

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٩٦، ٣٩٧)، وقال ابن كثير: «ومقتضى هذا السياق أنه سمع بالنبي ﷺ أو قدومه حين أناخ بقباء في بني عمرو بن عوف، وتقدَّم في رواية عبد العزيز بن صهيب عن أنس أنه اجتمع به - بعدئذ - حين أناخ عند دار أبي أيوب عند ارتحاله عن قُباء إلى دار بني النجَّار، والله أعلم» انظر: "السيرة النبوية" (١/٣٩٥).

قالوا:

- ذاك سيِّدنا وابن سيِّدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا.

قال:

- أفرايتم إن أسلم؟

قالوا:

- حاش لله ما كان ليُسلم!

قال:

- يا ابن سَلام اخرج عليهم.

فخرج، فقال:

- يا معشر يهود، اتَّقوا الله؛ فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم

لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بالحق!

فقالوا:

- كذبت!

فأخرجهم رسول الله ﷺ<sup>(١)</sup>.

### ٣- خطبة الجمعة الأولى على لسان البشير النذير:

ولما ارتحل ﷺ من قُباء، وهو راكب ناقته القصواء؛ وذلك يوم

الجمعة أدركه وقتُ الزوال في دار بني سالم بن عوف؛ فصلَّى بالمدينة

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٩٥، ٣٩٦).

الجمعة هنالك في واد يقال له: وادي رانواناء<sup>(١)</sup>.

فكانت أول جمعة صلاها رسول الله ﷺ بالمدينة، أو مطلقاً لأنه - والله أعلم - لم يكن يتمكن هو وأصحابه بمكة من الاجتماع حتى يقيموا بها جمعة ذات خطبة وإعلان بموعظة، وما ذاك إلا لشدة مخالفة المشركين له وأذيتهم إياه<sup>(٢)</sup>.

أورد ابن جرير بسنده عن خطبة النبي ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عمرو بن عوف رضي الله عنه:

- الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأستغفره وأستهديه، وأومن به ولا أكفره، وأعادى من يكفره.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلّة من العلم، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل.

من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى وفرط، وضلّ ضلالاً بعيداً.

أوصيكم بتقوى الله؛ فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة، وأن يأمره بتقوى الله، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه، ولا أفضل من ذلك نصيحة، ولا أفضل من ذلك ذكرى، وإنه تقوى لمن عمل به على وجل ومخافة، وعاون صدق على ما تبتغون

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٩٨).

(٢) نفس المصدر السابق.



من أمر الآخرة.

ومن يُصلح الذي بينه وبين الله من أمر السرِّ والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجهَ الله، يكن له ذكراً في عاجل أمره، وذُخراً فيما بعد الموت؛ حين يفتقر المرءُ إلى ما قدّم، وما كان من سوى ذلك يودُّ لو أنّ بينه وبينه أمداً بعيداً، ويحذركم الله نفسه، والله رؤوف بالعباد.

والذي صدق قوله، وأنجز وعده، لا خُلف لذلك، فإنّه يقول تعالى: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿٢٩﴾ [ق: ٢٩].

واتقوا الله في عاجل أمركم وآجله، في السرِّ والعلانية فإنّه ﴿وَمَنْ يَبْغِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظَمُ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥] ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، وإن تقوى الله تُوقِّي مقته، وتوقِّي عقوبته، وتوقِّي سخطه.

وإن تقوى الله تبيّض الوجه، وتُرضي الربَّ، وترفع الدرجة.

خذوا بحظّكم ولا تفرطوا في جنب الله، قد علّمكم الله كتابه، ونهَجَ لكم سبيله؛ ليعلم الذين صدقوا، ويعلم الكاذبين، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، هو اجتباكم وسَمَّاكم المسلمين؛ ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيٍّ عن بينة، ولا قوّة إلا بالله.

فأكثرُوا ذكر الله، واعملوا لما بعد الموت، فإنّه من أصلح ما بينه وبين الله يكفّه ما بينه وبين النَّاسِ؛ ذلك بأنَّ الله يقضي على النَّاسِ ولا يقضون عليه، ويملك من النَّاسِ ولا يملكون منه.

الله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم<sup>(١)</sup>.

#### ٤- خَلُّوا سَبِيلَهَا؛ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ:

قال موسى بن عقبة:

- وكانت الأنصار قد اجتمعوا قبل أن يركب رسول الله ﷺ من بني عمرو بن عوف، فمشوا حول ناقته، لا يزال أحدهم ينازع صاحبه زمام الناقة؛ شحاً من كرامة رسول الله ﷺ وتعظيماً له، وكلما مرَّ بدار من دور الأنصار دَعَّوه إلى المنزل<sup>(٢)</sup>.

قال ابن إسحاق<sup>(٣)</sup>:

- فأدركت رسول الله ﷺ الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاًها في المسجد الذي في بطن الوادي؛ وادي رانوءاء، فأتاه عتبان ابن مالك، وعبَّاس بن عُبادة في رجالٍ من بني سالم، وهو على ناقته القصواء، فقالوا:

- يا رسول الله، أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة.

قال:

- خَلُّوا سَبِيلَهَا؛ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ؛ لِنَاقَتِهِ.

فخَلُّوا سَبِيلَهَا.. فانطلقت..

حتى إذا وازت دار بني بياضة تلقاه زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٩٨، ٣٩٩).

(٢) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٨٤).

(٣) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٨٤).

في رجال من بني بياضة، فقالوا:

- يا رسول الله، هَلُمَّ إلينا إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ.

قال:

- خَلُّوا سبيلها؛ فَإِنَّها مأمورة.

فخَلُّوا سبيلها.. فانطلقت، حتى إذا مرَّت بدار بني ساعدة اعترضه

سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو في رجال من بني ساعدة، فقالوا:

- يا رسول الله، هَلُمَّ إلينا في العَدَدِ والمَنَعَةِ.

قال:

- خَلُّوا سبيلها؛ فَإِنَّها مأمورة.

فخَلُّوا سبيلها.. فانطلقت..

حتى إذا وازت دار بني الحارث بن الخزرج اعترضه سعد بن

الربيع، وخارجة بن زيد، وعبد الله بن رواحة في رجال من بني

الحارث بن الخزرج، فقالوا:

- يا رسول الله، هَلُمَّ إلينا، إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ.

قال:

- خَلُّوا سبيلها؛ فَإِنَّها مأمورة.

فخَلُّوا سبيلها.. فانطلقت..

حتى إذا مرَّت بدار عدي بن النجار - وهم أخواله دُنِيًّا؛ أمُّ عبد

المطلب: سلمى بنت عمرو = إحدى نسائهم - اعترضه سُلَيْط بن

قيس، وأبو سُلَيْطٍ؛ أُسَيْرَةُ بن أبي خَارِجَةَ في رجال من بني عَدِي بن النَجَّار، فقالوا:

- يا رسول الله، هَلَمْ إلى أخوالك؛ إلى العَدَدِ والعُدَّةِ والمَنَعَةِ.

قال:

- خَلُّوا سَبِيلَهَا؛ فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

فخَلُّوا سَبِيلَهَا.. فانطلقت..

حتى إذا أتت دارَ بني مالك بن النَجَّارِ بركت على باب مسجده ﷺ اليوم، وكان يومئذ مَرَبِدًا لِعُلامين يَتِيمين من بني مالك بن النَجَّارِ؛ وهما: سهل وسهيل ابنا عمرو، وكانا في حَجَرِ مُعَاذِ بن عَفْرَاءِ.

قال ابن إسحاق<sup>(١)</sup>:

- لما بركت النَّاقَةُ برسول الله ﷺ لم ينزل عنها حتى وَثَبَتْ فسارت غيرَ بعيد، ورسول الله ﷺ واضعٌ لها زمامها لا يثنيها به.

ثم التفتت خلفًا، فرجعت إلى مَبْرِكِهَا أولَ مرَّةٍ، فبركت فيه، ثم تَحَلَّحَلَتْ ورزمت، ووضعت جِرائها، فنزل عنها رسول الله ﷺ.

فاحتمل أبو أيوب؛ خالد بن زيد رحلَهُ، فوضعه في بيته، ونزل عليه رسول الله ﷺ، وسأل عن المَرَبِدِ:

- لمن هو؟

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٨٤).

فقال له معاذ بن عفراء:

- هو يا رسول الله لسهل وسُهَيْل ابني عمرو؛ وهما يتيمان لي،  
وسأرضيهما فيه، فاتَّخِذْهُمَا مَسْجِدًا.

فأمر به رسول الله ﷺ أن يُبْنَى مَسْجِدًا.

ونزل رسول الله ﷺ في دار أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه،  
فعمل فيه رسول الله ﷺ والمسلمون من المهاجرين والأنصار<sup>(١)</sup>.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>:

وقد تقدّم في "صحيح البخاري" عن الزهري، عن عروة أنّ  
المسجد الذي كان مَرَبِدًا - وهو: بَيْدَر التمر - ليتيمين كانا في حَجْر  
أسعد بن زُرارة، وهما: سهل وسُهَيْل، فساومهما فيه رسول الله ﷺ  
فقالا:

- بل نهبه لك يا رسول الله!

فأبى حتى ابتاعه منهما وبناه مسجدًا.

قال ابن إسحاق<sup>(٣)</sup> بسنده: عن أبي أيوب قال:

- لما نزل رسول الله ﷺ في بيتي نزل في السُّفْل، وأنا وأمُّ أيوب  
في العُلُو، فقُلت له:

- بأبي أنت وأمي يا رسول الله! إني أكره وأُعظم أن أكون فوقك

(١) المرجع السابق بنفس الموضع.

(٢) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٤٠٠).

(٣) المرجع السابق (١/٣٨٦).

وتكون تحتي؛ فإظهر أنت فكُن في العُلُو، وننزل نحن فنكون في السُّفْل!

فقال:

- يا أبا أيُّوب، إنَّ أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في سُفْل البيت.

قال:

- فكان رسول الله ﷺ في سُفْلِهِ وكُنَّا فوقه في المسكن، فلقد انكسر حُبُّ [أي: جَرَّة] لنا فيه ماء، فقُمت وأنا وأمُّ أيُّوب بقطيفة لنا؛ ما لنا لحافٌ غيرها، ننشِفُ الماء تخوُّفًا أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء فيؤذيه.

وكنا نضع له العشاء، ثم نبعث إليه، فإذا ردَّ علينا فضلةً تيممْتُ أنا وأمُّ أيُّوب موضعَ يده، فأكلنا نبتغي بذلك البركة..  
وروي عن زيد بن ثابت أنه قال<sup>(١)</sup>:

- وما كان من ليلةٍ إلا وعلى باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة، يحملون الطعام يتناوبون، وكان مقامه في دار أبي أيُّوب سبعة أشهر، قال:

- وبعث رسول الله ﷺ وهو نازل في دار أبي أيُّوب مولاه زيد ابن حارثة، وأبا رافع، ومعهما بعيان وخمسمئة درهم؛ ليجيئا بفاطمة، وأمِّ كلثوم ابنتي رسول الله ﷺ، وسودة بنت زَمعة زوجته،

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٨٧).

وأسامة بن زيد، وكانت رُقِيَّة قد هاجرت مع زوجها عثمان، وزينب عند زوجها بمكَّة؛ أبي العاص بن الربيع، وجاءت معهم أمُّ أيمن؛ امرأة: زيد بن حارثة، وخرج معهم عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر، وفيهم عائشة أم المؤمنين ولم يدخل بها رسول الله ﷺ.

وقال السَّهيلي في "الروض" (١):

فجاؤوا ببنتي النبي ﷺ؛ فاطمة، وأمّ كلثوم، وزوجتيه؛ سودة، وعائشة، وأمها أم رومان، وأهل النبي، وآل أبي بكر، صحبة عبد الله ابن أبي بكر، وقد شرد بعائشة وأمها أم رومان الجمل في أثناء الطريق، فجعلت أم رومان تقول:

- واعروساه! وابنتاه!

قالت عائشة:

- فسمعت قائلاً يقول:

- أرسلني خطامه.

فأرسلت خطامه، فوقف بإذن الله، وسلّمنا الله ﷺ.

فتقدّموا فنزلوا بالسُّنح، ثم دخل رسول الله ﷺ بعائشة في سؤال بعد ثمانية أشهر.

قال ابن كثير (٢):

- قد ثبت لجميع من أسلم من أهل المدينة - وهم الأنصار -

(١) المرجع السابق (١ / ٤٠٦).

(٢) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١ / ٣٨٨).

الشرف والرِّفعة في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْقَوْمِ الْمُبْتَدِئِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر: ٩].

وقد شرفت المدينة أيضًا بهجرته ﷺ، وصارت كهفًا لأولياء الله وعباده الصالحين، معقلًا وحصنًا منيعًا للمسلمين، ودار هدى للعالمين، والأحاديث في فضلها كثيرة جدًا<sup>(١)</sup>.

##### ٥- بناء المسجد، وحنين الجذع للنبي ﷺ:

قال ابن إسحاق<sup>(٢)</sup>:

- ونزل رسول الله ﷺ على أبي أيوب حتى بنى مسجده ومساكنه، وعمل فيه رسول الله ﷺ ليرغب المسلمين في العمل، فعمل فيه المهاجرون والأنصار، ودأبوا فيه، فقال قائل من المسلمين:

لَعِنَ قَعَدْنَا وَالنَّبِيَّ يَعْمَلُ  
لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٣٩٠).

(٢) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٤٠٢).



وارتجز المسلمون وهم بينونه، يقولون:

لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ

اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

فيقول رسول الله ﷺ:

لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ

اللَّهُمَّ ارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ

قال أبو داود<sup>(١)</sup> بسنده:

- إنَّ المسجد كان على عهد رسول الله ﷺ مبنياً باللبن، وسقفه  
الجريد، وعمُده خشب النخل.

قال ابن كثير<sup>(٢)</sup>:

- وبُنِيَ لرسول الله ﷺ حول مسجده الشريف حُجْر؛ لتكون  
مساكن له ولأهله، وكانت مساكن قصيرة البناء، قريبة الفناء.

وفي "الصحيحين" بسندهما: عن أبي هريرة قال:

قال رسول الله ﷺ:

- ما بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ.

والأحاديث في فضل هذا المسجد الشريف كثيرة جداً<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن كثير: "السيرة النبوية" (١/٤٠١).

(٢) المرجع السابق (١/٤٠٦).

(٣) المرجع السابق (١/٤٠٥).

ولم يكن في مسجد النبي ﷺ أول ما بُني منبر يخطب عليه؛ بل كان النبي يخطب وهو مستندٌ إلى جذعٍ عند مصلاه في الحائط القبلي، فلما أخذ له ﷺ المنبر، وعدل إليه ليخطب عليه، فلما جاوز ذلك الجذع خارَ وحنَّ حنينَ النوق العِشار؛ لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ عنده، فرجع إليه النبي ﷺ واحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يسكت.

قال ابن كثير<sup>(١)</sup>:

وما أحسنَ ما قال الحسن البصريُّ بعدما روى هذا الحديث عن أنس بن مالك:

- يا معشر المسلمين: الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه، أوليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحقُّ أن يشتاقوا إليه؟!!

اللهم صلِّ على سيِّدنا محمد، عبدك ونبيك النبي الأمي، وعلى آله وسلِّم تسليمًا كثيرًا؛ عددَ خلقك، ورضا نفسك، وزنة عرشك، ومداد كلماتك.

وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، وعن التابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلامٌ على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.



## المحتويات

تقديم ..... ٥

نسبه ﷺ ..... ٩

### حَدَّثَ فِي الْمَرعى

ماذا حدث؟! ..... ١٣

ركب المرضعات ..... ١٥

الشارف والأتان ..... ٢٠

هموم المرضعة ..... ٢٢

قُتِلَ مُحَمَّدٌ ..... ٢٤

عودة إلى مكة ..... ٢٧

### من يُعيد الحجرَ إلى مكانه؟

إلى يثرب ..... ٣٣

مع أبي طالب ..... ٣٤

هذه القصة ..... ٣٧

النذير ..... ٤٢

حرب الفجار ..... ٤٢

حلف الفضول ..... ٤٤

نفيسة ..... ٥٠

خديجة ..... ٥٣

الاختبار ..... ٥٥

نداء الفطرة ..... ٥٨

٦٢ ..... من يعيد الحجر إلى مكانه؟

### ماذا قال الحجر والشجر؟

٦٩ ..... في بيت أبي طالب

٧٠ ..... صفاء وضياء

٧٦ ..... ثم فتر الوحي

٧٧ ..... استجابة الشباب

٨٢ ..... مفتاح دار السعادة

٨٥ ..... القرآن يرّبي

٨٨ ..... في دار الأرقم

٩٢ ..... قيام الليل

### ما جرّبنا عليك كذبًا

٩٧ ..... إنك رسول الله حقًا

١٠٠ ..... ما جرّبنا عليك كذبًا

١٠٢ ..... القريب البعيد

١٠٤ ..... حمالة الحطب

١٠٦ ..... قادم من حضرموت

١٠٩ ..... القائد المغرور

١١٢ ..... أجهل الناس

١١٣ ..... القوي الأمين

١١٦ ..... القبيح التعيس

١١٨ ..... أفضل الدين

١٢٢ ..... أساطين الكفر

١٢٤ ..... يا صباحاه

### لقاء في السَّحَر

١٢٩ ..... اللهم لا ترفعه

١٣٢ ..... الفئمة الرابعة

١٣٣ ..... ضُباعة بنت الزبير

١٣٥ ..... لقاء بعد السحر

١٣٨ ..... ملكتم العرب

١٤١ ..... أتشتمه وأنا على دينه؟

١٤٤ ..... إنك لعلی خلق عظیم

١٤٦ ..... عتاب ودرس

١٤٨ ..... مفاصلة

١٥٠ ..... دين الأنبياء

١٥٢ ..... التاجر

١٥٤ ..... الصاعقة

### ملك لا يُظلم عنده أحد

١٦١ ..... فخذ لي حقي منه

١٦٥ ..... تنزيل من رب العالمين

١٦٨ ..... ارجعوا راشدين

١٦٩ ..... قادم من غفار

١٧٥ ..... ظهر على الجمر

١٧٨ ..... قلب مطمئن بالإيمان

١٨٠ ..... أحد أحد

- ١٨١ ..... يتحدى بالقرآن  
 ١٨٤ ..... إلى الحبشة  
 ١٨٧ ..... قتلناه بسيفه  
 ١٩٥ ..... يصلي عند الكعبة  
 ١٩٧ ..... الوفد المبارك

### الصحيفة الظالمة

- ٢٠٣ ..... الشمس والقمر  
 ٢٠٤ ..... أنتم لها واردون  
 ٢٠٧ ..... هل كنت إلا بشراً رسولاً؟  
 ٢١٢ ..... التوبة والرحمة  
 ٢١٤ ..... اقتربت الساعة  
 ٢١٧ ..... ونمكّن لهم في الأرض  
 ٢٢٠ ..... المفاوضة قبل الأخيرة  
 ٢٢٢ ..... صحيفة العدوان  
 ٢٢٣ ..... عائدون من الحبشة  
 ٢٢٤ ..... سأصليه سقر  
 ٢٢٨ ..... في الموسم  
 ٢٣٠ ..... خدعة تجارية

### غُلبت الروم

- ٢٣٥ ..... لا أستجير بغير الله  
 ٢٣٨ ..... الهجرة الثانية  
 ٢٣٩ ..... على أبواب القسطنطينية

- ٢٤٢ ..... نسي خلقه
- ٢٤٤ ..... ثبات المؤمنين
- ٢٤٦ ..... لسان عربي مبين
- ٢٤٩ ..... قاموس البحر
- ٢٥١ ..... الاستعانة باليهود
- ٢٥٣ ..... دليل جديد
- ٢٥٨ ..... قصة للحياة
- ٢٦١ ..... قل هذه سييلي
- ٢٦٤ ..... خمسة رجال

### بماذا أمرَ مَلِكُ الجبال

- ٢٦٩ ..... الخبر اليقين
- ٢٧٢ ..... صرخة احتجاج
- ٢٧٥ ..... تمزيق الصحيفة
- ٢٧٧ ..... المفاوضة الأخيرة
- ٢٨٠ ..... اذهب فوارِ أباك
- ٢٨٣ ..... عام الحزن
- ٢٨٥ ..... هذه امرأتك
- ٢٩٠ ..... فجئتكم بالذبح
- ٢٩٤ ..... ويوم يعرض الظالم على يديه!
- ٢٩٦ ..... المستهزون السبعة
- ٢٩٧ ..... سفهاء الطائف
- ٣٠٣ ..... حريص عليكم

### الحدث العظيم

- ٣٠٩ ..... في جوار رجل كافر
- ٣١١ ..... العصا المضيئة
- ٣١٦ ..... شق الصدر مرة ثانية
- ٣١٧ ..... لقد رأى من آيات ربه الكبرى
- ٣٢٢ ..... ما زاغ البصر وما طغى
- ٣٢٣ ..... إن قال ذلك فلقد صدق
- ٣٢٧ ..... أفتمارونه على ما يرى
- ٣٢٩ ..... بشائر النصر
- ٣٣٢ ..... أكله الكلب
- ٣٣٥ ..... أرضى بجوار الله عز وجل
- ٣٣٨ ..... قولوا لا إله إلا الله تفلحوا

### لقاء غير مجرى التاريخ

- ٣٤٣ ..... وفد من العراق
- ٣٤٨ ..... لقاء غير مجرى التاريخ
- ٣٥١ ..... لماذا خرج من أرض الخمر والخمير؟
- ٣٥٤ ..... لقاء ربيعة
- ٣٥٦ ..... مصعب بن عمير السفير الأول
- ٣٦٠ ..... بيعة الحرب
- ٣٦٥ ..... الأنصار
- ٣٦٦ ..... التاج المهزوز
- ٣٦٩ ..... المهاجرة الأولى



- ٣٧٣ ..... منطق القوة  
 ٣٧٤ ..... قد والله خرج عليكم محمد  
 ٣٧٩ ..... ذات النطاقين

### خيمة على الطريق

- ٣٨٥ ..... لا تحزن إن الله معنا  
 ٣٨٨ ..... وعدٌ غير مكذوب  
 ٣٩١ ..... هذا والله صاحب قریش

### طلع البدر

- ٣٩٩ ..... الله أكبر جاء رسول الله ﷺ  
 ٤٠٢ ..... حدث في قُباء  
 ٤٠٥ ..... خطبة الجمعة الأولى على لسان البشير النذير  
 ٤٠٨ ..... خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة!  
 ٤١٤ ..... بناء المسجد وحنين الجذع للنبي ﷺ  
 ٤١٧ ..... المحتويات



رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com

[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)



## قصة النبوة

يمتاز هذا الكتاب بعرض قصصي مشوق للسيرة النبوية الشريفة، يقدم المعاني العالية العظيمة بأسلوب سهل ممتع، وجميل محبب، وعبارات رشيقة خالية من التعقيد، وهو أسلوب تميّز به الكاتب بكتابة وبرع فيه.

وقد قصد المؤلف إلى تقريب السيرة من جميع فئات القراء، ليُعينهم على فهم أحداثها فهمًا واعيًا عميقًا، كي يعيشوا أخبارها وحوادثها يومًا فيومًا، وساعة فساعة، بل وأحيانًا: لحظة فلحظة، وليحلقوا في أجواء العهد المكي الفريد؛ وما كان فيه من دعوة وصبر، وصراع بين الإيمان والكفر.

ووفق الكاتب في ربط آيات القرآن بحوادث السيرة ووقائعها، مع وضع نهايات مشوقة موفقة؛ تجعل القارئ ينتظر ما بعدها بلهفة واشتياق، ويمضي في قراءتها نهمًا مُستمتعًا. معتمدًا في نسج قصته المصادر الأصيلة في السيرة، بطريقة علمية سليمة، يرضى عنها المتخصصون.

وكانت له التفاتًا واستنباطات رائعة من أحداث السيرة النبوية، هُدي إليها؛ ليعيشه في أحداث السيرة، مع صفاء نفسه وروحه، وما عهد فيه من تقوى وإيمان.

